الأسلام
الدين القيم

دراسة نقدية فكرية
للرد على مزاعم و افتراءات الغرب

دكتور
جابر عبد العزيز

2008

دار المطبوعات الجامعية
أمام كلية الحقوق
ت: ٤٨٦٢٨٢٩ - الإسكندرية

الإســـلام
الديــن القيــم

دراسة نقدية فكرية للرد علي مزاعم وافتراءات الغرب

الدكتــور
جـــابـر عبــد العـزيـز

٢٠٠٨

دار المطبـوعـاتـ الجامعيـة
أمام كلية الحقوق تـ ٤٨٦٣٨٣٩ - اسكـنـدريـة

رقم الإيداع : ١٤٥١٧/ ٢٠٠٨

الاهــداء

إلي أسرتي الكبيرة: كل المؤمنين والمؤمنات في عالمنا الإسلامي.

إلــي أســرتي الصــغيرة: زوجتــي الفاضلة وأولادي.

د. جابر عبد العزيز

الفصـــــل الأول

غالباً ما يعمد بعض الذين يحاولون أن يطعنوا الإسلام إلي طريقة ماكرة.. تشبه تغليف السم بقشرة من الحلوي.. لأنهم يعلنون فيما يكتبون بعض مزايا الإسلام.. ويمزجون بها أو يضيفون إليها ألواناً من التخريب والتجريح.. كأنما يحسبون أن المسلمين ينخدعون بما يشهد به هؤلاء الخصوم لدينهم.. فيصدقون كثيراً أو قليلاً مما يفترونه علي الإسلام.

علي أن لهم مأرباً آخر من التظاهر بالإنصاف.. هو التمويه علي غير المسلمين.. وصرفهم عن معرفة الإسلام علي حقيقته.. ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً.

وهذا ما حدث مع صديقي.. مسيو: شارل سايمون.. الكاتب الصحفي والمهتم بالشئون الإسلامية.. فقد قرأت له مؤخرا مقالاً عنوانه "محمد رجل الصحراء مؤسس الإسلام" هو في حقيقته من ذاك الطراز الماكر.. إذ أشاد كاتبه ببعض مزايا الإسلام.. أشادة ليست إلا وسيلة لإطلاق السهام المسمومة.. والحق أن ما يطلقه الكاتب أباطيل من السهل أن تكشف مناقشتها عن جهله أو تعصبه أو عنهما معاً.

وقد أتاح لي عملي السفر إلي فرنسا.. وكان أول شيء فعلته هو الاتصال بصديقي.. مسيو: شارل سايمون وتحديد موعد لقاء معه لمناقشة ما كتبه.

استقبلني شارع الشانزليزيه برحابته واتساعه.. وبدفقات هوائية باردة منعشة.. وبوجوه باسمة وعيون بارقة.. انطلقت إلي المقهي الذي اعتدت الجلوس فيه كلما جئت إلي باريس.. جلست ارتشف فنجان القهوة الذي أجيد عمله وتقديمه.

دائمـــاً.. دائماً أشعر بالغيرة تحرقني.. فهذا البلد- فرنسا- استطاع أن يضـــع عقد اجتماعي.. يجمع الفرنسيين: حكام ومحكومين.. ويضع لكـــل فـــرد دور معين.. صغير كان أم كبير.. لكنه هام وضروري.. وأصـــبح المجـــتمع في انسجام وتوافق.. يسير إلي الأمام في خطوات واثبة واثقة.. تجد هذا الشعور يملء كل الفرنسيين.

بيـــنما نحـــن فـــي بلداننا الإسلامية مازلنا عاجزين عن وضع عقد اجتماعـــي يرضـــي عنه الجميع.. لذا يلجأ الحكام إلي أساليب البطش والقهـــر لتســـيير أمور الحكم.. وهذا يؤدي إلي تعطيل قوي المجتمع.. ويصبح سيرنا إلي الخلف شيء حتما.

أفقـــت من تأملاتي علي يد صديقي.. مسيو: شارل سايمون توضع علـــي كتفـــي.. رحبـــت بـــه.. وكعادتـــه سحرني بابتسامته الأخاذة.. وأخبرني: أنه متشوق لهذا اللقاء.. ..

وامـــتدت الجلسة إلي الساعات الأولي من الصباح.. وإليك عزيزي القارئ خلاصة ما دار في اللقاء..

١- الدين المحمدي:

فقـــد زعـــم صديقي الكاتب أن محمداً أسس أعظم دين عرفناه: هو الديـــن المحمـــدي.. وأنـــه هـــو الذي سماه الإسلام.. وأنه رأي بعض الـــرؤى.. واعتقد أنها الطريقة التي يكلمه بها الله.. وبدأ يكتب ما تعلمه في كتاب سماه: القرآن.. وهو إنجيل المسلمين..

وليس هذا الإدعاء باطلاً بحسب.. بل أنه يجمع إلي بطلانه: الجرأة علي إنكار الحق.. وإبطال التاريخ.. وإلغاء العقول.

فمـــا كـــان محمد يدعي النبوة.. فيتحمل في دعواه أقسى المخاطر وأشد الشدائد.. ويصبر علي ما لا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً.. لا ينعم فـيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان.. ومعه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضـــون لفقد الأرواح والأموال والقلق الدائم علي الحياة.. وهو لم يجن من وراء دعواه ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان.

ولـــو أن محمـــداً كـــان مدعـــياً للنبوة لأثر علي دعواه الرضا بما عرضــــه علـــيه قومه من المال والملك.. حينما يئسوا من تراجعه عن الدعـــوة إلـــي الإســـلام.. الذي يسفه عقولهم.. ويلغي أديانهم.. ويبطل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم.. ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال.

ولـــو أن محمـــداً كـــان مدعياً للنبوة لأقام نفسه ملكاً علي الجزيرة العربـــية.. بعـــد أن دانت له.. ووافته القبائل لتعلم إسلامها.. وتدين له بـــالولاء.. لكـــنه لـــم يفعل ذلك.. وقد كان ميسوراً عليه.. بل آثر أن يقضي حياته فقيراً .. مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان.

ثـــم لمـــاذا يـــتهم محمـــد وحده بادعاء النبوة.. ولا يتهم غيره من الأنبـــياء..؟ وإذا كانـــت المعجزات هي الفيصل في تصديق دعواهم.. فـــإن معجـــزة محمـــد الكـــبرى وهي القرآن الكريم كانت الفيصل في تصديق دعواه.

علـــي أن زعماء قريش وصناديدها وكبراءها الذين عاندوا الدعوى حيـــناً مـــن الزمـــن.. لـــم يلبثوا أن آمنوا بها.. واقتنعت بها نفوسهم.. وكافحوا دونها بدمائها وأرواحهم وأموالهم.. إذ أيقنوا أن محمداً رسول الله.. ولـــيس صـــاحب بهتان ولا طالب جاه.. وأيقنوا أنه يوحي إليه.. وأن القرآن الكريم من عند الله.

٢- القرآن من صنع محمد:

ثـم زعـم مسيو: شارل سايمون أن القرآن من عمل محمد.. وهذه كذبـة رددها كثير من أعداء الإسلام.. ولكنها لا تستطيع أن تبقي بعد تفنيدها والكشف عما تتضمنه من زيف وضلال.

بـدأ النبـي بـالدعوة إلـي الإسـلام.. فكذب دعوته أكثر قومه.. وعارضـوه.. ولكـنهم فـي معارضتهم له.. وفي مقاومتهم لدعوته لم يجـرؤوا علـي اتهامـه بالكذب.. إذ لم يعرفوا عنه في حياته إنه من أصـحاب الكـذب والإدعـاء.. بل اتهموه بأنه شاعر.. وبأنه ساحر.. وبأنـه مجـنون.. وليس من المعقول أن يصدق محمد الناس.. ويكذب علي الله.

ولعـل صـديقي الكاتب يتفهم معني الآية الكريمة "**ولو تقول علينا بعـض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم مـن أحـد عنه حاجزين**" سورة الحاقة – ٤٤- ٤٧.. لأن الذي يتفهم الآيـة يتبيـن أن محمـداً عليه الصلاة والسلام ما كان لينفي عن نفسه تهمـة الكذب.. بهذا التصوير المخيف.. الذي يدل علي أن محمداً بشر ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً ولا شراً.

ولقـد كانـت تقـع أحداث جسام.. يتطلع فيها النبي إلي الهداية.. ويتشـوق إلـي الحكم الفصل.. فينتظر وهو ملهوف.. حتى ينزل عليه القرآن الكريم بالحكم الحاسم.

حـدث هذا في حالات كثيرة.. منها قصة الإفك.. التي نسجت حول زوجـته: السـيدة عائشـة.. وأبطـأ الوحـي.. والناس في قلق ولغط واضـطراب.. والنبـي نفسـه حائـر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا خيرا.. ثم بعد شهر كامل نزل الوحي ببراءتها مما افتروا عليها.

فلــو كان القرآن من صنع محمد لسارع منذ اليوم الأول إلي تبرئة زوجــته وحماية عرضه.. ولكان من السهل عليه أن ينسب إلي السماء مــا يدعــيه.. ليكف المتخرصون عن شكهم.. وليطمئن المسلمون إلي براءة زوجة نبيهم.

وكــان المقــام لا يحــتمل شيئاً من الصبر والانتظار.. لأن الطعنة مصــوبة إلي أعز ما يتصل بالإنسان الحر.. وهو العرض.. ولأن هذا العرض موصول بالإسلام.. صلة ترفعه أو تضعه.. فهو عرض النبي نفسه.. وعرض إحدى أمهات المسلمين.. وعرض صديقه أبي بكر.

ولا يصــح أن ينسى أحد في هذا المقام أن النبي عربي من أشرف قبــيلة من العرب.. والعرب أصحاب غيره علي أعراضهم.. وصيانة لنســائهم لم يكن لها بين الأمم نظير ومثال.. كما يعرف ذلك الدارسون من عرب ومستشرقين.. قدماء ومحدثين.

إذن كانت التهمة سيفاً مشهراً في وجه النبي.. وكانت قنبلة موجهة إلــي أمــنع حصن.. وكان الإسلام في مستهله لا يحتمل السكوت علي هذه الرجة التي تطيح بنبيه.

ولكــن النبي صبر وانتظر.. والأسى يحز في نفسه.. والقلق يجيش فــي صدره.. حتى نزل عليه الوحي بتبرئة زوجته.. ولم يكن ليستطيع أن يفعــل غــير ذلــك.. لأنه لا يؤلف القرآن.. بل يبلغه عن ربه ذي الجلال والإكرام.

ثــم أن الوحي كان ينزل بالقرآن أحياناً مجملاً.. ثم ينزل بيان لهذا المجمل.. وذلك يدل علي أن النبي صلي الله عليه وسلم ليس بمؤلف.. بل وسيط لا أصيل.. ومأمور لا آمر.

.. من الأمثلة علي هذا القول.. قوله تعالي:

"وأن تــبدوا مـــا فـــي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله".سورة البقرة- ٢٨٤

فقـــد فهـــم الصحابة أنهم حاسبون علي كل شيء.. حتى حركات القلـــوب وخطـــرات الـــنفوس.. فقالوا: يا رسول الله: أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها.

فقـــال لهـــم: أتـــريدون أن تقولـــوا كما قال بنو إسرائيل من قبلكم: "ســـمعنا وعصـــينا".. بـــل قولوا سمعنا وأطعنا.. غفرانك ربنا وإليك المصير.

فجعلـــوا يتضرعون بهذه الدعوات.. حتى أنزل الله بيانها في قوله: **"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"** البقرة- ٢٨٦.

فعلمـــوا أنهم لا يحاسبون إلا على ما يطيقون من النوايا والعزائم لا علي الخواطر والهواجس.

فلـــو أن القـــرآن مـــن عمل محمد لبين لهم تأويلها من أول مرة.. ولمحا حيرتهم.. ولكنه كان ينتظر التأويل كما ينتظرونه.

وكثـــيراً مـــا كانـــت تعرض مشكلة.. ويتلمس المسلمون عند النبي خلالهـــا.. فينـــتظر الحل الذي يوحي إليه.. فلو أنه منشيء القرآن كما زعـــم مسيو: شارل.. لأسرع باختراع الحل اختراعاً.. ليزيد في عيون أتـــباعه مهابة فوق مهابته.. ولا غضاضة عليه في أن ينسب الحل إلي ربه.. لأنهم سيصدقونه.. ولا يشكون فيما ينبئهم به.

ومـــن أمـــثلة هـــذا أن خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت.. جـــاءت إلـــي النبي تشكو زوجها.. لأنها بعد أن ولدت له أولاداً جعلها

علـيه كأمـــه.. أي أنـــه حرمها علي نفسه.. وقالت للنبي أن لي صبية صغاراً أن تركتهم له ضاعوا.. وأن أخذتهم منه جاعوا..

فقال النبي:

ليس عندي في أمرك شيء.. وروي أنه قال لها:

حرمت عليه.

فقالت.. يا رسول الله.. إنه لم يذكر طلاقاً.. وإنما هو أبو أولادي.. وأحب الناس إلي.. فقال الرسول.. حرمت عليه.. فقالت أشكو إلي الله فاقتي ووجدي.

وكلمـــا قال لها النبي: حرمت عليه.. هتفت وشكت إلي الله.. فنزل قولـــه تعالي "**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها، وتشتكي إلي الله، والله يســمع تحاوركمـــا، إن الله سميع بصير.. الذين يظاهرون مـــنكم من نسائهم ما هن أمهاتهم، أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وأنهم لـــيقولون مـــنكراً مـــن القـــول وزوراً، وأن الله لعفو غفور، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا، فتحرير رقبة من قبل أن يتماســـا، ذلكـــم توعظون به، والله بما تعملون خبير.. فمن لم يجد فصـــيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا.. فمن لم يستطع فإطعام ســـتين مســـكيناً.. ذلـــك لتؤمـــنوا بـــالله ورسوله، وتلك حدود الله، وللكافرين عذابا أليم**". سورة المجادلة ١-٤

وبهـــذا الحكـــم الإسلامي الذي نزل به الوحي.. قضي النبي في هذه المشكلة.. وألغي تحريم الزوجة علي زوجها بالظهار.. كما كان عرب الجاهلية يفعلون.

ولقد كان الوحي ينزل أحياناً بما لم يكن يتوقعه النبي.. فيخطئه في رأي رآه.. أو يـــأذن له فـــي شـــيء لا يقبل عليه.. أو يلومه في عمل عمله.

ولـــيس بمعقـــول أن يكـــون القـــرآن مـــن تأليف محمد عليه الصلاة والســـلام.. ثـــم يخطئ نفسه ويلومها.. ويأمرها بما تركت.. وينهاها عما فعلـــت.. لأن هـــذا يناقض المكانة التي يريدها المدعي لنفسه بين أتباعه.. ولا يلائم التمويه الذي يموه به علي الناس ليجتذبهم إلي تصديقه.

ومن هذا قوله تعالي: "**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك، تبتغي مرضات أزواجك، والله غفور رحيم**" سورة التحريم- ١.

وذلـــك أن النبـــي صـــلي الله علـــيه وسلم حلف.. ألا يقرب زوجته ماريا.. أو أنه حرم العسل علي نفسه.. إذ كان قد شربه في بيت زوجته زينـــب بنت جحش.. فاتفقت عائشة وحفصة علي ادعاء أنهما يشمان من فمـــي الرســـول رائحة المغافير- شيء ينضح عن الشمام والرمث يشبه العسل- فظن النبي الرائحة الكريهة من العسل.. فحرمه.

ومنه قوله تعالي: "**عبس وتولى أن جاءه الأعمي، وما يدريك لعله يزكي، أو يذكر فتنفعه الذكرى.. أما من استغني فأنت له تصدي، وما عليك ألا يزكي، وأما من جاءك يسعي وهو يخشي فأنت عنه تلهي**". سورة عبس ١-١٠.

وذلـــك أن عـــبد الله بن شريح الشهير بإبن أم مكتوم جاء إلي النبي وعـــنده أشـــراف قـــريش.. يدعوهم إلي الإسلام.. فقال يا رسول الله: أقرئنـــي وعلمنـــي ممـــا علمك الله.. وكرر ذلك وهو لا يعلم أن النبي مشـــغول بأشـــراف قـــريش.. فكره النبي مقاطعة الرجل له.. وعبس وأعـــرض عنه.. ثم نزلت الآيات تعاتبه.. فصار النبي يكرمه.. ويقول

إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.. ويقول له: هل لك من حاجة..؟ واستخلفه علي المدينة مرتين.

ومنه قوله تعالي: "**عفا الله عنك لم أذنت لهم، حتى يتبين لك الذين صدقوا، وتعلم الكاذبين**" سورة التوبة- ٤٣

وسبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين استأذنوا النبي في أن يتخلفوا عن غزوة تبوك.. لأنهم لا يستطيعون السفر البعيد.. أو لأنهم مرضي.. فأذن لهم النبي.. فنزل قوله تعالي: "**لو كان عرضا قريبا وسفراً قاصداً لابتغوك، ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، والله أعلم أنهم لكاذبون.. عفا الله عنك**".

ثم أن الذي يوازن بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي يجد لكل منهما طابعه المميز.. في النسق والنظم والتصوير والسمات العامة التي تتسم بها الأساليب الفنية.

وقد أعلن القرآن أنه معجز وتحدي بلغاء العرب جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله.. أو بآية من مثله.. فبان عجزهم.. علي حين أن النبي لم يدع أن كلامه معجز.. ولم يدع أحد من المسلمين لأحاديث النبي ضرباً من الإعجاز.

علي أن القرآن حافل بأمور شتى كان النبي صلي الله عليه وسلم لا يعلمها.. وكان العرب يجهلونها.. ففيه أخبار عن الماضيين صحيحة.. كان بعضها مجهولاً للعرب ولغيرهم.. وكان بعضها أساطير.. مثل تاريخ عاد وثمود.. وسد مأرب.. وإبراهيم ونوح..

ويضاف إلي ذلك أن التشريع في القرآن مغاير لما كان في العصر كله في الزواج والطلاق والميراث والبيع والشراء والوصية وغيرها.. وفيه عبادات تغاير العبادات تلك التي كانت معروفة حينذاك.. وفيه أنباء ببعض أحداث ستقع.. ثم وقعت فعلاً.. كانتصار الروم علي الفرس بعد الهزيمة ببضع سنين.

وفي القرآن آيات كثيرة تفسر تفسيراً مطابقاً للحقائق العلمية.. التي لم تكن معروفة من قبل.. بل لم تعرف إلا في الزمن الحديث.. ومعني هذا أن النبي ومعاصريه لم يكونوا علي علم بهذه الحقائق.

..وهذه الأمثلة كثيرة.. منه قوله سبحانه وتعالي:

"**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً.. ثم أنشأناه خلقاً آخر.. فتبارك الله أحسن الخالقين**" سورة المؤمنون ١٢- ١٤

ولقد أيد العلم أخيراً ما جاء في الآيات تأييداً مجمعا عليه.. من حيث نشأة الخلق وأطواره.. وتتابع هذه الأطوار تتابعاً يجعل العطف بالفاء دقيقاً غاية الدقة إلي أن يكسوا اللحم العظام.. وكذلك أيد العلم الحديث ما ذكرته الآيات الكريمة من أن العظام تخلق في الجنين قبل اللحم.

فمن أين لمحمد أن يعرف شيئا من هذا الذي لم يعرفه العلماء إلا منذ زمن قصير.

وكذلك قوله تعالي: "**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد في السماء**". سورة الأنعام- ١٢٥.

فإن هذه الآية تنطبق علي ما عرفه العلم الحديث من وجود الهواء في طبقة معينة محدودة في الجو.. ينعدم بعدها.. فلا يستطيع الإنسان أن يتنفس.. ولا يستطيع أن يعيش.. والذي يصعد في الجو إلي مسافة معينة يبدأ يشعر بالضيق شيئا فشيئا حتى يبلغ منطقة الفراغ.. فلا يستطيع الحياة.

وهذه الحقيقة العلمية التي كشف عنها العلم لم يكن النبي محمد ولا أحد من معاصريه يعلم منها شيئاً.. وهكذا تتكرر في القرآن الكريم آيات تنطبق علي الحقائق العلمية.. وفي هذا ما يقطع باليقين أن القرآن من عند الله.. بارئ الأرض والسماء.. لأن النبي صلي الله عليه وسلم لم يكن هو ومعاصروه.. يعرفون من هذه الحقائق شيئا..

وأنه لعجيب أمر هؤلاء الذين ينكرون أن يكون القرآن من عند الله.. وفيهم اليهودي الذي يدين بأن التوراة وحي من الله.. وفيهم المسيحي الذي يدين بأن الإنجيل كتاب من الله.

فلماذا يؤمنون بذلك وينكرون أن يكون القرآن من عند الله..؟ لقد كان المنطق السليم يقتضيهم أن يرفضوا التوراة والإنجيل كما يرفضون القرآن.. أو أن يصدقوا بالقرآن كما يصدقون بالتوراة والإنجيل.

أما أن يؤمنوا ببعض الوحي ويكفروا ببعضه.. فذلك هو الضلال والتضليل.

٣- من التوراة والإنجيل استقي محمد أفكاره:

ثم تمادي مسيو: شارل سايمون في ضلاله.. فزعم أن محمداً تعرف في سفره علي اليهودية والنصرانية.. وعلي كتبهما.. وأنه

سمي اليهود والنصاري أهل كتاب.. واستقي من التوراة والإنجيل كثيراً من أفكاره.

وهذه كذبة متداعية الأركان.. واهية كسابقتها.. لأن مسيو: شارل يتجاهل حقائق كثيرة أو يجهلها.. ولكنه يتهجم ويتعالم.

أ- فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يعزف من اليهودية والنصرانية.. إلا ما يعرفه قومه من ظواهر لا تكفل الدراية والعمق.

ب- وسفر النبي إلي الشام كان في المرة الأولي وهو صبي.. وهي المرة التي لقيه فيها الراهب المسيحي- بحيرا- وكان معه عمه أبو طالب وغيره.. ثم سافر إلي الشام مرة أخري وهو شاب.. ولم يلق أحداً من اليهود أو النصاري.. علي أن السفر التجاري العابر لا يتيح المعرفة والتأثر والإطلاع.

ج- ولو أن النبي تلقي من اليهود والنصاري شيئاً.. أو نقل من كتبهم بعض المعارف لسارع اليهود والنصاري إلي الجهر بأنه نقل من كتبهم واصطنع ديناً نسبه إلي نفسه.. ولاعتمد علي هذا مشركو مكة في تكذيب النبي حينما جهر بدعوته.. وأصروا علي مخالفته ومعارضته وحربه.

د- ثم أن الإسلام يخالف اليهودية والنصرانية في كثير من الأصول والعقائد والعبادات.. فاليهود يدعون عزيراً ابن الله.. والإسلام ينكر عليهم هذا.. لأنه دين التوحيد الخالص..

واليهود يحرمون العمل في يوم السبت.. والإسلام لا يحرم العمل في يوم من الأيام.. واليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار.. والإسلام قائم علي أن الناس جميعاً أخوة.. واليهود يحرمون البنت من

الميراث إذا كان لها أخ.. فإذا لم يكن لها أخ ورثت أباها.. بشرط أن تتزوج رجلاً من عشيرتها.

أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها.. وبعضهم يورث الرجل من زوجته.. وبعضهم لا يورثه.. والإسلام يخالف هذا كله.. واليهود يحلون الربا والإسلام يحرمه.. واليهود يحرمون لحوم الإبل والإسلام يحلها.. ويحرمون أكل الشحم ما عدا شحم الظهر.. والإسلام يحله.

ولليهود صيام وصلاة.. وللمسلمين صيام وصلاة يغايران صيام اليهود وصلاتهم.. كذلك يغاير الإسلام النصرانية من عدة وجوه.. فالنصاري يعتقدون أن المسيح صلب.. ويؤثرون الرهبنة.. ويدعون أن المسيح ابن الله.. ويعبدون السيدة مريم.. ويحرمون تعدد الزوجات ويحرمون الطلاق.. والإسلام يناقض هذا كله.

علي أن الإسلام يغاير المسيحية مغايرة جوهرية في أنه عقيدة وتشريع.. أما المسيحية فعقيدة.. وتشريعها قائم علي اليهودية في أصوله.

هـ- وإذا كان القرآن يتفق مع اليهودية في بعض القصص والتشريع.. فليس في هذا ما يدعو إلي الدهشة والاستسلام للفروض الباطلة.. لأن الأديان الثلاثة سماوية.. يكمل اللاحق منها سابقة.. والقرآن يقرر هذه الحقيقة مرات عدة.

قال تعالي: **"قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسي وعيسي، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون"**. سورة البقرة- ١٣٥.

وقـــال تعالـــي في شأن عيسي: "**وآتيـــناه الإنجيل فيه هدي ونور، ومصـــدقا لما بين يديه من التوراه، وهدي وموعظة للمتقين**". سورة المائدة- ٤٧.

وقـــال تعالي في شأن مو ،: "**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء**". سورة المائدة- ٤٣.

س- علـــي أن الـــذي يقـــرأ القـــرآن يجـــد فـــيه مجادلات لليهود النصاري.. وتسفيهاً لعقائدهم وأحكامهم وضلالهم.. فكيف يستمد النبي مـــن التوراة والإنجيل.. ثم يسفه اليهود والنصارى.. نجد ذلك في قوله تعالي.

"**وقالـــت الـــيهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا**". سورة المائدة- ٦٤.

وفـــي قولـــه تعالي: "**لقد سمع الله قول اللذين قالوا إن الله فقيراً ونحـــن أغنياء.. سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق**". سورة آل عمران- ١٨١.

وفـــي قولـــه تعالي: "**لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح ابن مريم**". سورة المائدة- ١٧.

وقوله: "**لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة**". سورة المائدة- ٧٣

٤- الحماسة الدينية والطموح الحربي وراء انتشار الإسلام:

زعـــم مسـيو: شـــارل أن الســـبب في انتشار الإسلام هو ارتباط الحماســـة الدينـــية بالطموح الحربي.. بعد موت النبي بعامين.. وادعي أن النبـــي علم العرب أن محاربة أعداء المسلمين حرب مقدسة.. وأن

المسلم الذي يقتل في الحرب ثوابه الجنة.. كما كان يفعل الصليبيون فيما بعد حينما حاربوا المسلمين.

وهاتان الدعوتان باطلتان..

أ- أما بطلان الدعوى الأولى فلأن مسيو.. شارل يتجاهل تاريخ المسلمين.. فيزعم أنهم لم ينتصروا إلا بعد وفاة رسول الله.. علي حين أن نصرهم بدا واضحاً منذ موقعة بدر.. واستمر في مواقع عدة بعدها ورسول الله حي ليشهد المواقع بنفسه.. حتى دانت له الجزيرة كلها بالإسلام.

ثم أنه يتغافل عن حقيقة لا مجال للشك فيها.. وهي أن الإسلام انتشر بقوته الذاتية الجاذبة.. لا بالقسر والإكراه والإغراء.. لأن القرآن يقرر صراحة أنه لا إكراه في الدين.. ولأن تاريخ الفتوح الإسلامية يسجل: أن المسلمين لم يجبروا أحداً علي أن يسلم.. بل كانوا يتركون الناس أحراراً في عقائدهم وعباداتهم.. حتى لقد شجعوا المسيحيين واليهود علي إقامة الكنائس.

ولا يصح أن يتغافل باحث عن هذه الحقيقة.. وهي أن الإسلام كان ينتشر في أوقات فقد فيها المسلمون نفوذهم الحربي والسياسي.. وما زال ينتشر إلي اليوم بقوته الذاتية.. ويعتنقه كثير من المفكرين الذين يعرفون حقيقته.

يقول السير توماس أرنولد:

لقد تصدعت أركان الإمبراطورية الإسلامية العظمي.. وتضعضعت قوة الإسلام السياسية.. لكن غزواته الروحية ظلت مستمرة دون انقطاع.. وعندما ضربت جموع المغول بغداد سنة

١٢٥٨ م.. وأغـرقوا فـي الدماء مجد الدولة العباسية.. وعندما طرد فرديناد ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة سنة ١٢٣٦م.. ودفعت غـرناطة- آخر معاقل المسلمين في أسبانيا- الجزية للملك المسيحي.. فـي هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه.. وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة.. وكان يشق طريقه في تقدم ناجح في جزر الملايو.

ويذكر أن الإسلام اجتذب إلي اعتناقه عدداً كبيراً من الصليبيين في القـرن الثانـي عشر.. وكان هؤلاء الذين أسلموا قواد وأمراء انضموا إلي المسلمين في أوقات انتصر فيها المسيحيون.

ويقـول السـير توماس: "أن ستة من أمراء مملكة المقدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطرهم أحد إلي ذلك.

وعلـي الذيـن يـتهجمون علـي الإسـلام زاعمين أنه انتشر بحد السـيف.. أن يـتذكروا أن الإسـلام قد شق طريقه إلي قلوب الغالبين المسـيطرين مـن خصومه.. وهم أصحاب الحول والقوة.. أولئك هم: الأتـراك السلاجقة في القرن الحادي عشر.. والمغول في القرن الثالث عشـر.. إذ سـارع الفـاتحون الغالـبون إلـي اعتناق الإسلام.. دين المغلوبين.

كذلـك نجد دعاة الإسلام الذين لا سلطان لهم قد حملوا عقيدتهم إلي أفريقيا الوسطي والصين وجزائر الهند الشرقية وغيرها.. فنشروها في يسـر وحسن.. وإذن فلا صحة لما أدعاه مسيو: شارل من أن انتشار الإسلام بالقوة.. أو انتشاره كان مصحوباً بحماسة حربية.

وعلـي مسـيو: شـارل أن يقـرأ ما قاله.. هوبيرد يشان.. حاكم المسـتعمرات الفرنسـية فـي أفريقية إلي سنة ١٩٥٠م.. وهو فرنسي مسيحي:

"لـم تقم دعوة الإسلام علي القسر والإكراه.. بل قامت علي الإقناع الـذي كـان يتولاه دعاة متفرقون.. لا حول لهم ولا قوة.. إلا إيمانهم العميق بالله.. وكثيراً ما انتشر الإسلام بتسرب سلمي بطئ من قوم إلي قوم.. فإذا ما اعتنقه السادة وهم هدف الدعاة الأول تبعتهم القبيلة كلها".

ويقول:

"ولقـد يسـر انتشار الإسلام أمر آخر.. هو أنه دين فطرة.. سهل التـناول.. لا لـبس فيه ولا تعقيد.. سهل التكييف والتطبيق في جميع الظروف".

ب- أما الدعوى الثانية فبينة البطلان.

لأن النبـي لم يكن داعية حرب.. بل كان داعية سلام.. وكان يؤثر السـلام ما وسعته الدعوة والإيثار.. فإذا لم يجد بداً من الحرب لحماية العقـيدة وصـيانة الأرواح والدفاع المشروع عن حق الحياة.. اضطر اضطراراً.. فحروبه كلها حروب دفاع لا حروب عدوان.

ومـع هذا فقد ضرب النبي للناس أروع المثل فيما سنه من قوانين شـريفة فـي إعـلان الحـرب.. وفي مقدماتها.. وفي سيرها.. وفي نتائجها.. وفي معاملة الأسري.. وفي معاملة المغلوبين.

أمـا مسـاواة مسيو: شارل بين المسلمين الأولين وبين الصليبيين.. فإنهـا مسـاواة باطلـة.. لأنه أقامها علي أن الصليبيين كانوا يعتبرون المسـلمين كفـارا.. كمـا كـان المسلمون الأولون يعتبرون مخالفيهم كفـاراً.. وزعم أن المسلمين الأولين والصليبيين.. كانوا يتهافتون علي قتال خصومهم وعلي الموت المقدس في حربهم.

هــناك فرق كبير بين المسلمين الأولين والصليبيين.. لأن المسلمين إذا كانوا يحاربون المشركين.. كانوا يضحون بأرواحهم في الدفاع عن عقيدتهم وعن حريتهم وعن وطنهم.. فيدفعون عن أنفسهم شراً واقعاً.. أو شراً يوشك أن يقع.

أمــا الصليبيون فقد كانوا معتدين مستعمرين.. مخربين حانقين علي الإســلام والمســلمين.. ومــا مــن أحد يجهل الفرق الكبير بين حرب همجــية مبعــثها الجشــع والحقد والطغيان.. وحرب مشروعة مبعثها الدفاع عن العقيدة والنفس والحرية والوطن.

فلــيرجع مســيو: شــارل إلي التاريخ ليتبين أن المسلمين كانوا في حــروبهم ذوي مروءة وشرف ورحمة ورعاية للقيم الإنسانية.. وليتبين أن الصليبيين كانوا يمثلون الوحشية والطغيان والهمجية.

ولــن يســتطيع بعد الموازنة المستندة إلي الوقائع الصحيحة إلا إن يكــف عــن هذه المساواة.. ويشهد للحروب الإسلامية بأنها سنت من الــنظم الســامية والمثل العليا.. ما لم تستطع أمة أن تأخذ نفسها به في القديم ولا في الحديث.

وهنا أنصح مسيو: شارل أن يقرأ قول العلامة جوستاف لوبون:

" لــم يكــتف قومــنا الصــليبيون الأتقياء بأنواع التعسف والتدمير والتنكــيل التى أتبعوها فى معاملة المسلمين.. بل عقدوا مؤتمراً اتفقوا فــيه بالإجماع على إبادة سكان القدس جميعاً من مسلمين ويهود.. وقد بلغ عدد الذين أبادوهم فى ثمانية أيام ستين ألفا.. لم يستثنوا منهم امرأة ولا شيخاً ولا طفلا.

وقولـه:" يدل سلوك الصليبين فى جميع المعارك على أنهم من أشد الوحـوش حماقـة.. فكـانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهالي العـزل والمحاربين.. والنساء والشيوخ والأطفال.. بل يقتلون وينهبون على غير هدى.

ثـم يـنقل جوستاف لوبون عن مؤرخين ورهبان شاهدوا بعيونهم فـيذكر أن الصليبيين كانوا يجوبون الشوارع.. ويصعدون إلى سطوح البـيوت لـيرووا غلـيلهم من التقتيل.. فكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشـيوخ ويقطعونهـم أرباً أرباً... وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة.. وكانوا يبقرون بطون الموتي ليخرجوا منها قطعاً ذهبـية.. وكانـت الدمـاء تسـيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث.. وقد ذبحوا عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر بالقدس.

وهكـذا يعـدد جوستاف لوبون مخازى الصليبيين- كتاب حضارة العرب- ص – ٣٩٧.

٥- تصعيب الحياة أمام غير المسلمين:

ثـم أدعى مسيو: شارل أن حكام المسلمين جعلوا الحياة صعبة أمام غـير المسلمين.. إذ أوجبوا عليهم أن يدفعوا كل الضرائب.. على حين سهلوا الأمر على الذين يعتنقون الأسلام.

ولـو أن مسيو: شارل عرف حقيقة الضرائب فى الإسلام لما تورط هـذا الادعـاء.. بل لشهد للإسلام بمحاباة غير المسلمين. لأن فرض على اتباعه ضرائب أكثر مما فرض على غيرهم.

أ- فقـد فـرض على كل مسلم يمتلك عشرين ريالاً من الفضة أو عشرة جنيهات ذهبية.. اثنين ونصف فى المائة كل عام. وفرض عليه

فـــى عـــروض التجارة ما يعادل ذلك.. وفرض عليه فى الأبل والغنم والماعـــز ضـــريبة تخـــتلف نسبتها باختلاف العدد.. وفرض عليه فى الأرض الزراعـــية عشر المحصول.. أو نصفه تبعاً لطريقة الرى.. إذا ما بلغ المحصول خمسين كيلة.

وفرض عليه زكاة الفطر فى كل رمضان عن نفسه وعمن يعولهم.

ب- ولـــم يفـــرض علـــى أهـــل الذمة إلا ضريبة على الرؤوس.. مقدارها فى المتوسط العام: نحو أربعة دنانير عن الغني فى كل عام.. ودنـــياران عن متوسط الحال.. ودنيار واحد عن الفقير.. وأعفي منها الشـــيوخ والأطفـــال والنساء والعاجزين عن الكسب والمنقطعين للعبادة الأرقاء والمجانين.

ومعني هذا أنه فرضها على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على العمـــل وكســـب المـــال.. وهـــم فـــى الحقـــيقة القادرين على الحرب والاشتراك فى الجندية.. فلو أنهم كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد.

وهذه الضريبة لقاء الخدمات العامة التى تكفلها الدولة لرعاياها من المســـلمين وغيرهم.. مثل الدفاع وإقامة الجسور وشق الترع ومرتبات القضـــاة والجـــنود.. وفـــى الوقت نفسه نظير الأعفاء من الجندية.. إذ كانـــت الجندية والدفاع عن الوطن واجب المسلمين وحدهم .. أما أهل الذمة فمعفون من هذا الواجب.

وكذلـــك فرض الإسلام على الأرض الزراعية خراجاً ضئيلاً.. لقاء مـــرافقها العامة.. والذى يدرس الضرائب فى الإسلام يتبين أن المسلمين كـــانوا أرحـــم الأمم فى فرض الضرائب وفى جبايتها.. وقد شهد بذلك غـــير المســـلمين مثل: منتسكيو والكونت هنرى دى كاسترى وجوستاف

لوبــون والســير توماس ارنولد ونورمان بينز وغيرهم.. ممن لا يصح لمسيو: شارل سايمون أن يشك فيهم.. أو يتهمهم بمحاباة الإسلام.

٦- الحضارة المعاصرة والإسلام:

وفــى ادعــاءات أخــرى لمســيو: شــارل .. حشد من الأكاذيب والأباطيل.. بعضها مقنع بقناع من الحياد وبعضها سافر مكشوف.

فقــد ذكــر أن المقارنــة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.. تظهر العــالم الغربي متفوقاً فى الثروة المادية والصحة والتعليم والقوة الحربية.. واستنبط من هذا: أن الدين الإسلامي هو المسئول عن تأخر شعوبه.

ومعنــي هــذا أن مســيو: شــارل سايمون خلط بين الإسلام وحالة المســلمين الــيوم.. فجــره هــذا الخلط إلى إتهام الإسلام بما يبرأ منه الإســلام.. والحــق أن الإسلام ليس مسئولا عن تخلف بعض المسلمين عن المدى الذى بلغته بعض الأمم الغربية.. بل المسئول.. هم المسلمون أنفســهم.. والــدول الغربية المستعمرة.. وذلك لأن الإسلام فى القرون الأولــى.. حيــنما كــان الدستور العام للمسلمين كفل لهم القوة والسيادة والحضــارة وجعلهم رواد العالم.. فى العلم والفكر والمدنية.. وما زالت الدراسات الغربية المنصفة تشيد بفضل المسلمين الذى لا يمكن انكاره.

ويكفــي أن أشير هنا إلى عدة إشارات.. إلى بعض فنون العلم الذى برع فيه المسلمون..

ففــى العلوم الرياضية- الحساب والجبر والهندسة- برع المسلمون وأضــافوا حقــائق كانت عظيمة التأثير فى تقدم العلم ورقي العمران.. فــنقلوا الأرقــام الهــندية وهذبوهــا.. وعنهم أخذتها أوربا.. وابتكروا طريقة الأحصاء العشرى.. واخترعوا الصفر.

ولا ينكر أحد أن الخوارزمي هو الذى اخترع الجبر.. وأورد فيه ثمانمائة مثال فى كتابه- الجبر والمقابلة- وقد نقله إلى اللاتينية: جرارد الكرموني فى القرن الثاني عشر الميلادى- فاعتمدت عليه جامعات أوربا إلى القرن السادس عشر.. وعرفت علم الجبر باسمه العربي.

وتوالت ترجمة كتاب الخوارزمي كله.. أو ترجمة فصول منه إلى عدة لغات.. ونشر بحثا عنه- ج. روسكا- بالألمانية بمجلة المجمع العلمي بمدينة هيدنبرج سنة ١٩١٧م.

ثم ألف عمر الخيام كتاباً فى الجبر يحتوى على حلول هندسية فى بعض الأعمال الهندسية.. فوضعوا أساس الهندسة التحليلية التى تبدأ الرياضة الحديثة بها.

وليسأل مسيو: شارل علماء الرياضيات عن ابن الهيثم.. العبقرى ليعلم إعجابهم به.. وتقديرهم له.. وكيف بحث فى الهندسة بنوعيها المستوية والفراغية.. وكيف حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط.. وكيف ابتكر قوانين صحيحة لمساحة الكرة والهرم والاسطوانة المائلة.. والقطاع الدائرى.. وكيف ابتكر الأسس فى انكسار الضوء.. وتشريح العين وتكوين الصور على شبكية العين.

وفى الفلك كان للمسلمين فضل عظيم.. إذ أنهم فى عهد الخليفة المأمون ١٩٨- ٢١٨هـ: ٨١٣- ٨٣٣م... قاسوا طول الدرجة الأرضية.. وحددوا محيط الأرض وحجمها على أنها كرة.. ووجدوا درجة الطول $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ ميلا عربيا.. وهذا التقدير قريب جدا من القياس الصحيح الذى انتهي إليه العلماء.. وصححوا كثيراً من أخطاء بطليموس فى كتابه المحيطي.

وبنوا عدة مراصد.. وجهزوها بأدوات شتي مثل مقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة- الساعة الشمسية- وكان محمد بن إبراهيم الغزارى أول من صنع اسطرلاباً.. وليرجع مسيو: شارل إلى آراء المستشرقين ليعرف تقديرهم العظيم لعلماء الفلك المسلمين مثل:

- أبي العباس يوحنا الاسبيلي سنة ١١٣٥م.

- أبي محمد بن جابر البتاني الذى صحح أخطاء.

بطليموس وضبط حساب الأفلاك التى يدور فيها القمر وبعض الكواكب. ومثل أبي الريحان البيروني: ٩٧٣- ١٠٤٨م

والذى قال فيه المستشرق سخاو:

أن عقليته الفلكية الرياضية أعظم عقلية عرفها العالم فى جميع عصوره.. ومثل الخوارزمي مؤلف تقويم البلدان.

أما براعة المسلمين فى الطب والصيدلة.. فإن علماء الغرب يعلمونها ويشيدون بها.. ويكفي فى هذا المجال أن أذكر لمسيو: شارل أن جامعة برستون الأمريكية خصصت جناحاً بها أطلقت عليه اسم الرازى: ٢٥٠- ٣٢٠هـ وجمعت به مؤلفاته.. وأذكر له أيضاً أن كتاب القانون لابن سينا: ٢٧٠- ٤٢٨ هـ كان ينبوعاً للطب فى أوربا.. وكان يدرس بجامعاتها إلى آخر القرن السابع عشر الميلادى.. ولا يزال مصدراً من مصادرهم.. حتى أنهم طبعوه أكثر من خمس عشرة مرة.. كذلك تتلمذت أوربا على كتاب - الكليات فى الطب- لابن رشد ٥٢٦-٥٩٥.. وأطلقت على هذه الكليات - كوكيجت- وهو تحريف للكلمة العربية.

وأمـــا فـــى الكيمـــياء فقد استكشف المسلمون ماء الفضة- حامض النـــتريك- وزيـــت الزاج- حامض الكبريتيك- وماء الذهب- حامض النيتروهـــيدروكلوريك- وحجر جهنم- نترات الفضة.. وملح البارود- نترات البوتاس- وغيرها...

وإن علـــم الكيمـــياء لـــيفاخر بجابر بن حيان ١٢٠- ٢٠٠هـــ هذه إشـــارة سريعة جداً إلى أطراف من ابتكار المسلمين وسبقهم كافية فى التدلـــيل على أن الإسلام برئ مما افتراه ذلك الكاتب.. وأني احيله إلى شهادات كثير من الغربيين للعرب مثل - رينان- فى قوله: أن العلوم والحضـــارة والآداب مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم طوال ســـتة قرون.. وقولا - سيديور: أن العرب هم أساتذة أوربا حقاً فى كل ضروب المعرفة.

فلـــو أن الإسلام كان معوقاً عن التقدم.. لعجز اتباعه عن أن يبلغوا الشـــأن الذى بلغوه .. وما استطاع أن يخرج من أبناء الصحراء ساسة العالم وأساتذة فى أقل من قرن واحد.

والـــذى يـــدرس تـــاريخ المســـلمين.. ويتعرف أحوال المجتمعات الإســـلامية بعد القرون الثلاثة الأولي.. يجدهم قد تحللوا من مثل عالية كثـــيرة نصـــبها لهم دينهم.. فتفرقوا بعد الوحدة.. وضعفوا بعد القوة.. وتقسمت دولتهم الكبرى إلى دويلات وإمارات يحارب بعضها بعضاً.. ويستعين بعضها على بعض بأعداء الإسلام والمسلمين.

وقـــد كـــان هـــذا الانقســـام المغرق المضعف هو الذى أطمع فيهم المغيرين من التتار الوثنيين.. والروم المسيحيين.. والقوط النصارى.. فهجموا على ديارهم.. وخربوا ما إقامه المسلمون وعوقوا تقدمهم.

ثم كانت الحروب الصليبية التى شنها الغرب المسيحي على المسلمين قرنين من الزمان فى ضراوة ووحشية.. وحنق ضج منها كثير من مؤرخي الغرب النصارى.. فزادت المسلمين ضعفاً على ضعف.

ولم يكد المسلمون يفيقون حتى جاء الاستعمار الغربي.. فأعمل معاوله الهدامة فى كيان المسلمين من دين وأخلاق واقتصاد وثقافة.. فلم يتوقف المسلمون عن التقدم فحسب.. بل رجعوا إلى الخلف.. على حين أن الأمم الغربية كانت تشق طريقها إلى الأمام.

فالتبعية إذن تقع على الاستعمار وعلى المسلمين لا على الإسلام.

على أن الموازنة بين المسلمين والغربيين اليوم موازنة غير دقيقة.. ولا منصفة.. وذلك أن أمماً شرقية كثيرة متخلفة عن الأمم الغربية.. وليس الإسلام دينها السائد.

ولو أن الإسلام هو المسئول عن ضعف أتباعه لما تقدم المسلمون إذ كانوا مستمسكين بدينهم.. ولما تأخروا حينما تهانوا فى الاهتداء بتعاليمه.. وكيف يصدق منصف أن الإسلام عامل من عوامل التخلف.. وهو يدعو إلى كل ما ينهض الأفراد والأمم.. من تفكيرها.. وعلم نافع.. وخلق كريم.. ونصرة للحق.. وتعاون على الخير.. وبر بالفقراء.. وحماية للضعفاء.. وسعي جاد فى استغلال خيرات الأرض.. وشغف بالتفكير والعلم.. واستعداد حربي يقظ لصدا العدوان وحماية العقيدة وصيانة الوطن.

ثم لماذا بقيت أوروبا المسيحية تخبط فى ظلمات الجهل والفوضي إلى القرن الثالث عشر.. فلم تبصر نور الحضارة إلا بعد أن أشرقت عليها شمس الحضارة الإسلامية من سورية وصقلية والأندلس؟

ألــيس مــن حقــنا أن نسأل على طريقة مسيو: شارل فنقول: لماذا بقيت أوروبا المسيحية جامدة متأخرة إلى القرن الثالث عشر؟ ألا يصح الادعاء بأن الذى وقف بها وعوقها عن التقدم هو دينها المسيحي...؟

٧- الزهد والاستغراق فى العبادة:

زعــم الكاتب أن المسلمين استمسكوا بناحية واحدة من دينهم وهي: الــزهد والاستغراق فى العبادة.. وهذا سبب من أسباب تأخرهم.. لأنه يقول:

يمكن تشبيه الإسلام بحبل به عدة جدائل.. تمثل الاعتقادات والآراء المختلفة.. ومن الخطأ فصل جديلة معينة.. والاعتقاد بأنها هي الحبل.. ومــن المحــتمل أن يقــارن المرء هذا بالحال الذى يحدث لو أن كل المسيحيين أصبحوا نساكاً ومتبتلين..".

ولــيس هذا من الصواب فى شئ.. لأن الإسلام عقيدة عمل.. دين وسياسة.. فهو يدعو إلى العمل للدنيا.. ويدعو إلى العمل للآخرة.. فلا يعرف التواكل ولا التقاعد ولا الرهبنة.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحض على العمل للدارين..

كقوله تعالي:

" فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله".

سورة الجمعة- ١٠

وقوله تعالي:

" قــل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق".

سورة الأعراف- ٣٢

وقوله تعالي:

" **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً**" سورة الكهف – ٣٠

وقوله تعالي:

وقــل اعملــوا فســيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" سورة التوبة– ١٠٥

وقوله تعالي:

" **وأعــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**". سورة الانفال– ٦٠

والأحاديث النبوية تحث على العمل.. **كقوله صلى الله عليه وسلم:**

أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وقوله: لأن يحمــل أحدكم حبلاً فيحتطب به خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

وقوله: ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده

وقوله: اليد العليا خير من اليد السفلي.

وقوله: المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف.

ولقــد فهــم صــحابة رســول الله صلي الله عليه وسلم هذا كله.. وحضــوا علــى العمــل.. كقول عمر بن الخطاب: لا يقعد أحدكم عن طلــب الــرزق وهو يقول اللهم أرزقني.. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

٨- الحماسة الدينية والحربية والفلسفية:

وأدعـــي الكاتـــب أن المســـلمين تفوقـــوا فى العلوم والفلسفة حينما انصرفوا عن الفتوح.. فإذا كان يريد بذلك أنهم تفرقوا فى العلوم حينما ضـــعفت حماســـتهم الدينية والحربية.. فإن الواقع ينقضي دعواه.. لأن العلاقـــة بيـــن الحماسة الدينية والتفوق الفكرى.. أقوى من العلاقة بين الفتور الديني والتقدم الفكرى.

فلقـــد تـــرجم المسلمون وألفوا وابتكروا وصححوا كثيرا من أخطاء الـــيونان فـــى علـــوم مختلفة فى العصر العباسي بالشرق وفى العصر الأمـــوى بـــالأندلس.. وهـــم فـــى تلـــك الأوقات يجاهدون أعداءهم.. وينتصـــرون عليهم.. مدفوعين بحماستهم الدينية.. وحميتهم السياسية.. حتى لقد عرفوا فى تاريخهم المشرف بأن علومهم كانت تساير سيوفهم المظفـــرة.. وبـــأنهم كـــانوا لا يلبـــثون أن يفتحوا بلداً حتى يقيموا فيه المساجد والمدارس معاً.

ثـــم ضـــعف المسلمون سياسياً.. وفترت حماستهم الدينية.. ولكنهم مـــازالوا يؤلفـــون ويبـــتكرون مدفوعين بنشاطهم العلمي السابق.. فلما اشـــتد ضـــعفهم.. وازدادت حماســـتهم الدينية جمعاً وتلخيصاً وشرحاً للمؤلفـــات السابقة.. وتعليقاً عليها. حتى أن تاريخ العلم لا يعرف عالما مبتكراً فى مرحلة الضعف هذه على طولها.

ومعنـــي هـــذا أن فتور الحماسة الدينية لم يصحبه تفوق فى الإنتاج العلمي والفلسفي.. بل صحبة تعثر وجمود.

أمـــا إن كـــان مســـيو شارل سايمون يريد أن المسلمين تفوقوا فى العلـــوم حيـــنما اطمـــأنوا بالأمصار.. وكفل لهم الانتصار جواً ملائماً للإنـــتاج الفكـــرى.. إن كان يقصد ذلك.. فإنه طبيعي.. لأن المسلمين

شغلوا فى القرن الأول بتفهم دينهم.. وبالدفاع عنه وعن أنفسهم.. وشغلوا بدعم سلطانهم.. والتغلب على المتربصين بهم.. ورد عادية المغيرين عليهم.. ومن شأن هذا أن يصرف عن الإنتاج الفكرى.

ولكنهم مع ذلك جالوا فى ميدان النشاط الفكرى والعلمي والأدبي جولات.. ففى القرن الأول وضعت الأصول الأولى للمذاهب السياسية والفكرية والدينية. فكان المرجئة والمعتزلة والشيعة والخوارج.. وكان نشاط فى التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ.. وبدأت طلائع الترجمة والتأليف فى الطب والكيمياء.

وإذن: فإنه من الخطأ أن يتهم الإسلام بأنه يعوق عن الإنتاج العلمي.. لأن الإسلام يدعو إلى العلم ويشجع عليه.. ويرفع أقدار العلماء.. كذلك من الخطأ أن تتهم الحماسة الدينية بمعارضتها للنهضة العلمية.. فلولا الإسلام ما تفوق العرب فى العلوم المختلفة تفوقهم المشهور.. ولما نشأت العلوم التى كان للإسلام الفضل فى نشأتها وازدهارها.

٩- تقبل النبي نظام الرق دون اعتراض:

ولو أن الكاتب مسيو شارل على شئ من العلم لقرر عكس ما زعم.. فقد جاء الإسلام والرق نظام اجتماعي سائد فى العالم كله.. أقرته الفلسفات والأديان.. ولم تحاول علاجه بأى دواء.

ولكن الإسلام تفوق عليها كلها بابتكار الوسائل إلى إلغائه إلغاء تدريجياً.. لا يزلزل النظام الاقتصادى والاجتماعي القائم.

فليعلم مسيو: شارل أن الإسلام ضيق مصادر الرق بعد أن كانت لا تخضع لضابط ولا نظام.

وليعلم أن الإسلام ابتكر وسائل شتى لتحرير الأرقاء..

وأنـــه اعـــترف بأنهم بشر لهم حقوق يجب أن تصان.. وأنه حض علـــى إحسان معاملتهم لأنهم أعضاء فى أسرة الملاك.. وخير لمسيو: شـــارل أن يقـــرأ ما كتب الباحثون فى هذا الموضوع.. ليجد ما يبهره مـــن تشـــريع عظيم سبق الإسلام به ما دعا إليه الغربيون من تحرير الأرقاء بعد دعوة الإسلام بثلا عشر قرناً.

ثـــم ليـــنظر فيما يعانيه الملونون فى أمريكا وفى أفريقيا من مهانة وإجحـــاف واعتداء من البيض عليهم.. وهم دخلاء على ديارهم.. وأن هذا لأشنع من الرق.. وأدعي إلى شن الحملات.

١٠- النساء المسلمات محرومات من الحرية:

ثـــم أدعي مسيو شارل أن النساء المسلمات كن وما زلن محرومات من الحرية فى اختيار أزواجهن.. ومن التصرف فى أموالهن.

وهو مخطئ تماماً:

أ- لأن الإســـلام يقرر أن تختار المرأة الثيب زوجها بنفسها.. وأن يســـتأذن الأب أو ولـــى الأمـــر الفتاة البكر فى زواجها. وللإسلام فى الخطـــبة طـــريقة تكفل للخاطب وللمخطوبة أن يلتقيا ويرى كل منهما الآخـــر.. فيقبله أو يرفضه.. فى نطاق من العفاف وصيانة الأعراض والبعد عن الإشاعات.

ب- ولأن الإســـلام يبيح للمرأة أن تمتلك وأن تتصرف فيما تمتلك كما ينصرف الرجال.

ولعـــل مســـيو شارل يتذكر أن حق الملكية كان محظورا على المرأة العـــبرية واليونانـــية.. ولعله يتذكر أن القانون الانجليزى الذى صدر فى

القـرن الثامـن عشـر قد حرم المرأة حقوقها المالية كلها تقريباً.. فكانت ثروتها لأبيها.. ثم لزوجها.. ولم تخول حق التملك إلا منذ سنة ١٨٨٢م.

ولعلـه يـتذكر أيضا أن المرأة الفرنسية المتزوجة مازال محظوراً علـيها أن تتصرف فى مالها إلا بإقرار من زوجها.. ما لم تشترط فى عقد الزواج أن تكون حرة فى تصرفها المالي.

فلـيوازن مسيو شارل بين ما خوله الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً وبين نقيدها بالقوانين الغربية الحديثة.

ثـم أدعـي أن شرف المرأة كان مرهوناً بمحافظة زوجها عليها.. فـإذا قصـر فـى حماية شرفه.. واستسلمت زوجته لرجل آخر.. فلا يلومن إلا نفسه.

وهـذا كـلام باطل.. لأنه يريد أن يصور المسلمات متهالكات على الـرجال.. لا يعصمهن من الفحشاء إلا رقابة الأزواج.. ولست أدرى كـيف. أباح مسيو: شارل لنفسه أن ينكر على المرأة المسلمة حرصها علـى عفـتها.. وصـيانتها لرباط الزوجية.. واستنكارها أن يخلو بها شخص آخر غير محرم.؟

ولسـت أدرى كيف ناقض مسيو: شارل نفسه.. لأنه ذكر فيما سبق أن الإسـلام – يهيمـن على سلوك الفرد فى حياته اليومية.. ثم أدعي عنا أن الزوجة تسارع إلى رجل آخر إذا قصر زوجها فى مراقبتها.

أمـا إذا كـان مسـيو: شارل يعيب غيرة المسلمين على زوجاتهم.. ولكـنه يـريد أن يشـوها هـذا التشويه.. فعليه أن يعلم أن الغيرة من مقتضـيات الإسـلام.. ومن تقاليد العرب المتوارثة قبل الإسلام.. ومن دلائـل الرجولة والأنفة والحرص على سلامة الأنساب والأعراض ومن

مظاهـر تقديـر الـرجل للحـياة الأسرية ورعايتها وإعزازهم للنساء.. والعطف عليهن.. والمبالغة فى صونهن عن الابتذال وعن القيل والقال.

وشتان بين مجتمع يغار فيه الرجال على النساء.. ومجتمع منحل لا غـيرة فـيه.. يخادن فيه الر جال النساء متزوجات وغير متزوجات.. وأيهمـا أليق بالإنسانية الكامله: أن تعف المرأة ويغار عليها الرجال.. أم أن تتمادي فى غوايتها ولا يغار عليها الأقارب والأزواج.

لـذا فأني أنصح مسيو: شارل أن يراجع نفسه.. وأن يدرس قبل أن يـتهجم.. فلعل دراسته تهديه إلى كثير من حقائق الإسلام.. وتجنبه ما تورط فيه من اضاليل وأباطيل.. وتهجم هزيل ضعيف.

١١- الإيمان بالقضاء والقدر سبب تخلفنا الأخير:

وهذا زعم باطل.. ولندرك زيف هذه المقولة.. يجب أن أمهد بكلمة عما نعنيه بعلم الله وعلم البشر:

إذا نظـرنا إلـى صانعي الأقمار الصناعية والصواريخ والسيارات وسـفن الفضـاء.. نعلـم كـيف يعلمون علم اليقين اتجاهها وسرعتها والمـناطق الـتى سـتمر بها.. ويحددون أزمان مرورها على المدن والـبلدان.. وكـيف يعرفون ما يشبه ذلك معرفة دقيقة يندر أن يتخلف شئ منها؟

فكـيف يـنكر عـاقل أن الله سـبحانه وتعالي وهو الخلاق العظيم والبصـير العلـيم يـبعد عـن علمـه مثقال ذرة فى السماوات أو فى الأرض؟ لـذا فأننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن بارئ الكون ورب العالمين يعلم علماً لا يتغير.. ويقدر تقديراً لا يبتذل.

وإذا كان من صفات علم الإنسان أنه محدود قاصر.. فأن من صفات علم الله إنه لا حدود له ولا قصور فيه.. لأنه العلم العام الكامل الشامل.. كذلك يتصف العلم الإنساني بأنه لا يتعلق إلا بالأشياء الموجودة فعلاً.. لأنه نتيجة لها وأثر من آثارها.. على حين أن العلم الإلهي يشمل حاضرها ومستقبلها.. لأنه السبب فى وجودها.. فهو يعلم الأسباب ويعلم نتائجها علماً أزلياً أبدياً خاصا به وحده.. لهذا كان علم الغيب مقصوراً على الخالق سبحانه..

قال تعالي: " قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله" سورة النمل- ٦٥.

وقال تعالي: **"وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين"** سورة الأنعام- ٥٩.

وبديهي أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يعرف حقيقة علم الله للأشياء المستقبلة.. لأن هذا العقل عاجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية.. فمن الطبيعي أن يعجز عن معرفة صفات الله تعالي.. بل أن العقل الإنساني عاجز عن معرفة كثير من أحوال الجسم الإنساني والنفس الإنسانية.. وكثير من ظواهر الكون التى يشهدها.. فهو أولى بأن يستبين عجزه عن معرفة ما وراء المادة.. وعن إدراك صفات الله سبحانه وتعالي.

وإذا كان الإنسان يفرق بين علمه الماضي وعلمه للحاضر.. وظنه فى المستقبل.. فإن هذه التفرقة تنطبق على الإنسان وحده.. وليس من الجائز أن تنطبق على علم الله.. لأن علمه أزلى أبدي.. وكل شئ من المستقبل خاضع لعلمه كالحاضر.. وهو تعالي يعلم الأمور المستقبلة علمه للحاضر.

ما معني القضاء والقدر:

أ- لا شـــك إذن فى أن علم الله واسع شامل محيط بما كان ربما سيكون وبمــا ظهــر وبما استتر.. لأن الله سبحانه وتعالي هو الخالق.. ولأنه أكمل الموجــودات.. فلابد أن يكون له من الصفات أكملها وأعلاها ولابد أن يكون علمه أوسع علم وأدق علم.. بحيث لا تتصور العقول علماً يداني علمه.. كما أنها لا تستطيع أن تتصور وجوداً يدنو من وجوده.

ومعنـــي هــذا أن مـــالك الكــون عليم بما يحدث فى ملكه علماً سابقاً للأحـــداث والوقائع.. فلا يقع فى ملكه حدث إلا موافقاً لارادته.. وهذا هو المعنـــي المخـــتار للقضـــاء والقـــدر.. فالقضاء الحكم والإرادة .. والقدر الـــتقدير والترتيـــب والتنظيم.. وقد يطلق القدر على القوانين التى أودعها الله فى الكائنات.. لتسير على مقتضاها الأحياء.. وتخضع لها الجمادات.. كرســـوب بعـــض المواد فى الماء.. وطفو بعضها فوقه.. وتمدد المعادن بالحرارة.. وتبخر الماء بالتسخين وتجمد السوائل بالبرودة.

فالمراد من أن كل شئ بقضاء الله وقدره.. أنه يوجد مطابقاً لحكمه وإرادتـــه وترتيبه الأزلى على النحو الذى علمه وأراده.. وهذا المعني يـــترد فى آيات كثيرة.. منها قوله تعالي: " **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد.. وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**". سورة الرعد- ٩

وقوله تعالي:

" **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير**". سورة الحديد- ٢٢

وقوله تعالي:

" أنـــا نحـــن نحـــي الموتى، ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين". سورة يس- ١٢

والأحاديـــث النبوية تجرى على هذا النسق.. كقوله صلى الله عليه وســـلم: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله تعالي: أن الله عنده علم الســـاعة، ويـــنزل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، أن الله عليم خبير.

ب- وقضاء الله حتمي لا يتخلف.. قال تعالي:

"ولقد كذبت رسل من قبلك، فصبروا على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله". سورة الأنعام – ٣٤

وقـــال تعالـــي: **"ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون".** سورة الصافات ١٧١-١٧٣

وهـــذا بديهـــي لا يحتاج إلى تعمق فى التفكير. لأن رب الكون لا يمكـــن أن يقـــع فى ملكوته شئ لم يعلمه ولم يرده أزلاً.. وإلا كان – تعالـــي عـــن ذلـــك علواً كبيراً- غير محيط بما يحدث فى ملكه.. أو مكرها على ما يقع فيه.

لماذا يؤمن المسلمون بالقضاء والقدر؟

إنـــه مـــن الطبيعـــي إذن أن نؤمن نحن المسلمين بقضاء الله وقدره إيماناً لا يتزعزع...

أ- لأنـــنا نؤمـــن بعلم الله وقدرته وإرادته.. وندين بما يلائم عظمته وجلالـــه.. ونصدق بكتابه وبأحاديث رسوله.. وبما تضمناه من قضاء الله وقدره.

ب- ولأن هـذا الإيمـان يعصـمنا من الغرور إذا ما حالفنا نجاح ونصـر.. فقـد تسول للمنتصر نفسه أنه بجده وحده انتصر.. فيتمرد ويطغـي.. وينسي أن يشكر ربه.. ويتعامي عن حقوق من حوله.. كما فعـل قـارون إذ أبطـره ثراؤه.. وزعم أنه كسب المال الكثير بعلمه ونسـى حـق الله فيه.. فجسه الله نكالاً وعظة لغيره.. **قال تعالي: "إن قـارون كـان من قوم موسي فبغي عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنـيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين".** سورة القصص- ٧٦- ٧٧

قـال إنما أوتيته على علم عندى.. أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قـبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً.. ولا يسأل عن ذنوبهـم المجرمون. فخرج على قومه فى زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. وقال الذيـن أوتوا العلم ويلكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصـرونه مـن دون الله ومـا كـان من المنتصرين، إما كان من المنتصـرين. وأصـبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسـط الـرزق لمـن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون". سورة القصص:٧٨- ٨٢

ج- علـى أن هـذا الإيمان إذ يعصمنا من الغرور يبعد عنا الخور والضـعف والـيأس والسخط أن نزلت كارثة.. أو حدث إخفاق.. لأن المؤمـن بالقضـاء ويصبر على ما أنزل به.. ويستمد من صبره قوة

علـــى مغالبة عوامل القنوط والاستسلام.. فيستأنف حياه فى جد مثمر.. وبعزيمة قوية.. وأمل متّجدد وقلب متفتح.

د- ثـــم أن إيماننا بقضاء الله وقدره يبعث فينا كثيراً من الفضائل.. إذ أن المؤمن بالقضاء شجاع.. لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق فى علـــم الله مـــن مـــوت أو حياة.. ومن سلامة أو اضطهاد ومن نفع أو ضـــرر.. والمؤمن بالقضاء أبي عزيز النفس إلا يذل لأحد.. ولا يدنس ضـــميره أو كرامـــته لقاء ثمن.. لأنه يعتقد أن النفع والضرر بيد الله.. وقـــد سبق به علمه وقضاؤه.. فلو اجتمع الأنس والجن على أن ينفعوه أو علـــى أن يضـــروه.. فإنهم لا يستطيعون شيئاً سوى ما سبق به علم الله وقضاؤه.

والمؤمـــن بالقضاء راض دائما.. مستبشر دائماً.. متفائل فى جميع حالاته.. لأنه مطمئن إلي رحمة الله ولطفه وعدله.

هـــــ- ولا شك أن الإيمان بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والســـخط.. لأن الـــذي يحسد غيره علي نعمة أنعم الله بها عليه ساخط علـــي قضاء الله.. والذي يحقد علي ذي نعمة متبرم بحظه من الحياة.. والذي يسخط نصيبه من الدنيا ضعيف الثقة بقضاء الله.

ك- ونحـــن نؤمـــن بقضـــاء الله.. لأن الله تعالـــي إذا أوجب علينا الإيمان به.. أوجب علينا أن نعمل وأن نسعي.. وأن نتخذ من الأسباب والوســـائل مـــا يحقـــق الغايات المشروعة.. فلا كسل ولا تكاسل ولا خمـــول ولا تواكـــل.. ولهـــذا نهانا سبحانه وتعالي عن تعريض أنفسنا للهلاك في قوله:

"ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة" سورة البقرة- ١٩٥.

وأمــرنا بالدفـــاع عن الدين والوطن في قوله تعالي: "يا أيها الذين آمــنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" سورة آل عمران- ٢٠٠.

وأمرنا بالسعي والعمل والحصول علي الرزق.. قال تعالي:

"فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله". سورة الجمعة- ١٠.

وهكذا تتكرر الأوامر في آيات كثيرة مؤكدة هذه المعاني وأمثالها.. والأحاديــث النــبوية تتفق مع القرآن الكريم في الحض علي العمل.. كقوـــله صلي الله عليه وسلم: تداووا يا عباد الله.. فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاءاً.

ل- ونحــن نؤمــن بالقضاء لأن الأحداث قبل أن تقع سر محجب عــنا.. لا يعلمه إلا الله الذي قضي وقدر.. وليس في استطاعة مخلوق أن يعلــم المقدور.. وكيف يتطلع أحد إلي معرفة.. مع أن النبي صلي الله علــيه وسلم أمره الله أن يقول **"لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء".** سورة الأعراف- ١٨٨.

ولهــذا نعي الله علي المشركين اعتذارهم عن شركهم بأنه قدر من الله.. ونعــي علي ما يعتذرون بالقدر في انصرافهم عن الخير وإقبالهم علي الشر.. قال تعالي: **"سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنـــا، ولا حرمنا من شيء.. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقــوا بأســنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا..؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون".** سورة الأنعام- ١٤٨.

وقد قال سراقة بن مالك لرسول الله صلي الله عليه وسلم: يا رسول الله بين لنا ديننا.. كأننا خلقنا الآن.. فيم العمل؟ أفيما جفت به الأقلام.. وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال رسول الله: فيما جفت به الأقلام وجرت المقادير.

قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا.. فكل ميسر لما خلق له.. وكل عامل بعمله.. وروي عن علي ابن أبي طالب: كنا في جنازة.. فأتانا رسول الله.. فقعد وقعدنا حوله.. ومعه مخصرة.. فنكس.. وجعل ينكث بمخصرته.. ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة.. فقالوا: يا رسول الله.. أو لا نتكل علي كتابنا وندع العمل؟ قال: أعملوا.. فكل ميسر لما خلق له.. أما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة.. ومن كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة.. ثم قرأ قوله تعالي: "**فأما من أعطي واتقي وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**". سورة الليل- ٥- ١٠.

والأحاديث النبوية كثيرة في تأكيد هذا المعني.. كقوله صلي الله عليه وسلم: إذا سألت فسأل الله.. وإذا استعنت فاستعن بالله.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك.. وأن اجتمعت علي أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

م- لهذا كله كان الإيمان بالقضاء والقدر نعمة علي البشر.. لأنه ظل من الطمأنينة وارف.. ونعمه من السكينة الراضية بقضاء الله.. ولأنه حافز علي قوة العزائم.. وباعث علي العمل والعزة والشجاعة

والصبر.. ووقاية من الشرور التي تصيب الأفراد والجماعات.. كالحسد والأثرة والشماتة والنفاق والجزع واليأس.

الإيمان بالقضاء والقدر قوة دافعة:

لقد فهم السلف الصالح ؛ القضاء والقدر أنه لا يثبط عن العمل.. ولا يعوق عن السعي.. ولا يبيح الرضا بذلة أو مهانة أو ضعف.. بل أنه دافع إلي العمل وباعث للحرية.. ورضا بالنتائج في غير ما سخط وبغض للحياة.. ويأس واستسلام.

لهذا كانوا يتخذون لكل أمر أهبته غير متواكلين أو مقصرين.. فقد خرج عمر بن الخطاب إلي الشام.. ولقبه بعض القواد وأخبروه بانتشار وباء بها.. فاستشار المهاجرين والأنصار.. فأجمع المهاجرون علي الرجوع.. واستجاب عمر لمشورتهم.. فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها.. نعم نفر من قدر الله إلي قدر الله.. ولم يكتف عمر بذلك.. بل ضرب لأبي عبيدة مثالاً محسوساً إذ قال له: أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له جانبان.. أحدهما خصبة والأخرى غير خصبة.. أليس أن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله.. وإن رعيت غير الخصبة رعيتها بقدر الله.؟

ولم يطق عمر أن يتعلل سارق بقضاء الله.. فقد جئ إليه بسارق.. فقال له: ما حملك علي السرقة؟ قال: قضاء الله وقدره.. فضربه ثلاثين سوطاً.. ثم قطع يده.. وقال له: قطعت يدك لسرقتك.. وضربتك لكذبك علي الله.. وسئل ابن عمر عمن يرتكبون الشر.. ويقولون.. كان ذلك في علم الله.. فغضب وقال: كان ذلك في علمه.. ولم يكن علمه يحملهم عليه.

فـــالقدر إذن لا ينافي حرية الإنسان في أفعاله.. ولا يؤدي إلي قهر وإجـــبار.. لأن قضاء الله منوط بعلمه السابق الذي لا يعلم الإنسان شيئا منه حينما يقدم علي عمل أو يحجم.. كما قال ابن عمر.. كان ذلك في علم الله.. ولم يكن علمه يحملهم عليه...

ثـــم أن الإنسان مأمور بفعل الخير وموعود بالثواب عليه.. ومنهي عـــن عمل الشر.. ومهدد بالعقاب عليه.. ولا معني للثواب والعقاب إلا بـــأن يكون عن عمل صادر عن حرية واختيار.. ومن الخطأ أن يحمل أحد علم الله السابق لما يفعل الإنسان علي إنه جبر وإلزام.

فـــإذا مـــا رجعـــنا إلي الآيات الكريمة التي يتضح منها هذا المعني استطعنا أن نقسمها قسمين..

.. **القســـم الأول** آيات تبين أن الإنسان مسئول عن عمله وهي قوله تعالي:

١- "**كل إمرئ بما كسب رهين**". سورة الطور- ٢١.

٢- "**ولا تزر وازرة وزر أخرى**" سورة الأنعام- ١٦٤.

٣- "**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**". سورة البقرة- ٢٨٦.

٤- "**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**". سورة النجم- ٤١.

.. **والقســـم الثانـــي** آيـــات ترتب الجزاء علي العمل.. وهي قوله تعالي:

١- "**ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيدكم**" سورة الشورى- ٣٠.

٢- "**ووفيـــت كـــل نفـــس ما كسبت، وهم لا يظلمون**". سورة آل عمران- ٢٥.

٣- **"وما تجزون إلا ما كنتم تعملون"**. سورة الصافات- ٣٩.

٤- **"فمـــن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"**. سورة الزلزلة ٧- ٨.

والـــذي يفهـــم من هذه الآيات.. أن الإنسان مسئول عن أعماله حر فـــي أفعالـــه.. يـــثاب علـــي الخـــير والطاعـــة.. ويعاقب علي الشر والمعصـــية.. جـــزاء وفاقاً لما عمل وقدم.. وأن الله سبحانه وتعالي لا يظلم أحداً من خلقه.

ومن السهل أن نفهم الآيات الأخرى التي توهم الجبر فهماً بعيداً من فكرة الجبر.. مثل قوله تعالي:

١- **"ولـــو شـــاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً"**.. سورة يونس- ٩٩.

٢- **"إن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ إلي ربه سبيلاً. وما تشاءون إلا أن يشاء الله"**.. سورة الإنسان ٢٨-٢٩.

٣- **"ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها"**.. سورة السجدة- ١٣.

فـــإن الغرض من هذه الآيات أن الله لو أراد أن يكون الناس جميعاً مؤمنيـــن لأجبرهم علي الإيمان.. ولكنه تركهم أحراراً بعد أن أنار لهم طـــريق الهـــدى.. وحببه إليهم.. ورغبهم فيه.. وبعد أن حذرهم طريق الضـــلال.. وبغضـــه إليهم.. وحذرهم أن يسلكوه.. ليكون حد الثواب والعقاب الحرية والاختيار.

بقيـــت آيـــات يستدل بها الجبريون ليست متصلة بالمشيئة كالآيات الســـابقة مثل قوله تعالي: **"ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم"**.. سورة البقرة- ٧.

وقوله علي لسان إبراهيم:

"لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين".. سورة الأنعام- ٧٧

وقوله تعالي علي لسان أهل الجنة:

"الحمـــد الله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".. سورة الأعراف- ٤٣.

وهـــذه الآيات لا تعني الجبر والإلزام.. بل تعني أنه سبق في علم الله تعالـــي أن بعض عباده سيصرون علي الكفر وتكذيب الأنبياء.. فقضي عليهم بما سبق في علمه.. وهو أنهم عمي عن الحق.. صم عن الخير.. وســبق فـــي علمـــه أن بعض عباده سيسارعون إلي الإيمان به.. وإلي تصديق أنبيائه.. فقضي لهم بما سبق في علمه من هداية وتوفيق.

فالخـــتم علـــي القلـــوب والآذان والتغشية علي الأبصار.. والعذاب العظيم في الآية الأولى نتيجة لكفرهم الذي علمه الله من قبل.

والآيـــات التـــي بعدهـــا تبين أن الأغواء والهداية والتوفيق من الله باعتبار أنها سابقة في علمه قبل وقوعها.

وقد جاء هذا المعني واضحاً في آيات أخرى.. كقوله تعالي:

١- **"فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين"**.. سورة الصف- ٥.

٢- **"ومـــا يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميـــثاقه، ويقطعـــون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون"**.. سورة البقرة- ٢٧.

وتـــدل الآية الأولى علي أن الفاسقين ضلوا.. فأضل الله قلوبهم.. فيهم كالســـابقين أحـــرار فـــيما اختاروا.. وأهل لما يستحقون من عقاب.. وأما الآيـــة الثانية فإنها تبين أن العصاة الفساق الذين يكفرون بالله.. ويعثون في الأرض فســـاداً.. هم الذين استحبوا طريق الشر وسلكوه.. ولم يجبرهم الله علي ذلك.. بل أنه علم بما سيفعلون.. وأن علمه لحق ويقين.

علي أن بعض الناس قد يخطئ.. فيستدل بقوله تعالي: "**والله خلقكم ومـــا تعملون**" متوهما أن الخطاب من الله تعالي إلي البشر.. والحقيقة أنـــه مـــن إبراهـــيم عليه السلام إلي قومه الذين يعبدون الأصنام التي ينحـــتونها بـــأيديهم.. فهـــم وأصـــنامهم مـــن خلق الله.. فلا يصح أن يعـــبدوها.. لأنهـــم صانعوها.. وهم والأحجار والأخشاب التي نحتوها منها مما خلق الله.

ويتبيـــن هذا من الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالي علي لسان إبراهـــيم: قال "**أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون**".. سورة الصافات ٩٥- ٩٦.

وهكذا يتضح زيف وخطأ ما زعمه مسيو: شارل سايمون لذا أعود وأقـــول له ناصـــحاً: أن يراجع نفسه وأن يدرس قبل أن يتهجم.. فلعل دراســـته تهديه إلي كثير من حقائق الإسلام.. وتجنبه ما تورط فيه من أضاليل وأباطيل وتهجم هزيل ضعيف.

١٢- لباس المرأة المسلمة يعيقها علي الحياة:

وهـــذا تجنـــي وافـــتراء.. فمسيو: شارل ينظر إلي المرأة المسلمة نظـــرته إلي المرأة في المجتمع الغربي.. الذي جعل العلاقة بين المرأة والرجل: علاقة متعة وإشباع رغبة.. لذلك أصبح جمال المرأة وإبراز مفاتـــنها غـــير مقـــيد بالجوانب الأخلاقية والضوابط السلوكية.. وهكذا

يجيء الزي والملبس مبرزاً ومظهرها لذلك الاتجاه.. ويكون إبداء الزينة وإظهار المفاتن والاختلاط المطلق متمماً ومكملاً لما قصده الغربيون.. ولما بنوا حياتهم علي أساسه.

بينما المجتمع الإسلامي ينظر للمرأة علي أساس الدور الذي تقوم به.. مشاركة للرجل.. وقدسية هذا الدور وأهميته في بناء المجتمع.. وأنه يرتكز أساساً علي الجانب العقيدي والخلقي ومنهج الحياة التي ينبغي أن تتبناه وفق ذلك.. ومن هنا يكون لباسها وزيها وهندامها انعكاساً وترجماناً للأخلاق والقيم الفاضلة التي آمنت بها.. ويتبع ذلك إبداء الزينة ومجالات الاختلاط والعمل والأسلوب الصحيح لممارستهم.

ويجب أن ندرك أن الملابس تعبير عن قيم.. فتطور الملابس في المجتمع الغربي قد انطلق من نقطة معينة هو إبراز جمال المرأة ومفاتنها بكل ما يمكن أن يوضح مظهرها.. لماذا.. ؟ لأنهم ارتضوا الإباحية الجنسية أن تكون الأساس في العلاقة بين الرجل والمرأة.. لذلك يجب علي المرأة أن تكون في حالة إغراء وإغواء للرجل دائماً.. وحينما يكون التحلل الجنسي هو عقيدة المجتمع.. فالخاسر الوحيد فيه هو المرأة.. لأن التنافس علي جذب الرجل مفتوح.. بلا سقف وبلا حدود.. وتصبح المرأة القادرة علي عرض زينتها ومفاتنها أكثر حظاً ونصيباً من المرأة غير القادرة.

بينما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد اتخذ اتجاهاً مخالفاً تمام الاختلاف.. فالتواصل الجنسي بين الرجل والمرأة محدد ومؤطر بقيم وأخلاق ومبادئ فاضلة.. والزواج هو الوسيلة الوحيدة ليأتي الرجل المرأة.. لذا كان لباس المرأة ساتر.. لا يصف ولا يشف ولا يحدد.. لأنها مدركة أن الزواج وبالتالي الجنس وسيلة وليس

غايـــة.. وسيلة لإفراغ لهيب الشهوة ولإطفاء نار الرغبة.. والغاية هي التفرغ لعبادة الله.. فبعد التخلص من شواغل الشهوة والرغبة.. تصفوا النفس لفعل ما يرضي الله من رعاية للأسرة وحسن المعاملة في الحياة اليومية.. وأداء ما كلف به الإنسان من عمل وعبادات.

لــذا عــند ينحصر الحجاب ويمسي فقط غطاء للرأس.. بينما باقي الجســد والذي تكمن فيه مصادر الزينة والمفاتن والجمال قد تم تجريده مــن الســتر والإخفــاء.. وأصــبح التصريح وليس التلميح هو اللغة المرسلة إلي الرجل..

فحيــنما تــرتدي المــرأة المسلمة البدي والبنطلون الأسترتش الذي يجعلهــا تــبدو وكأنها عارية.. فكل تفاصيل جسدها ظاهرة وواضحة للعيــن.. وحيــنما ترتدي المرأة المسلمة المايوه البكيني علي البلاج- الشــاطئ- العمومي.. فإن هذا لا يعني أن المجتمع الإسلامي قد غير ملبســه.. بــل إنه قد بدأ يغير اتجاهه الأصيل.. مستعيراً دوافع التعبير من مجتمع آخر دون أن يشعر.

وهذا ما يدفعني إلي الاستغراب والاندهاش بل إلي الغضب أحياناً.. عــندما أجد في الشارع أم تلبس الحجاب الشرعي بينما بناتها يرتدون غطــاء الــرأس المشابه لغطاء رأس الأم.. ويرتدون البدي والبنطلون والاســترتش.. تــري في الأسرة الواحدة هذا التناقض.. والذي إن دل علــي شــيء فإنما يدل علي أن ما يتعرض له المجتمع الإسلامي من موجــات التغريب وتشويه مفاهيم وقيم ومبادئ الدين الإسلامي شديدة التأثير.. وعظيمة الأثر.

واقفــاً كنــت أتفصــح عناوين الجرائد والكتب.. والبائع يأتيني بما أختاره.. وفجأة سمعت صوت استغاثة:

يا أستاذ.. يا أستاذ.. لو سمحت..

التفــت.. وجــدت فتاة.. ترتدي غطاء رأس- طرحة أو إيشارب- محكم وساتر.. بينما البدي والبنطلون الاسترتش يشرح ويصف ويحدد أعضاءها الجنسية.. استفسرت منها ماذا تريد..؟

قالت فزعة وهي تشير إلي شاب يقف خلفها.

الشاب ده.. يتحرش بي.. ويدعوني إلي ممارسة الجنس معه.

نظــرت إلـــي الشاب نظرة محذرة.. فتراجع إلي أقصى الرصيف ولكنه لم ينصرف..

قلت:

لماذا تستنكرين دعوته..؟

قالت وحروف كلماتها تحمل دهشة من تساؤلي..

إزاي لا أستنكر.. هذا لا يصح.. هذا حرام.

قلت ساخراً:

لا يصح وحرام.. كيف..؟ وما ترتدينه هو دعوة إلي هذا اللايصح وإلـــي الحــرام.. حيــنما تلبس المرأة مثل ملابسك التي تحدد وتصف العــورة.. فهي دعوى منها إلي كل رجل يرغب في ممارسة الجنس.. المــرأة الغربــية التي تقلدينها لا تجد غضاضة في ممارسة الجنس مع أي رجــل في أي زمان وأي مكان.. فهي حينما ترتدي هذه الملابس.. تريد أن تعلن الرجل بموافقتها المسبقة للممارسة الجنسية.. لذلك حينما طلــب الدين الإسلامي من المرأة أن تحتجب في ملابسها أي لا تظهر تفاصــيل جســدها.. لأنـــه يدرك طبيعة المرأة.. فطرتها التي تأبي أن

تكــون مطية.. سلعة رخيصة الثمن لكل من هب ودب.. ففطرة المرأة مبنــية علــي الاختــيار.. اختــيار الرجل الأفضل والأقوى والأحسن والأجمل.. لمن؟ لها ولمن تنجبهم منه.. أي لها كإمرأة ولأطفالها.

المــرأة الداعرة.. العاهرة فقط هي التي تقبل أن تمارس الجنس مع رجــل التقته لتوها.. وفقط لتمارس الجنس دونما اختيار ودونما رغبة في تواصل مستمر يثمر عن أطفال وحياة مستقرة.

المرأة الغربية ارتضت العهر والتحلل الجنسي.. فماذا عنك؟

قالت وكلماتها تخرج متعثرة.

- طبعا أرفض.. أنا فقط ألبس ما يساير الموضة.. و قاطعتها..

- يا ابنتي.. الموضة ابتكار غربي.. يهودي المنشأ.. المقصود منه نشــر الفحــش والــرذيلة والغواية بالإضافة إلي جمع ملايين الدولارات.

انتشرت حمرة الخجل في وجهها.. استأذنت في الانصراف.قلت لها:

- انتظري.. سأقوم بتوصيلك إلي المنزل.

وفــي الطــريق حادثتها.. يجب يا أبنتي أن يتفق ما بداخلك مع ما تــرتديه.. فالباس يعبر عن قيم الشخص الذي يلبسه.. فتخيري ما يتفق مع أنظومة قيمك وقيم مجتمعك الإسلامي..

واعــتقد أن صديقي مسيو: شارل سايمون سعيد جدا بما هو حاصل فــي بلداننا الإسلامية من كسر وتحطيم لأنظومة القيم الإسلامية.. ومن اســتعارة لأنظومــة وقيم المجتمع الغربي.. ففي أحد مناقشتنا.. تساءل والفرحة تكاد تصرخ في عينيه..

- أليس ما ترتديه بعض النساء الآن من غطاء الرأس والبدي والبنطلون تطور للحجاب.. أو بمعني أدق تمدن الحجاب.. فأصبحت حركتها الآن أيسر.. كما أن ما ترتديه يتوافق مع الموضة العالمية والفكر والمتحرر.

العورة يجب سترها ويستحي من إبدائها:

وقد قصي الله علينا قصة أبوينا أدم وحواء.. حين أغراهما الشيطان بالأكل من الشجرة المحرمة.. فبدت لهما سوآتهما.. فأسرعا بقطف ورق الجنة ليسترا عوريتهما.. فكان ذلك أول إلهام من الفطرة في أن العورة يجب سترها ويستحي من إبدائها.. بل ويستقذر أطهارها.. أنهما حالما نزلا علي الأرض.. اتخذ اللباس والزينة.. وظل اتخاذ اللباس الساتر والهندام الجميل دليل التحضر والاحتشام والعفاف.. وعلي العكس من ذلك كان العري والتخفف من اللباس وإبداء العورات دليل الحياة البدائية.. وذلك واضح في حياة القبائل الهمجية.. وهو أيضا دليل الانحدار والانحطاط في الحضارات السابقة.. ونذير الفناء والضياع.

وقد حدث هذا في حياة اليونان.. حين أصبح للمومسات مكانتهن في المجتمع.. وأصبحت بيوتهن قبلة لسائر طبقات المجتمع.. مما حملهم أن يتفننوا في صنع التماثيل العارية للمرأة.. مما أوقد فيهم الغرائز والشهوات.. ولم يخطر ببالهم أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الشهوات.. وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلي حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء أخلاقهم.. لا يرون في الزني غضاضة يعاب عليه مرتكبه.. وأصبح عامتهم ينظرون إلي عقد الزواج نظرة من لا يهتم به.. ولا يري حاجة إليه.. وكانت النتيجة أن خضعت ديانتهم لشهواتهم.. فانتشرت فيهم عبادة "افروديت" التي تواصلت

جنسيا مـــع ثلاثة آلهة.. مع كونها زوجة أحدهم.. وكان من اتخاذها رجـــلاً مـــن العامـــة.. عامـــة البشر- عشيقاً.. أن ولدت "كيوبيد" إله الحب.. واتخذت هذه الرموز.. رمزاً للكمال بل إلهاً يعبد.. ثم انتشرت فـــيهم ســـوءة قوم لوط.. ويشهد التاريخ بأن اليونان لم يكن من نصيبه المجد مرة أخرى.

وما يحدث الآن في المجتمع الغربي في هذا الجانب ليس ببعيد عن المجتمع اليوناني القديم.

مخالفات العرب قبل الإسلام:

١- **مخالفـــة فـــي كيفية أداء العبادة..** فقد جنح بهم الفهم الخاطئ لتقديس البيت والطواف حوله.. أن جعل بعضهم يطوف بالبيت عريانا واضـــعاً ثيابه التي كانت عليه قبل الوصول للبيت ابتغاء التطهر.. في صـــحيح مســـلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عـــريانه.. وتقـــول مـــن يعيرني تطوافاً؟ تجعله علي فرجها.. وتقول: "اليوم يبدو بعضه أو كله.. وما بدا منه فلا أحله".

وفـــي حديـــث آخر رواه مسلم.. "كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمـــس.. والحمس: قريش وما ولدت.. كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطـــيهم الحمـــس ثيابا .. فكانوا علي تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعـــث الله نبـــيه محمـــد صلي الله عليه وسلم.. فأنزل الله "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد". وأذن مؤذن الرسول.. "ألا يطوف بالبيت عريانا".

فجـــاء خطـــاب القرآن مبطلاً ذلك.. ناهياً عنه.. مبيناً نعمة الله عز وجـــل علـــي بني آدم باللباس والزينة.. محذراً إياهم من فتنة الشيطان لهـــم عـــن ذلك.. بأن يردهم إلي العري وإبداء العورات.. كما أراد أن يفعل بأبويهم آدم وحواء.. مؤكداً أهمية لباس التقوى.

يقول الله سبحانه وتعالي: "**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم، وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**" سورة الأعراف ٢٦- ٢٧.

إلي قال الله تعالي: "**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين**".. الأعراف- ٣١.

إن لباس التقوى الذي أكدته الآية ونعتته بالخير.. وأنه من آيات الله يشير إلي أهمية الإيمان ودوره.. وما يغرسه في النفس من تقوي الله وخشيته.. وأن به تتحقق في الفرد أخلاق العفة والحياء والطهر.. فيكون ما يلبس مصدقاً لما وقر في قلبه.. وكانت العرب تكني عن الفضل والعفاف بالثياب كما قال شاعرهم: "**ثياب بني عوف طهاري نقية**".

٢- **المخالفة الثانية هي التبرج:** قال الله تعالي مخاطباً أزواج النبي صلي الله عليه وسلم ونساء المؤمنين تبعاً لهن:

"**وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وءاتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم**".. الأحزاب- ٣٣.

التبرج.. التكشف والظهور للعيون:

اختلف الناس في الجاهلية الأولى.. قيل كانت فيما بين نوح وإدريس أو بين آدم ونوح.. أو في الزمن الذي ولد فيه إبراهيم.. حيث كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال.. وكانت لهن مشية وتكسر

وتغـــنج.. وكانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين.. وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري جسدها.

قـــال أبـــو العـــباس المـــبرد: والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهـــلاء: قـــال: وكـــان النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهـــاره حـــتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وعشيقها.. فينفرد دخلها بمـــا فـــوق الإزار إلـــي الأعلي.. وينفرد زوجها بما دون الإزار إلي الأسفل.. وربما سأل أحدهما صاحبه البدل.

وقد ورد في السنة ما يحذر من التبرج.. وما يعتبر دليلاً من دلائل النـــبوة.. إذ أخبر صلي الله عليه وسلم.. بصفة هيئة بعض النساء كأنه يراهـــن فـــي الوقـــت الحاضر.. ففي الصحيح عن أبي هريرة.. يقول الرســـول: "صـــنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب الـــبقر.. يضربون بها الناس.. ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن.. كأسنمة البخت المائلة.. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها.. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا.

٣- **تحـــريم الخلـــوة بأجنبـــي**: وإذا وضح لنا تحريم الإسلام للتبرج وأمـــره الـــناس باللـــباس الســـاتر أدركنا أنه يريد أن يسد أبواب الفساد.. ويحفظ علي عفتها وكرامتها.. وعلي المجتمع طهره ونظافته ويقي أجياله الناشـــئة شـــر التحلل والفساد.. ويمضي خطوة أخرى فيحرم خلوة المرأة بأجنبـــي عنها.. إلا إذا كان معها محرم لها.. كما يحدث عند الحاجة إلي الطبيب أو غيره.. فتذهب إليه مع زوجها أو أخيها أو أحد محارمها.

يقـــول رســـول الله صلي الله وسلم: "لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما".

والإســـلام بهــذه الأمور الثلاثة: اللباس الساتر.. وتحريم التبرج.. والخلــوة.. مـــع بذل الجهد الأساسي في غرس تقوي الله وخشيته في نفسية الرجل والمرأة.. وقيام المجتمع ووسائل تثقيفه علي تنمية ذلك.. والعــناية بـــه.. وإعطاء الفتاة المسلمة حقها الكامل في التربية والتعليم المتكامليـــن.. أقـــول بهذه الأمور يكون وضع المرأة في مكانها اللائق والمناسب والذي يقيها شر الفساد والانحراف.

من أبواب الفساد.. التبرج وإتاحة الخلوة:

طـــبعاً.. لسنا في حاجة إلي إيضاح أن التبرج وإتاحة الخلوة قد فتحا كثـــيراً مـــن أبـــواب الشـــر.. وقد أعان علي ذلك التقليد الأعمي لنظام التوظـــيف الغربـــي بالنسبة للمرأة.. وفتح باب الأعمال لها فيما يناسبها ولا يناسبها.. وقبولها الأعمال التي تجعلها في حاجة للخضوع لغيرها.. كأعمـــال الســـكرتارية الخاصـــة.. ومـــا يجري مجراها.. ثم ما تعكسه الصـــحافة الرخيصـــة من محاكاة للحياة الغربية.. في هذا الجانب.. وما تروج له من أدب الجنس.. ومسابقات الجمال وعبث مصممي الأزياء.. كـــل ذلـــك وغـــيره جعل المرأة معرضة للتأثر بهذا التيار الخادع.. ولا يمكـــن لهـــا مقاومـــته إلا بأن تعي رسالتها وتفهم دينا.. وتكشف الزيف والخـــداع الـــذي يـــنطوي عليه التيار الغربي.. وحينذاك تثق في نفسها وخلقها.. وتنقاد لتيار الإيمان والطهر والإصلاح.

حدود زينة المرأة المسلمة:

أوضـــحنا فـــيما سبق أن الإسلام يعتبر اللباس انعكاساً للقيم والأخلاق الفاضلة التي يؤمن بها المجتمع المسلم.. ورأينا كيف أن أبوينا آدم وحواء عـــبرا عـــن الفطرة الخيرة.. التي أودعها الله في آدم وذريته حينما سترا نفســـيهما.. عندما بدت لهما عوراتهما.. وأن الله تبارك وتعالي أمتن علينا

معشــر بني آدم باللباس.. نستر به أجسادنا.. وطلب إلينا أن يتعاون لباس الــتقوى من الإيمان والعفة والحياء والطهر مع اللباس الظاهر الذي يستر أجسادنا في أن نكون صورة حية للتكريم الذي كرمنا الله به.

وقد جاء تحريم الإسلام لتبرج المرأة وإظهار مفاتنها.. ووصفه أنه تــبرج الجاهلــية الأولــى.. تدعيما لمكارم الأخلاق التي جاء لاتمامها وسداً لأبواب الفساد التي يفتحها.. وتنفيذاً لهدفه الأصيل من إقامة حياة اجتماعــية نظــيفة مثالية.. تنمو فيها الأخلاق الفاضلة.. وتتحقق فيها الحياة السعيدة الطيبة.

ومــن هــنا اهتم الإسلام بزي المرأة وهندامها.. وأوجب أن يكون بعــيداً عن الإغراء والفتنة.. معبراً عن ما يدعو إليه وينشده.. علي أن الإســلام لا يعتنــي بالظاهر ويترك الباطن.. كما لا يشدد في ملابس الخــروج ويحــرم المرأة حقها في إبداء زينتها أمام زوجها في داخل بيــتها.. كــلا.. أنه يهتم أولاً بأن يستقر الإيمان وشعائره بين الجوانح والقلــوب.. وهــذا ما عناه القرآن الكريم بقوله تعالي: "**ولباس التقوى خير**" ثم يتيح لها بحبوحة الزوجية الكريمة تبدي فيها زينتها لزوجها ما تشــاء مــن غــير حــرج ولا تضييق.. فإذا خرجت عن دائرة بيتها ومحارمهــا.. طالــبها أن تخرج مستترة.. محتسمة فهذه درجات ثلاث تكون فيه المرأة من حيث اللباس.

الأولي: بينها وبين زوجها فيما تلبسه.. فإن ذلك يرجع إليها.

الثانــية: لمحارمها وأقاربها القريبين والنساء المسلمات وهو جواز إبداء الزينة الظاهرة لهم.

الثالــثة: وهو ما تقصد به كلمة الحجاب.. وهي الثياب التي للخروج.. والتي تباشر بها الحياة العامة.. وتلتقي بها الناس.. وشرطها:

أ- أن يكون الثوب ساتراً لجميع الجسد.

ب- أن يكون واسعاً غير ضيق ولا محدد للجسد.

ج- أن يكون سميكاً لا رقيقاً.

د- ألا يكون ثوب زينة ولا مطيباً ولا مبخراً.

والأصل في ذلك آيتا النور والأحزاب وأحاديث نبوية وردت تتميما وشرحاً لهما.

قال تعالي: **"وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني إخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا علي عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلي الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون"**. سورة النور- ٣١.

وقد بينت الآية في صدرها الأمرين الرئيسيين الذين يجب الحرص عليهما وهما:

الأول: غض البصر الذي هو بريد النفس والقلب.. ومن هنا نهينا عن اتباع النظرة فإن لنا الأولى.. وعلينا الثانية.

الثاني: حفظ الفرج.. والإسلام يؤمن بالوقاية ويهتم بسد الذرائع ودرء المفاسد..

ثم اتبعت الآية ذلك بأمر ثالث.. وهو النهي عن إبداء الزينة عموماً.. لما فيه من الإغراء للنظر وجذب الانتباه.. واستثنت من ذلك

مـــا يظهـــر بحكم الضرورة.. ولذلك فإن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجــتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة.. ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة.. حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن فهو المعفو عنه.

وقوله تعالي: "**وليضربن بخمرهن علي جيوبهن**".

الخمـــر: جمـــع خمـــار وهو ما يغطي به الرأس.. والجيوب: جمع جيب وهو موضع العنق والصدر فدل علي وجوب سترهما.

روي الـــبخاري عـــن عائشة أنها قالت: "رحم الله نساء المهاجرات الأول.. لمـــا نزل: "وليضربن بخمرهن علي جيوبهن".. شققن أزرهن فاختمرن بها.

ثـــم إن الله تعالي بعد أن بين في الآية السابقة- آية النور- ما يجب علـــي المرأة أن تخفي من زينتها أمام الأجانب.. ومن يجوز أن تظهر أمامهم.. أمرها في آية الأحزاب إذا خرجت من دارها أن تلتحف فوق ثيابها بالجلباب أو الملاءة.. لأنه أستر لها وأشرف لكرامتها.

قـــال تعالي: "**يا أيها النبي قل لأزواجك، وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدني أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً**" سور الأحزاب- ٥٩.

والجلـــباب: هـــو الملاءة التي تلتحف به المرأة فوق ثيابها علي أصح الأقوال.. وقال ابن كثير: هو الرداء فوق الخمار.. وهو بمنزلة الإزار".

يقول ابن حزم: أن علي المرأة أن تستر جميع بدنها ما عدا وجهها وكفـــيها.. مســـتدل بأن الأمر بستر الوجه لم تتضمنه آية "النور" التي أمـــرت بلـــي الخمـــار علي العنق والصدر.. وكذلك لم تنص عليه آية الأحـــزاب.. قـــال ابن حزم: في آية النور من أمرهن تعالي بالضرب

بالخمار علي الجيوب.. وهذا نص علي ستر العورة والعنق والصدر.. وفيه نص علي إباحة كشف الوجه.. والجلباب في لغة العرب التي خاطبنا بها رسول الله: هو ما غطي جميع الجسم.

إنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة في العبادة وفي الصلاة والحج فيصلح أن يكون الاستثناء راجع إليهما في "إلا ما ظهر منها".

وقد ثبت أن الوجه ليس بعورة يجب ستره وهو مذهب أكثر العلماء.. لكن ينبغي تقييد هذا بما إذا لم يكن علي الوجه وكذا الكفين شيء من الزينة لعموم قوله تعالي: **"ولا يبدين زينتهن"**.

وإلا وجب ستر ذلك.. لا سيما في هذا العصر الذي تفنن فيه النساء بتزيين وجههن وأيديهن بأنواع من الزينة والأصبغة.. مما لا يشك مسلم بل عاقل ذو غيرة في حريمه.

الجهاد.. تحريض للمسلم للاعتداء علي غير المسلم:

وهذا ادعاء آخر من صديقي مسيو: شارل سايمون.. وهو ادعاء يلتقي مع ادعاءات وافتراءات كثير من المستشرقين والمبشرين حينما يتصدون لقضية الجهاد.

والجهاد في الإسلام.. إنما شرع دفاعاً عن الدين.. وعن أذي المعتدين علي المؤمنين.. فالجهاد إذن: شرع للحرب وليس من أجل الكفر.. وهذا هو الذي يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية.. لماذا..؟

لأنه لو كان الكفر هو الموجب للجهاد.. فلماذا يتم قبول الكافر في المجتمع الإسلامي إذا دفع الجزية.. ولماذا تواجد الكفار قديماً وحديثاً في المجتمع الإسلامي.. إذا كان الكفر موجب للجهاد ضدهم.

سبل الجهاد المشروعة:

الجهـــاد: تعنـــي لغويـــاً.. المشـــقة.. فيقال جهدت جهاداً أي بلغت المشـــقة.. وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله.. والجهاد: يعني المبالغة واستفراغ ما يستطيعه في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من الشيء.

وشـــرعا هـــو بذل الجهد في الدفاع عن الإسلام وعقيدته وعالمه.. ويطلق الجهاد في الشرع أيضاً مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

وللجهـــاد ســـبل كثـــيرة يـــتحقق بكل واحد منها معني من معاني الجهاد.. أهمها:

١- الجهاد بالنفس:

أي أن يذهـــب المؤمـــن بنفســـه ويقـــاتل أعداء العقيدة وأعداء الدين المعتديـــن.. والجهاد بالنفس أعلي مراتب الجهاد وأعظمها قدراً.. وأعلاها شأنا.. وهل يملك الإنسان أغلي من روحه.. فيجود بها في سبيل.

٢- الجهاد بالمال:

فالمسلم القادر يجهز نفسه ويجاهد.. فيكون قد جمع بين فضيلتين.. الجهـــاد بالـــنفس والجهـــاد بالمال.. وقد يكون غير قادر جسمياً علي القتال.. ولكنه قادر مالياً.. فينفق من ماله لمساعدة المجاهدين بالنفس.

وكان كثيراً من الفقراء المسلمين الراغبين في الجهاد.. والذود عن مـــنهج الله.. وراية العقيدة.. لا يجدون ما يزودون به أنفسهم.. ولا ما يـــتجهزون به.. فيلجأون إلي النبي صلي الله عليه وسلم.. يطلبون منه الوســـيلة التي تحملهم إلي ميدان المعركة البعيد الذي لا يمكن الوصول إليه علي الأقدام.

٣- المساعدة علي الجهاد:

وذلـــك بالإســـهام في كل عمل من شأنه التمكين من أسباب النصر.. ويـــتحقق هـــذا بمضـــاعفة الجهـــد في الإنتاج الحربي.. سواء كان ذلك بالصناعة أو الزراعة أو التجارة.. وبالمساهمة في جلب المعدات الحربية أو العمل علي إنتاجها وترقية مستواها لتضارع أرقي الأسلحة وأقواها.

سبب تشريع الجهاد:

قد يظن كثير من الناس أن سبب تشريع الجهاد في الإسلام.. يرجع إلـــي اخـــتلاف العقـــيدة والدين.. والشريعة والمنهج مع أصل الديانات الأخـــرى.. وهـــذا الظن باطل وغير صـحيح.. إذ أن الإسلام هو الدين الوحـــيد الـــذي يقبل أن يهادن أهل الديانات الأخرى.. وأن يعيش معها معايشة سلمية.

والإســـلام ديـــن حجة وبرهان.. وإحقاق للحق.. دين اقتناع عقلي وتـــذوق وجدانـــي.. لـــم يكن ليلزم أحداً علي الدخول فيه إلزاماً.. ولم يـــرغم أحداً علي قبوله.. فكيف يتهم هذا الاتهام.. وهو الدين الإلهي.. الذي جاء ليحرر العقل والوجدان.

قال الله تعالي: "**لا إكراه في الدين**" سورة البقرة- ٢٥٦.

الإســـلام ديـــن عزة وقوة ومنعة.. وليس بدين استسلام واستكانة.. ورضا بالهوان وطلب معيشة ذليلة.. وهو لا يرضي للمسلمين الخنوع والجبـــن وقـــبول واقـــع مرير وحياة وضيعة.. والفضيلة كل الفضيلة تتجلـــي فـــي رد الاعـــتداء.. ومنع الخضوع للأقوياء المشركين.. ولو ترك الأشرار وشأنهم يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم.. ولا مانع يمـــنع طغـــيانهم وبغيهم.. لعم الفساد.. قال الله تعالي: "**ولولا دفع الله**

الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل علي العالمين".. سورة البقرة- ٢٥١

..الحكمة من مشروعية الجهاد في الإسلام تتمثل في:

١- الدفاع عن النفس.

٢- رد العدوان.

٣- تأمين حرية العقيدة وإقامة الشعائر الدينية.

أهمية الجهاد:

هو أفضل الأعمال علي الإطلاق عند الله تبارك وتعالي.. وثوابه يربو عن ثواب الحج والعمرة والصيام والقيام.. ويكفيه فضيلة أن سبحانه وتعالي قد تكفل للمجاهد إما بالنصر أو بالجنة والعاقبة الحسني.. ولم يرد في ثواب الأعمال وفضلها.. مثل ما ورد في الجهاد.. والجهاد يشتمل علي جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة.. فإنه يشتمل علي محبة الله تعالي والإخلاص له.. والتوكل عليه.. وتسليم النفس والمال له.. والصبر والزهد.. وذكر الله وسائر أنواع الأعمال علي ما لا يشتمل عليه عمل آخر.

يقول تعالي: **"لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله"**. سورة النساء- ٩٥.

وقال: **"يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم علي تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم"**. سورة الصف- ١٠-١١.

أجر المجاهدين:

للمجاهد منزلة رفيعة في مقياس الناس وفي مقياس العدالة الإلهية.. وإن الشهيد في مقام كريم عند رب العزة.. وليس أحداً من أهل الجنة يتمني أن يرجع إلي الدنيا إلا الشهيد.. فإنه يود أن يقاتل ويقتل مرة ثانية.. ليحظي بما حظي به في المرة الأولى من روعة الاستقبال.. وبهجة اللقاء.. قال الله تعالي: "**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**". سورة آل عمران ١٦٩.

من هو الشهيد:

يظن بعض الناس أن كل من يقاتل فيقتل في المعركة فهو شهيد.. وهذا الظن غير صحيح.. ذلك لأن أغراض الحروب متباينة.. وأن الدوافع للقتال مختلفة.. وكل من قاتل علي منافع شخصية أو مصلحة دنيوية أو من أجل مركز أو منصب.. أو رياء وسمعة.. فلا يعتبر قتاله في سبيل الله.. وإنما الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله.. ولرفع راية الإسلام.. والذود عن حمي المسلمين وأرضهم وإقامة شرع الله وحدوده.. مخلصاً لله في قتاله.. فهو في سبيل الله.. وهاهو ذا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول:

"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله".

كما أن الشهادة في سبيل الله لها مدلول عام: وهو أن كل من يموت في حالة دفاع عن دينه وعرضه وشرفه وماله يعتبر شهيداً عند الله تعالي.

ما هي شروط المجاهدين في الإسلام؟

قد يكون الجهاد فرض عين في حالة الدفاع عن النفس والأرض والحرمات.. ففي هذه الحالة يجب القتال علي المسلمين جميعاً رجالاً ونساء وشباباً وشيباً.

وقد يكون فرض كفاية في حالة بدء المسلمين بالقتال.. أي إذا قام به بعض أفراد المسلمين.. سقط الإثم عن الباقي.. بتوفر هذه الحالة.. يتعين تحديد الشروط التي يجب توافرها في المجاهدين.. أهمها:

١- الإسلام.

٢- البلوغ.

٣- الذكورة.

كيفية الإعداد للجهاد:

للأعداء أثرا كبيرا في رفع معنويات الجيش وفي إنزال السكينة في نفوسهم وقلوبهم.. بل إن للإعداد أثره الذي لا يخفي في توجيه دفة الحرب وفي تحديد النتائج.. وللإعداد محيطان.. محيط تربوي: روحي ونفسي.. ومحيط مادي- تكتيكي- وسلامي.

الإعداد الروحي:

أهم مظاهره:

١- الشجاعة والإقدام.

٢- التقوى وتتمثل في: الصلاة.. والتوجه إلي الله تعالي بالإكثار من الدعاء.

٣- توطيد العلاقة بين القائد والجنود.

٤- التوكل علي الله والثقة بالنفس.

الإعداد المادي:

له جوانب كثيرة منها:

١- تربية الأجسام.

٢- اختيار القيادة الواعية وتطبيق مبدأ الشورى.

٣- وحدة الصف.

٤- التخطيط للحرب.

٥- اقتناء الأسلحة العصرية والتدريب عليها.

ما هي أخلاق المسلمين في القتال:

لم يعرف التاريخ قديماً أو حديثاً فاتحاً أرحم ولا أرأف ولا أعد من المسلمين.. وهذه شهادة نطق بها العدو كما نطق بها الصديق.. وقالها المبغض كما قالها المحب.. وإنها لشهادة حق وعدل.

وكلما تصور الإنسان سماحة الإسلام.. وثبت إلي ذهنه صورة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم.. وهو داخل منتصر.. عزيز الجانب إلي مكة.. وأهلها خائفون.. مذعورون من انتقام المنتصر.. ولكنه ضرب مثلاً أعلي للعفو والصفح عند المقدرة.. وعلي هذه السنة سار الخلفاء.. قال أبو بكر رضي الله عنه موصياً أحد قواده:

"لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً.. ولا تقطعن شجراً مثمرا.. ولا تخربن عامراً.. ولا تعقرن شاة.. ولا بعيراً إلا لمأكل ولا تحرقن نخلاً.. ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن.

مظاهر رأفة الإسلام في الحرب:

١- النهي عن قتل من لا يقاتل من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة.

٢- النهي عن الاعتداء علي البيع والصوامع وهي معابد اليهود والنصاري.

٣- أن لا يبدأ المسلمون بمقاتلة الأعداء إلا بعد الإعلان عن الحرب بمدة تكفي لوصول خبرها إليهم.

٤- من المبادئ الهامة التي يلتزم بها المسلمون.. التوقف عن القتال إذا طلب العدو ذلك.. أو كف شره وأزاه عن المسلمين أو انسحب طالباً توقيع المعاهدة..

٥- معاملة الأسري: إن موقف الإسلام من الأسرى موقف إنساني.. يتسم بالعدل والرحمة وحسن المعاملة.. فقد أوصي الرسول صلي الله عليه وسلم بالأسير خيراً.. وأمر ألا يفرق بين صبي وأمه.. وأن يقدم له الطعام والشراب والكساء.. وأن يداوي إن أصابه جرح.

إنشاء المعاهدات مع الأعداء:

يشرع الإسلام للمسلمين أن ينشئوا معاهدات سلمية مع من شاؤا.. رجوعاً إلي السلم الأصلي الذي يحكم العلاقات بين الدول.. ولهم أن يقرروا وقف القتال حسب ما يحقق مصلحة الإسلام وإعزاز كلمة المسلمين.. ولهم الحق كذلك أن ينشئوا معاهدات بقصد التحالف الحربي والتعاون علي عدو مشترك.. إذا كان في هذا الأمر ما يحقق مصلحة الأمة الإسلامية.. إذ أن الحرب في نظر الإسلام ما هي إلا علاج مؤقت لبعض الحالات الناشزة.. ولبعض الأوضاع غير المستقرة.. فإذا استتب الأمن واستقر الوضع وأمن شر العدو.. وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة كريمة.. فليس ثمة داع إلي القتال أو حاجة للحرب.

المعاهدات.. والشروط التي يجب أن تحققها:

١- أن لا تكون المعاهدة مخالفة للقرآن الكريم أو سنة رسوله.

٢- أن تكــون المعــاهدة قائمة علي التراضي من الطرفين.. قياساً علـــي عقــود الشــراء والبيع والمعاوضات المالية.. أما إذا كان هناك إلـــزام مـــن أحد الطرفين أو كانت المعاهدة نتيجة لضغوط دولية.. فلا قيمة حقيقية لهذه المعاهدة.

٣- أن تكــون المعــاهدة بيــنة الأهداف.. واضحة العبارة لا تحتمل الــتأويل أو التفســير.. أمــا إذا كانــت غامضة العبارة.. غير واضحة الهدف.. تمكن من التلاعب بألفاظها.. فلا قيمة لها شرعاً.. لأنها من باب الغش الذي يفسد كل عقد.. فضلاً عن معاهدة يتوقف عليها أمن البلاد.

هل يجب الوفاء بالمعاهدات؟

إذا اســتكملت المعــاهدة شروطها من وضوح.. وعدم مخالفة لشرع الله وســنة رســوله.. وعدم إخلال بأمن الدولة المسلمة.. كان الوفاء بها واجباً دينــياً.. يسأل عنه المسلمون أمام الله.. وكان عدم الوفاء والنكوث بها غدراً وخيانة.. أما إذا أخل العدو بها.. فعندئذ لا عهد لهم علي المسلمين.. بل كان علي المسلمين أن يهبوا متكاتفين متعاونين علي دفع قوى الشر والعدوان.

إذن..

فــتلك هي أهم مبادئ الجهاد في الشريعة الإسلامية.. وإنها لمبادئ رائعــة.. تظهــر سماحة الدين الإسلامي وإنسانيته وعدله.. كما تظهر حزمه وقوته وأنه لا يقبل الهزيمة ولا الضيم وإلا الاستكانة ولا الهوان ولا الجبن ولا الضعف.

الزواج والتعدد والطلاق وسائل قهر واستلاب للمرأة المسلمة:

يعــود مــرة أخرى مسيو: شارل سايمون إلى مزاعمه الخالية من الحق.. وهو يريد هنا أن يمس جانباً هاماً فى حياة الإنسان المسلم....

الزواج فى الإسلام:

أقـــام الله نظـــام الكـــون على الزوجية فقال: " **ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**" سورة الذاريات - ٤٩

وشـــارك الإنسان الحيوان فى هذه الخاصية فقال الله تعالي: " **فاطر الســموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الانعام أزواجاً يذرؤكم فيه**" سورة الشورى - ١١

وبينـــت هذه الآية أن الغاية من الزواج التكاثر وبقاء الأنواع.. وقد تمـــيز الإنســـان عن الحيوان بعقله وفكره وروحه.. وأن الزواج يدعم الأمن النفسي والاستقرار الروحي.. ويجلب له السعادة والسرور.

قـــال الله تعالـــي: " **ومـــن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتســـكنوا إلـــيها وجعـــل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**". سورة الروم.

فالزواج رابطة يتم بها سكن النوعين وقيام المودة والرحمة والحب بيـــنهما... وســـبيلاً لتحقيق المتعة الجنسية واللذة الجسدية فى جو من الطهـــر والكـــرامة.. فيكون منه بعون الله البذرة الصالحة.. إن الشهوة الجنســـية فـــى الإنســـان أقوى منها فى الحيوان وإنها لو تركت بغير ضـــابط.. كانـــت حرباً على الجماعة.. فهي تنزع إلى الأثرة والفردية والفوضـــي.. ولـــيس لها ثبات والاستقرار... وهي لا تحرك المرء إلا للتمتع باللذة العارضة.. ولذا كان لابد من ضبط هذا النزوع والجموح.

وقـــد هيأ الله الفطرة البشرية لهذا الانضباط.. فخلق فى المرأة ميزة الجمـــال وصـــفة الإمتاع والتسلية.. وملكة الإيثار والتضحية فى سبيل الحـــب.. لكى تنتصر على الأنانية التى فى الرجل.. فتمتلك قلبه... ثم

الطفل فيجتذب العاطفة والحنان والرعاية.. فيقضي على الأنانية والفردية..

كيف تختار الزوجة:

يهتم الإسلام باختيار الزوجة.. فيرشد الرسول الكريم إلى الأوصاف التى تطلبها الفطرة.. ويتمناها المسلم الراشد.. فيفضل الرسول الكريم اختيار ذات الدين.. لما له من أثر فى التوجيه وغرس لخشية الله فى القلب ومعرفة للحدود والواجبات.

الأوصاف التى يجب توافرها:

١- **الجميلة:** لأنها أسكن لنفسه.. وأغض لبصره وأكمل لمودته..

٢- **البكر :** لأنه يكون الأول من حيث التجربة والمشاعر.

٣- **الودود الولود:** لقدرتها على الإنجاب بالإضافة لحنانها وعطفها.

٤- **ذات الدين:** لورعها وتقواها.

ما يجب أن يكون الزوج عليه:

وكما طلب الإسلام أوصافاً فى الزوجة تعين على دوام العشرة وتوفير السعادة كما طلب فى الزوج القدرة والكفاءة.. ومعني القدرة: أن يكون الزوج قادراً على تكاليف الزواج مهيئاً له.. مقدراً تبعاته.. ومعني الكفاءة: الدين والخلق الحسن والتقارب النفسي والفكرى.. فإذا صح عزم الزوجين.. كان كلاهما مكملاً للآخر وعوناً له..

عقـد الـزواج:

يهـتم الإســلام بعقد الزواج اهتماماً كبيراً.. وينعته القرآن الكريم بالميــثاق الغليظ.. وهو وصف لم يوصف به إلا عقد النبوة بين الأنبياء عليهم السلام وربهم جل جلاله:

" وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسي ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً". سورة الأحزاب- ٧

ويقــول تعالـــي: " وكيف تأخذونه وقد أفضي بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً". سورة النساء - ٢١

وهــو عقــد أبــدى لا يجوز فيه التأقيت.. ولهذا انتهي الإسلام إلى تحــريم زواج المــتعة.. ذلــك لأن الآثار المترتبة عليه آثار خطيرة.. فبالزواج تباح متعة الرجل بالمرأة.. ويترتب عليه حقوق الزوجة وهى الــرعاية الكريمة والنفقة والسكن.. وحقوق للزوج على الزوجة وهى: الطاعــة فــى المعــروف ورعايــة البيت والأولاد.. ويثبت به النسب والتحاق الولد بأبيه.. ويتم على أساسه التوارث.

ولصحة الزواج لابد من توافر أمرين:

١- الــتأكد مــن خلوهما من الموانع الشرعية.. بألا يكون بهما أو بأحدهمـــا ما يمنع التزويج من نسب أو سبب كرضاع أو مصاهرة أو اختلاف دين.. ويقاس على هذه.. الموانع الصحية.

٢- أن يؤخــذ رأي المخطوبة.. وتصرح برضاها وقبولها.. ويقوم بذلك وليها وهو الأب أو من يقوم مقامه.

لماذا شرع التعدد..؟

شـــرع الإسلام التعدد علاجاً لتفاوت الناس فى قدراتهم وأرزاقهم.. وســبيلا للإحصـــان والعفـــاف بفـــتح باب الحلال وإغلاق باب الزني والمخادنة.. وقد تم تقييده بأمرين:

١- العـــدل.

٢- عدم تجاوز الأربعة.

التعدد فى المجتمعات الأخرى:

قـــد جاء الإسلام والتعدد أمر قائم فى المجتمعات والأديان السابقة.. فقـــد عـــدد: إبراهـــيم ويعقـــوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين.. وأباحت التعدد الديانتان: اليهودية والمسيحية.. وبقي تعدد الـــزوجات مـــباحاً فـــى العـــالم المســـيحي إلى القرن السادس عشر الميلادى.. كما جاء فى تواريخ الزواج بين الأوروبيين.

إن الـــتعدد يلبـــي رغبة فطرية عند الرجل.. تلجئه إليه حاجته إلى الاســـتمتاع بالجـــنس الآخر.. الذى تطرأ عليه عادات الدورة الشهرية ومـــا يعقب الولادة من الحاجة إلى النقاهة وغير ذلك.. وما دام الهدف هـــو الإحصـــان والعفاف فى المجتمع المسلم فلا سبيل إليه إلا بالتعدد بشروطه.

ثم إن الإسلام يشرع لجميع المجتمعات والبيئات.. ولابد أن يراعي حاجـــة العامل الذى يرغب في وجود أيدى عاملة معه تعينه فى رعيه أو كدحـــه وجهده.. وكذلك حاجة الغني المتيسر الذى يجد عنده الطاقة والقـــدرة.. فـــإن لم تشبع حاجة العامل والغني فى الحلال.. مضياً إلى الطرق المنحرفة.. وهذا ما لا يرضاه الإسلام ولا يقره.. ولا يجب أن

نهمـــل رعايـــة جانب الفطرة فى كل من الرجل والمرأة بالنسبة للطاقة الجنســـية.. فالمـــرأة تتوقف عند العقد السادس.. بينما الرجل لا يتوقف مـــثلها.. ثم ماذا نفعل إذا حدثت عاديات المرض على المرأة من قعود أو عاهـــة أو عقـــم.. أو مع ما تأتي به الحروب من كثرة عدد النساء وقلة الرجال.

درس وعبرة فى المجتمع الغربي:

إن عدم إباحة التعدد فى المجتمع الغربي إصابة فى نفسيته.. وخلقه بالتحلل والانحلال الجنسي.. حينما أباح الزني تحت شعار التحرر من قـــيود الكنيســـة... وإصابه فى نسله بارتفاع نسبة اللقطاء والمولودين غـــير الشـــرعيين.. إن الذيـــن يصيحون بتقييد التعدد إنما يريدون أن يخـــرجوا مجتمعاتـــنا ويجـــروها إلـــى الفساد الغربي.. ويهدموا نظام الزواج الإسلامي بإباحة الزني.

الطـــلاق:

الطلاق فى الشريعتين اليهودية والمسيحية:

كـــان الطلاق شائعاً قبل الإسلام..فاليهودية تقرر الطلاق.. وتطلب إلـــى الرجل أن يعطي امرأته المطلقة وثيقة بالتسريح.. ولها أن تتزوج بغـــيره بعـــد ذلك.. ولكنها لا تعود إلى الأول إذا طلقت من الثاني أو توفي عنها ذلك الزوج.

أمـــا المســـيحية فتروى الأناجيل على لسان السيد المسيح أنه حرم الطـــلاق.. كمـــا حرم زواج المطلقة وقال: " إن من طلق امرأته لغير الزنـــي جعلهـــا تزني" وقال: " من يتزوج مطلقة فإنه يزني". ويبدو أن هـــذا كـــان علاجاً مؤقتاً للحرية التى مارسها اليهود فى أمر الطلاق..

وتختلف مواقف المذاهب المسيحية من الطلاق.. فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريماً باتاً.. ولا يبيح إلغاء الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه.. وحتى الخيانة الزوجية لا تعد مبرراً للطلاق.. وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية.. وحجة المذهب فى ذلك هو: ما جاء فى انجيل متي: " لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله"...

والمذهب الأرثوذكسي لا يبيح الطلاق إلا فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة.. ويحرم على المطلق والمطلقة الزواج بعد ذلك.

والمذهب البروتستانتي.. يبيح الطلاق فى حالات محدودة أهمها: الخيانة الزوجية.. ولكنه يحرم على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك.

تعنت يصادم قانون الفطرة:

ونتيجة لهذا التعنت الذى ارتكبته المذاهب المسيحية إزاء الطلاق.. انطلق المجتمع يبحث عن حلول لها.. فوجدها فى محاولة التوفيق بين الدين المسيحي والتشريع الوضعي تارة.. والخروج عليه تارة أخرى بإباحة الطلاق عن طريق قانون خاص.. وهكذا أحدث التزمت آثاره كما أحدثت النظرة الشاذة إلى الجنس آثارها فى ممارسة الإباحية التى نشهدها اليوم.. لقد رفضت الكنيسة زواج ملك إنجلترا كما هو معروف من مسز سمبسون المطلقة.. واضطر للتنازل عن ملكه ليتزوج المطلقة.. واضطر آخر وهو كابتن تأرنسند ومارجريت أخت ملكة بريطانيا أن يتفاديا خطيئة الزنا.. باستمرارهما فى العلاقة غير الشرعية.. فهما زانيان لو تزوجا.. لأن تار نسند طلق زوجته.

الطلاق فى الجاهلية:

والطـــلاق فـــى الجاهلية كان سهلاً كعقد الزواج أو أكثر سهولة.. وكـــان بيد الرجل يوقعه متي شاء من غير سبب موجب لذلك. وكانت المرأة إذا كانت ذات مال كثيراً أو جمال رائع أو شرف نبيل.. تشترط أحـــيانا أن يكون لها حق الطلاق متى شاءت هى على أن ذلك لم يكن يحميها من تطليق زوجها متى شاء هو.

الضرر الذى يصيب المرأة فى الجاهلية من ممارسة الرجل حرية الطلاق:

١- امساكها إضراراً بها.

٢- تعليقها بجعلها على ذمته مع حرمانها من حقوقها الزوجية.

٣- الحلف بعدم الاقتراب منها وهو ما يسمي بالإيلاء.

٤- الظهـــار.. بـــالحلف علـــيها بـــتحريمها على نفسه كأنها إحدى محارمه.

الطلاق فى الشريعة الإسلامية:

جـــاء الإســـلام فســـلك بالناس مسلكاً وسطاً.. جنبهم الشطط والتزمت اللذيـــن وقعـــت فـــيهما المســـيحية والإسراف والإجحاف اللذين صنعهما العـــرب فـــى الجاهلية.. فأقام أولاً: العلاقة الزوجية على حرية الاختيار والرضـــا من كل من الزوجين.. وأحاطها بكل رعاية ممكنة.. وعالج ما يطـــرأ علـــى هذه العلاقة من شوائب أو منغصات.. بكل طريق وسبيل.. فـــإذا جاء الطلاق بعد ذلك فإنما هى الضرورة التى لا هروب منها.. ومع ذلـــك لـــم يـــتركه دون ضوابط.. بل اتاح فيه فرصة العلاج ووضعه فى صـــورة نفســـية وتـــربوية رائعـــة.. استعمل فيه وازع الإيمان ومحاسن الأخلاق.. مع التحديد القانوني والتشريعي له.. صيانة لهذه العلاقة.

متى يجوز الطلاق وكيف يقع:

جعـــل الإسلام حق الطلاق للرجل.. وهذا ما تقتضيه الفطرة.. وما توجبه طبائع الأشياء.. فالرجل هو الذى يسعي للزواج ويعقده ويتحمل تـــبعاته.. وهـــو ربـــان سفينة الأسرة ومسير أمورها.. فإذا تعرضت العلاقـــة بينه وبين زوجته للخلاف والنزاع وغدت شقاقاً يصعب حله.. كـــان العلاج الأمثل الفرقة والفصال.. وكان عليه أن يتخذ القرار.. إذ أن للقـــراره ثمـــن ســـيدفعه.. فسيهدم عشه- بيته- الذى جهد فى بنائه وســـيتحمل نفقات أولاده.. وسيرد باقي صداق الزوجة مع تحمل نفقات العـــدة.. كل ذلك يجعله جديرا.. بأن يفكر ويقدر الأمر حق قدره.. ثم إن الـــرجل بطبيعة تكوينه أقل انفعالاً وإنسياقاً مع غضبه وعاطفته من المـــرأة.. ومـــع أن الإسلام قرر له هذا الحق وجعله في يده.. إلا أنه وضـــع له من القيود ذو الضوابط ما يمنعه من إساءة استعماله.. وهذه القـــيود والضوابط منها ما يعود إلى الزوج.. ومنها ما يعود إلى الحالة التى تكون عليها الزوجة.

فبالنســـبة إلـــى الزوج لابد أن يكون فى حالة يملك إرادته ويسيطر علي تفكيره.. بأن يكون: عاقلاً مختاراً.. وهذا ما يقتضيه معني العزم فـــى **قولـــه تعالـــي: " وإن عـــزموا الطـــلاق فإن الله سميع عليم".** سورة البقرة- ٢٢٧

أمـــا الحالة التى تكون عليها الزوجة.. فينبغي أن تكون طاهرة.. لم يقـــربها زوجها حتى تدخل فى العدة ولا تطول عليها.. **لقوله تعالي:" يـــا أيهـــا النبـــي إذا طلقـــتم النســـاء فطلقوهـــن لعدتهـــن".** سورة الطلاق- ١-٦

الطلاق الرجعي- فرص متاحة للعلاج:

وإذا وقـــع الطـــلاق.. فقـــد منح الزوج فرصتين للمراجعة.. وهيأ الإســـلام الظروف لجمع الشمل ورأب الصدع.. فأمر أن تبقي المطلقة فـــى بيـــت الزوج طيلة فترة العدة.. استبراء للرحم من جهة.. وطريقاً لأن تهـــدأ النفوس.. ويعود إليها صفاؤها.. فتعود المياه إلى مجاريها.. فيراجع الرجل زوجته اثناء العدة.. وتعود سيرتها الأولى.

المخالعة.. حق أصيل للمرأة:

إذا أحســـت المـــرأة عدم قدرتها على الحياة مع زوجها.. وأصبحت له كارهـــة.. فلهـــا أن تفـــتدى نفسها.. بأن ترد ما قدمه لها زوجها وتنفصل عـــنه.. وهـــذا مـــا يســـمي فـــى الفقه: الخلع.. وكما أعطاها الإسلام حق المخالعـــة.. أعطاها حق التضرر من أى ظلم يلحق بها بسبب تجاوز حدود الطلاق.. وجعل فى يد القضاء سلطة رد المتجاوزين حدود الله وشرعه.

منهج الإسلام فى علاج النشوز:

إذا تطـــورت المشـــاعر إلـــى الكراهية وتجاوزت الطور النفسي إلى إســـاءة العشرة والتمرد والشقاق والعصيان.. فإما أن يكون ذلك من الزوج أو الـــزوجة.. وهـــذا مـــا عبر عنه القرآن الكريم بالنشوز.. فإن كان من جانـــب الزوج.. طولبت المرأة بعلاج زوجها.. والبحث عن الأسباب التى جعلـــته يسلك هذا المسلك.. ولها من وسائل الترغيب والعطف والحنان ما يمكـــنها مـــن القضـــاء على أسباب جموحه وتمرده.. وفى ذلك **يقول الله تعالـــي" وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصـــلحا بيـــنهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا".** سورة النساء – ١٢٨

فإذا نجحت فيها.. وإلا وجب التدخل بالإصلاح بينهما.. فلا تستقيم الحـياة على شقاق وخلاف.. وأما إذا كان النشوز من المرأة فقد شرع الله عزو وجل لعلاجها ثلاث مراحل على التوالي:

قال تعالي:" **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليا كبيراً".** سورة النساء- ٣٤

فقرر سبحانه وتعالي أولا أوصاف الزوجات الصالحات بأنهن قانتات.. يعني المطيعات لأزوجهن.. حافظات للغيب.. أى تحفظ زوجها فى غيبته فى نفسها وماله.. ثم أعقب ذلك بعلاج الناشزات.. أى المسيئات للعشرة الطيبة.. فأرشد إلى العظة والهجر فى المضجع.. والضرب.

١- العظة:

وقد كان تعبير القرآن دقيقاً ورقيقاً.. حين لفت نظر الأزواج إلى أنه ينبغي إذا شعروا ببداية النشوز أن يسارعوا إلى علاج الداء قبل استفحاله.. فيبدؤوا بالكلمة الجانية وهذا ما تقتضيه العظة.. إذ العظة هى القول المؤثر فى الوجدان والمشاعر.

٢- الهجر فى المضجع: وهذا أمر قاس على النساء.. فإن أهم شئ تدلل به على جمالها وأنوثتها هو إقبال زوجها .. فإذا وجدت منه إعراضاً.. رجعت لنفسها.. وربما ترجع عن عصيانها.

٣- الضرب غير المبرح: سمح الإسلام بقليل من الإيذاء البدني.. لعله يرد هذه المتمردة إلى رشدها ورعاية بيتها وزوجها..

وقــد حــدد: بــأن يكون غير مبرح وغير مهين.. لا يكسر عظماً ولا ينشــز لحماً.. وأن يتقي فيه الوجه والمواضع المخوفة.. لأن المقصود التأديــب لا الإتــلاف ويجــب أن يكــون من النوع الذى هدد به عليه الصلاة والسلام خادمته حين قال:" لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهــذا الســواك". ويفضل الضرب الخفيف على المؤخرة - والسواك قطعة خشبية صغيرة مثل القلم الرصاص... ينظف به الأسنان-

الفصـــل الثانـــى

جاءتني أمس دعوة لحضور لقاء ثقافي فى أحد قاعات مكتبة الإسكندرية.. واليوم تلقيت اتصال تليفوني من صديقي مسيو: شارل سايمون.. يخبرنى بأنه مدعو إلى مكتبة الإسكندرية لحضور نفس اللقاء الذى دعيت إليه.. واتفقنا على اللقاء.

حرصت على الخروج قبل الميعاد بساعة.. فقد قررت الذهاب بدون سيارة.. فالسير فى هذا الوقت من السنة شديد الأمتاع.. ففصل الخريف شارف على الانتهاء..

دخلت القاعة.. بحثت بعيني.. وجدته جالساً فى الصف الأول.. ما أن لمحني حتى أشار إلىّ.. توجهت إليه.. وكعادته سحرني بابتسامته الأخاذة.. وأخبرني: أنه متشوق لهذا اللقاء..

جلسنا ننصت باهتمام إلى المتحدثين.. وفى فترة الاستراحة التى تسبق الجزء الأخير من اللقاء الثقافي.. ذهبنا لتناول القهوة.. واخترنا مقعدين وثيرين.. نظر إلىّ نظرة متسائلة عما أحمله فى يدى.. فقلت مبتسماً:

- هذا بحث...

قاطعني:

- ما موضوعه...؟

قلت:

- الإسلام أول من وضع أسس الدولة المدنية بمعناها المعاصر.

تردد صدى صوت جرس يعلن بدأ الجزء الأخير من اللقاء الثقافي.. وقفت ناظراً المسيو: شارل.. ولكنه لم يقف.

فقلت له:

- ألن تحضر

قال وابتسامته الساحرة الأخاذة تقتحمني:

- لا .. سأقرأ البحث.. وسوف انتظرك هنا.

تركـــته .. وقبل أن أخرج.. نظرت إليه.. وجدته قد أخرج نظارته وراح يقرأ... ...

وإلـــيك عزيزى القارئ مادة البحث الذى أثر مسيو: شارل سايمون قرأته على حضور الجزء الأخير من اللقاء الثقافي... ....

الإسلام دين عبقرى.. فهو شريعة ونظام سياسي واجتماعي.. يكفل للبشـــر الخـــير والسعادة جميعاً أفراداً وجماعات.. ومن عبقريته أنه لم يـــتغافل عـــن الغرائـــز البشرية.. فيتغاضى عن آثارها.. أو يفترض محوهـــا.. بـــل عرفها وعرف آثارها.. فسن لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها.. والتسامي بها.. ودرء أضرارها.

عقيدة التوحيد وليدة الفطرة التى فطر الله الناس عليها..

قـــال تعالي: " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. سورة الروم- ٣٠

والله ســـبحانه وتعالـــي كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرســـل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشـــرية.. وكـــل الأديان التى سبقت الإسلام لم تكن عامة.. بل كانت مخصصـــة بالمكـــان وبـــالقوم الذيـــن نزلت عليهم.. كقوم هود ولوط ويونـــس الـــذى أرســـل إلى مائة ألف أو يزيدون.. وشاركت كلها فى الدعـــوة إلـــى الوحدانـــية كأســـاس لكل عبادة.. ثم إلى قواعد أخلاقية

وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب.. إلى أن كان القــرن السابع الميلادى.. حيث بلغت البشرية مبلغاً من التقدم والرقي وحســن الإدراك.. أهلها لتلقي خاتم الرسالات السماوية.. فكانت رسالة محمــد بــن عــبد الله جامعة لخيرى الدين والدنيا.. موجهة إلى جميع العوالــم.. قــال تعالــي: " **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر النــاس لا يعلمون**".

سورة سبأ– ٢٨

والمســيحية علــى مــا ورد فــى كتابها المنزل وهو الانجيل.. لم تتضــمن تشــريع أمور الدنيا.. ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بيــن الأفــراد والــدول.. ولا تعــداد مــا فى الكون من آيات طبيعية وعلمــية.. والمسيحية وإن كانت قد وحدت بين دول أوربا فى العصور الوســطي.. وقربت بينها وحسنت علاقاتها.. مما دعا إلى التعاطف إلا أنهــا انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول.. والمفروض أن يكون روحياً فحسب.. الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين.

أمــا فى الإسلام.. فالأمر على عكس ذلك.. فهو نظام متكامل.. لا يمكــن فصل قواعده بعضها عن البعض.. فهو دين ودنيا ولا يصح فى حق الإيمان الأخذ ببعض الكتاب– القرآن– دون البعض.

إذن فقــد أتــي الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه الدولة المدنية فى حالتي السلم والحرب.. ولكن القرآن الكريم على نهجه فيما يخــتص بــأمور الدنيا يكتفي بذكر الأصول العامة.. ثم يدع التفاصيل لاجــتهاد العقــل البشــرى.. احــتراماً لهذه المنحة الإلهية.. ومسايرة لظروف الزمان والمكان.. وما تقتضيه من خلاف فى الفروع.

كيفية تكوين الحكومة فى الإسلام:

١ - اختيار الحاكم:

الإنســان مدني بطبعه.. أو هو حيوان اجتماعي كما عبر أرسطو.. فلـيس مـن المستطاع أن ن إنسان بمفرده.. منقطعاً تمام الانقطاع عن بني جنسه.. بل لابد من أن يعيش بين جماعة كبيرة أو صغيرة.

وهذه الحياة الاجتماعية من شأنها أن توجد بين الأفراد تنازعاً على المـنافع.. واخـتلافاً فـى الآراء التى تكفل الخير للجماعة.. أو تدفع الضــر عـنها.. وإذن فلابـد للجماعة من إشراف يدير شئونها وينظم أمورها.. وتتمثل فيه سلطتها العامة.

وقد كان العرب يحيون قبل الإسلام حياة قبلية فى وسط الجزيرة.. فكـان الرئيس شيخ القبيلة.. فلما أنعم الله عليهم بالإسلام والوحدة كان الرئـيس هـو النبي صلى الله عليه وسلم.. ثم الخلفاء من بعده.. وكان العـرب فـى اليمـن والحيرة والشام.. وكان غيرهم من الأمم القديمة كالفـرس والـروم والفراعنة يجرون على نظام ملكي متوارث.. فليس للشـعوب صـوت فى اختيار الحكام.. وليس من حقها التبرم بظلمهم وانحرافهم عن الصالح العام.

أمـا الإسـلام فقد أوجب على المسلمين أن يختاروا الحاكم اختياراً تراعـي فيه مصلحتهم ومصلحة الإسلام.. وإنما يتحقق ذلك بأن تتوفر فـى الحـاكم صـفات ومميزات تؤهله لسياسة الشعب.. وتدبير شئونه على خير الوجوه.

ولا شـك أن مؤهـلات الحـاكم تختلف باختلاف العصور.. فلكل عصـر حاجاتـه ومقتضياته..فإذا ما اختار الشعب حاكمه.. كان هذا

الاختيار هو البيعة.. وهي فى رأى ابن حزم من قبيل التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهي عقد بين الحاكم والمحكوم.. عقد موثوق بالإيمان يلقي على كل منهما واجبات ويكفل له حقوقاً.

٢- واجبات الحاكم:

الحاكم رئيس اختاره الشعب ليخدم مصالحه وليدبر أموره.. فهو نائب الشعب فى رعاية الصالح العام.. وليس مسلطاً على الشعب ليحقق أغراضه الخاصة.. والأصل فى الحكم أنه تكليف لا تشريف.. وإن شئت فقل إنه تشريف بالتكليف.. وليس الحاكم فى نظر الإسلام معصوماً من الخطأ.. ولا مسلطاً من حقه الاستئثار بالحكم.. لأن الدين لا يخصه بمزية فى الفهم والعلم بالأحكام والدراية بالقانون.. بل هو وطلاب الفهم سواء.

لهذا كان واجباً على الحاكم أن يحقق لشعبه ما يأتي:

أ- العدالة والتسوية بين الرعية:

الإسلام دين العدل والمساواة... **قال تعالي" إن أكرمكم عند الله اتقاكم"** . سورة الحجرات - ١٣

وقال صلى الله عليه وسلم: " الناس سواسية كأسنان المشط الواحد.. لا فضل لأحمر على أسود، ولا لعربي على عجمي".

وإذا ما أنس الشعب من حاكمه أنه يعدل بين الناس جميعاً.. فلا يؤثر غنياً على فقير.. ولا قريباً على غريب.. ولا صديقه على خصمه.. اطمأنت نفسه.. وأيقن كل فرد أنه لابد أن ينال حقه- فلا تجد فى الأمة ساخطاً.. لأنه حرم حقه.. أو لأنه ظلم لفقره أو ضعفه أو بعده عن ذوى السلطان.

وقـد أمـر الله تعالـي بالعدل فى قوله: " **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**". سورة النساء - ٥٨

وحذر من أن يخضع الحاكم لهواه فيظلم من يبغضه..

قال تعالي: " **ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى**". سورة المائدة- ٨

وحـث النبـي مراراً على العدل فى الحكم.. كقوله صلى الله عليه وسـلم: " أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه".

وقـال : كلكم راع ومسئول عن رعيته... الأمير راع على رعيته، وهـو مسـئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، والمرأة راعية علي بيت زوجها، وهى مسئولة عنه".

وكـان النبي والخلفاء الراشدون مثلاً عاليه فى رعاية العدالة.. فقد كـانوا يقسطون- يعدلون- فى معاملة الناس حتى منع أنفسهم.. حدث أن تقاضي رجل دينه من الرسول فأغلظ عليه.. فهم عمر بن الخطاب أن يضـرب الـرجل لغلظـته على الرسول.. فقال له صلى الله عليه وسلم: " مه يا عمر، وكنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء، وكان أجوح أن تأمره بالصبر".

وخـرج فـى مرضـه الأخير بين الفضل بن عباس وعلى بن أبي طالـب.. حـتى أجلـس على المنبر.. ثم قال:" يا أيها الناس من كنت جلـدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدمنه، ومن كنت شتمت له عرضاً

فهـــذا عرضـــى فليستقدمنه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشي الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني. ألا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له، أو حللنى فلقيت ربي وأنا طيب النفس".

وكـــان صلى الله عليه وسلم يكره أن يمتاز من الناس.. من ذلك أنه كـــان يطـــوف بالبيـــت.. فقال: اسقوني.. فقالوا أن هذا الماء يخوضه الناس.. ولكننا نأتيك بماء من البيت.. فقال: لا حاجة لي فيه.. اسقوني مما شرب منه الناس.

وكـــان يقول لأهل بيته: " يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عـــنكم مـــن الله شـــيئاً، يابن عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عـــباس ابـــن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رســـول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً".

ثـــم جـــاء مـــن بعده أبو بكر فسار على نهجه.. وأعلن للناس فى صـــراحة وجلاء فى أول خطبة خطبها بعد بيعته أنه يدين بالمساواة.. وأنـــه لا يمـــيز نفســـه من أحد.. **قال " يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوموني".**

أمـــا عمر بن الخطاب فقد ذاع فى العالم كله صيته فى العدل حتى صار مضرب المثل عند كثير من المسلمين وغير المسلمين.. فكان لا يميز أحداً من الشعب على أحد.. مهما اتسع بينهما الفارق الاجتماعي.

فقـــد شـــكا إليه مصرى من الشعب أن فرسه سبقت فرس محمد بن عمـــرو ابـــن العاص وإلى مصـــر.. فاغتاظ فضربه بالسوط.. وقال له: خذهـــا وأنـــا ابـــن الاكرميـــن.. ولما علم عمرو بذلك خشي أن يشكو المصـــرى إلـــى عمر فحبسه زمناً.. ثم أفلت من حبسه.. وشخص إلى

الخليفة ليشكو.. فاستدعى عمر عمراً وابنه من مصر.. وأمر المصرى أن يضرب ابن عمرو.. فضربه حتى أدماه.. وأنب عمراً لأن ابنه لم يفعل ما فعل إلا اعتماداً على سلطة أبيه.. وقال له كلمته الذائعة العظيمة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"؟

وأعطي عمر الناس الحق فى أن يأخذوا حقوقهم منه.. وكان إذا أمر بشئ أو نهي عنه.. جمع أهله وقال لهم: إنى نهيت عن كذا وكذا.. وأن الناس ينظرون إليكم.. وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة.

وهذه النزعة العادلة التى يلتزمها الحاكم العام تصير ينبوعاً.. تسرى منه العدالة إلى ولاته وقضائه وموظفيه.. فيحيا الناس فى الديمقراطية الصحيحة قولاً وفعلاً.. لا فى ديمقراطية خادعة.. للشعب منها اسمها لا رسمها.

هذه الديمقراطية الإسلامية هى التى جعلت الشعب يحاسب الخلفاء والحكام.. وهى التى مكنت للقضاة أن يسووا بين الخليفة وفرد من رعيته.. فقد اختصم الخليفة المأمون مع رجل من العامة إلى قاضي بغداد يحي بن اكثم.. فدخل المأمون إلى مجلس يحي.. وخلفه خادم يحمل بساط ليجلس عليها الخليفة المأمون.. فلم يرض القاضي أن يخص الخليفة بجلسة لا يجلس مثلها خصمه.. وقال يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه.. فدعا المأمون للرجل بساط أخرى.. أرأيت كيف أطاع المأمون القاضي.. وقبل أن يساويه خصمه فى المجلس؟

ولقد أنصف المأمون نفسه امرأة من الشعب على ابنه.. ذلك بأن امرأة شكت إليه ابنة العباس.. فأمره أن يجلس معها مجلس الخصوم

فجعلت تتكلم بصوت يعلو صوت العباس.. فقال لها أحمد بن خالد: يا أمة الله... إنك بين يدى أمير المؤمنين.. وأنك تكلمين الأمير.. اخفضي صوتك.. فقال المأمون: دعها يا أحمد.. فإن الحق أنطقها وأخرسه.. ثم قضي لها برد ضيعتها.. وعاقب العباس على ظلمه لها.. وأمر لها بنفقة.. وكتب إلى عامله ببلدها أن يعفي ضيعتها من الخراج.. ويحسن معاملتها.

هذه العدالة هى التى يعيش الحاكم فى ظلالها آمناً على نفسه وعلى سمعته.. وعلى تعلق الشعب به.. وحبه له.

وحسبك أن تعلم أن بعض المسلمين جاءوا بالهرمزان إلى عمر.. يسألون عنه فيقال: مر من هنا... فيصغر فى قلب الهرمزان.. إذ رآه فرداً من الرعية.. حتى انتهي إليه وهو نائم فى ناحية المسجد.. فقال الهرمزان" هذا والله الملك الهنئ.. عدلت فأمنت" لأنه وجده غير محتاج إلى حراس.. وغير معتز بالمظاهر كما يفعل الفرس.

ب- رعاية مصالح الشعب:

يجب على الحاكم أن يتوخى مصالح الشعب قدر ما يستطيع.. فينفذ القانون.. ويكفل للناس الأمن على حياتهم وأموالهم وأعراضهم.. ويقوى الشعب مادياً ونفسياً وعقلياً.. فيعد الجيش أحسن إعداد للدفاع عن الوطن.. وينشر العلم بين الناس.. وينشئ المستشفيات لعلاج المرضى.. ويشق الترع لإرواء الأرض.. ويدبر الوسائل لترويج التجارة وإنهاض الصناعة والزراعة.. ويحافظ على الأمن العام و....و....

وعليه أن يفسح للناس مجال العمل.

فإذا عجز فرد عن العمل لشيوخة أو عاهة فعلى الدولة أن تعوله.. وقد فرض عمر بن الخطاب للمولود مائة درهم.. فإذا ترعرع زاده إلى مائتين.. فإذا بلغ زاده.. وكان يفرض للقيط مائة ولكافله مرتباً شهرياً يعينه به.. وجعل نفقة إرضاعه من بيت المال.. فإذا كبر سواه بغيره من الأطفال.. وكذلك جعل للعاجزين عن الكسب من اليهود والنصارى مقداراً من بيت المال.

ج- الدقة فى اختيار الوزراء والموظفين:

على الحاكم أن يحسن اختيار وزرائه وأعوانه وموظفيه.. لأنهم نواب عنه فى الحكم.. فيجب أن يكونوا من ذوى الدراية والأمانة والإخلاص فى العمل والغيرة على مصالح الشعب.. ولا سبيل إلى ذلك إلا بتوخى العدالة والكفاية والمصلحة العامة فى اختيارهم وفى ترقيتهم.. ومكافأة المجدين الممتازين منهم.

أما الاعتماد على الوساطة والقرابة والرشوة وغيرها من الوسائل الذميمة فى تعيين الموظفين وترقيتهم.. فإنه أس البلاء.. ومكمن الداء.. لأنه يزعزع الثقة بالحكومة.. ويذهب بجلال العدالة.. فيسرى الظلم من طبقة إلى ما دونها.. وينشأ عن ذلك أن توكل الأمور إلى من لا يحسنونها.. وأن تحرم الدولة جهود بينها الإكفاء.

كذلك من الخطأ أن يتخذ وزراء أو بطانته من المتملقين الخونة.. الذين يتخذون الزلفي إليه وسيلة للجاه والسيطرة وجمع المال.. لأنهم يزينون له الباطل.. ويخفون عليه الحقائق.. يمتدحون أقواله وأفعاله.. وأن كانت خاطئة فاسدة.. خوفاً على مكانتهم وعلى منافعهم.. فتكون العاقبة سوء الحكم.. وسخط الشعب.. وبغضه للحاكم.

لذلـــك قال النبي صـلى الله عليه وسلم: " من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً.. إن نسي ذكره وأن ذكر أعانه".

ولقــد كـــان رســـول الله صـــلى الله علـــيه وسلم يتخير عماله من المتدينيـــن الكفـــاة لإحسان العمل.. وكذلك فعل أبو بكر وعمر.. وكان عمـــر إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله.. وإصلاح الرعية.. وكتب علـــيه كـــتاباً.. وأشهد عليه جماعة من المسلمين ألا يظلم.. وألا يغلق بابه دون حاجات الناس.

وعلـــيه أن يراقبهم فى أعمالهم.. ويستمع إلى الشكوى منهم حتى لا يســـتبدوا بالـــناس ولا يغتروا بالسلطة.. فرسول الله كان يتتبع عماله.. ويســـمع الأخـــبار عنهم.. وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحريـــن.. لأن وفـــد عبد القيس شكوه .. وولى بدله أبان بن سعيد.. وقال له: استوصي بعبد القيس خيراً.. وأكرم أهله.

وكان عمر شديداً على ولاته.. يخشي أن يستبدوا بالناس فيذلوهم.. ويعودوهـــم الجبـــن.. لذلك كان يبين للولاة أنه ولاهم ليصلحوا أحوال الـــناس.. لا ليضـــربوهم ويظلموهـــم.. قـــال لبعض عماله: " إني لم اســـتعملكم علـــى أمـــة محمـــد.. على إشعارهم ولا على ابشارهم – الجلـــود– وإنمـــا استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة.. وتقضوا بينهم بـــالحق.. وتقســـموا بينهم بالعدل.. لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم.. ولا تضيعوا حقوقهم فتفتنوهم.

وكان يصارح الشعب بمثل هذا.. ليكون على بينة من حقوقه.. قال فـــى إحـــدى خطبه : " يا أيها الناس.. إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضـــربوا ابشـــاركم– جلودكم– ولا ليأخذوا أعشاركم– عشر ما تغله

الأرض- ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم.. فمن فعل به شئ سوى ذلك.. فليرفعه إلى.. فو الذى نفس عمر بيده لأقصنه منه".

وقد جعل الحج موسماً لمراجعة عماله ومحاسبتهم.. وتعرف آراء الشعب فيهم.. إذ كان يفد إليه الولاة من أقصي الدولة ليعرضوا شئون ولاياتهم.. ويفد إليه الشاكون لعرض شكاياتهم.. ويقدم إليه المراقبون الذى كان يثبهم فى الولايات لمراقبة الحكام والولاة.. ليبلغوه أحوالهم.. فكان الولاة يتوخون العدل وحسن السياسة.. لأنهم يعلمون أن الخليفة سيعلم بانحرافهم إذا انحرفوا.

ج- كرم الأخلاق:

الحاكم أمام الناس قدوة.. يحاكونه فى أخلاقه وأعماله وزيه وعاداته.. وسائر أحواله ما استطاعوا إلى محاكاته سبيلاً.. فيجب عليه أن يكون القدوة الصالحة لهم.. والمثل الطيب فى التدين وفى الخضوع لأوامر الدين.. والاعتزاز بالشريعة.. والتحلى بمكارم الأخلاق.. ليقتدى به الشعب.. فتسمو أخلاقه.. وتشيع فيه الفضيلة والخير.. وليعجب به ويخلص له ويحبه.

والحكمة التى تقول" الناس على دين ملوكهم " تلفت إلى أثر الحاكم الصالح فى القدوة.. لأن الشعب يحاكى حكامه تارة عن شعور.. وتارة عن غير شعور.

وقد كان الخلفاء الراشدون خير قدوة للشعب.. وكانوا حراصاً على تنبيه الناس إلى تقويمهم إذا اعوجوا.. لذلك أوصى أبو بكر عمر بن الخطاب حينما عهد إليه بالخلافة بقوله:" أعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله" وقال فى خطبته التى خطبها بعد البيعة: " إن

أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله فيكم.. فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم".

وقال عمر فى خطبته بعد توليته: " من رأى فى اعوجاجاً فليقومه".

فقال له اعرابي:" والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا"

فسر عمر.. وقال الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر.

وكان عثمان يقول:" إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوا رجلى فى القيد".

وقال على فى أول خطبة بعد الخلافة: " إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم.. ألا أنه ليس لى أمر دونكم.

د- الحرص على أموال الدولة:

الحاكم راع لشعبه.. حفيظ على ماله.. مشرف على شئون الإدارة والسياسة والقضاء.. فيجب أن يكون عفيف اليد.. طاهر النفس.. أميناً.. حريصاً أشد الحرص على مال الأمة وعلى حقوقها.

فعليه أن يحافظ على مال الدولة.. لأنه أمانة فى يده لا يستبيح منه مالا حق له فيه.. ولا يبيح لأحد أن يتوسل بنفوذه إلى الاستغلال والاستئثار بالمنافع والتسلط على الناس.. فقد كان عمر بن الخطاب شديد الخوف من سؤال الله له عن مال المسلمين يوم القيامة.. وكان يقول: لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلي عنها يوم القيامة.

ورآه على بن أبي طالب على ظهر بعير يعدو.. فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير هرب من أبل الصدقة أطلبه.. ولما

سئل عما يحل له من مال المسلمين نظير انقطاعه للخلافة.. قال: يحل لـــى حلتان.. حلة فى الشتاء وحلة فى الصيف.. وما أحج عليه واعتمر مـــن الـــركوبة.. وقوتـــي وقوت أهلى كقوت رجل من المسلمين ليس بأغناهم ولا بأفقرهم .. ثم أنا بعد رجل من المسلمين.

وفى عام المجاعة ضرب للشعب أعظم مثل فى تعاطف الحاكم مع شـــعبه ومشـــاركته فـــى ألمه.. إذ اشتد الأذى بالمسلمين فى الحجاز.. ونـــدرت أقواتهم.. ورأى عمر ما أصابهم من الجهد.. فأكر على نفسه ألا يـــذوف ســـمناً ولا لحمـــاً حتى يذوق الناس... وصبر على خشونة العيش حتى أسود جلده من أكل الزيت.

ثـــم خفت المجاعة.. ووفدت المطاعم على أسواق المدينة.. فاشترى غـــلام عمـــر إنـــاء سمن صغير.. ولبن بأربعين درهماً.. ومضي إلى عمـــر مبتهجاً.. ليبشره أن الله قد أحله من يمينه.. لكن عمر لما عرف الثمـــن قال له: ليس كل مسلم بقادر على أن يشترى سمناً ولبناً بأربعين درهمـــا.. إنى أكره أن آكل إسرافاً.. أو أذوق طعاماً ليس فى بيت كل مســـلم.. أذهب فتصدق بما اشتريت.. كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم.؟

يـــا للعظمـــة.. لقـــد كان عمر يستطيع أن ينفق ما لا ينفق الناس.. ويعـــيش فـــى سعة والناس فى ضنك.. وكان يستطيع أن ينتحل الأعذار لنفســـه.. بأنه ينفق من ماله.. فلا لوم عليه.. أو بأنه مجهد فى تصريف شـــئون الدولة.. فلا غني له عن طعام يقويه ويعينه.. ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك.. بل عاش يحس ما يحسه شعبه.. ويقاسي ما يقاسيه الناس.

وفـــى مرة أرسل إليه عامله على أذربيجان سفطين من التمر.. فلما ذاقـــه وجـــده حلـــواً.. فقـــال لحامله: أكل المسلمين يشبع من هذا فى

رحلــه؟.. قــال: لا.. إذن فارددهما.. ثم كتب إلى عامله: أما بعد فأنه ليس من كد أبيك.. ولا من كد أمك.. أشبع المسلمين مما تشبع منه فى رحلك.

ورأى ابــل ابــنه قد سمنت.. فأخذ منه نصف أرباحها وضمه إلى بيت المال.. لأنه خاف أن يكون قد أرعاها فى خير المراعي.. وتخلى عــنها الــناس له.. لأنــه ابن الخليفة.. وهذا على بن أبى طالب يؤنب خازنــة على بيت المال.. لأنه أعار بنت على عقد لؤلؤ من بيت المال لتتزيــن به فى يوم العيد وترده بعد ثلاثة أيام.. ويقول له: كيف أعرتها العقــد بغير أذني ورضاى؟ إياك أن تعود لمثل هذا فتنال عقوبتي.. ثم يصل الخبر إلى بنته فتقول له: أنا بنتك وبصعة منك.. فمن أحق بلبسه منــي؟ فــيرد علــيها بقولــه : لا تذهبي بنفسك عن الحق.. أكل بنات المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هذا العيد بمثل هذا العقد..؟

وعلــى الحاكم أن يحاسب وزراءه وموظفيه حتى لا يتخذوا الحكم ســبيلاً إلــى جمــع المال من طرق غير مشروعة.. ومن طرق فيها شبهة.

وهكذا كان يفعل الرسول وخلفاؤه..

فقــد استعمل الرسول رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه.. فقال الــرجل هــذا لكم وهذا أهدى إلى.. فقال النبي: ما بال الرجل نستعمله علــى العمــل فــيقول: هذا لكم وهذا أهدى إلى؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمــه فــنظر أيهدى إليه أم لا...؟ يريد الرسول أن الهدية لم تقدم لهذا الــرجل إلا لأنــه عامل من عمال الدولة.. فلو لم يكن عاملاً ما قدمت إلــيه.. فهــي إذن حــق الدولة.. وقال أيضاً: من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو باطل.

وكــان عمر بن الخطاب يولى الرجل.. فإذا ماغتني بالولاية غني غــير معقــول صادر ثروته كلها.. ولم يقبل من بعض عماله دعواهم أنهــم ربحــوا مــن التجارة.. وقال لهم: " إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً".

فمــثلا علــم عمــر أن عامله على مصر عمرو بن العاص كثرت أموالـــه ومــتاعه وعبــيده وخــيله.. ولم تكن له هذه الثروة حين ولاه مصـــر.. فســأله فى ذلك.. فادعي أن ثروته من التجارة بمصر.. فلم يقتنع عمر بذلك وقاسمه ماله.. وكذلك فعل مع أبي هريرة عامله على البحرين.. ومع عمال آخرين.

ولعمــر فــى ذلك أخبار شتي.. منها أنه سمع بعودة أبي سفيان من عــند ولــده معاوية وإلى الشام. فوقع فى نفسه أن معاوية قد زود أباه بمــال.. وجاء أبو سفيان ليسلم على عمر.. فقال له: أعطنا هدية يا أبا ســفيان.. قال: ما أصبنا شيئاً فنجيزك.. فلجأ عمر إلى حيلة بارعة فى الكشــف عــن الحقــيقة.. ذلك أنه مديده إلى خاتم فى يد أبي سفيان.. فــأخذه وبعــثه إلــى زوجــته هند.. وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجهــا: ابعثــي الخرجيــن اللذيــن جئت بهما.. فبعثتهما.. فما لبث الرسول أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم.. فطرحها عمر فى بيت المال.

هــ- الاستشارة وطلب النصح:

الحــاكم بشر يصيب ويخطئ.. وليس من المستطاع أن يكون رأيه صــواباً فــى كل شئ.. لذلك فهو محتاج إلى المشورة وإلى النصيحة الــتى يتقدم بها الأمناء الأكفاء المخلصون.. فعليه أن يتقبل نصائحهم.. ويرحب لآرائهم.. ويختبرها معهم.. فإذا استبان له صوابها عمل بها.

وعليه أن يستمع إلى ما يوجه إليه من نقد عن أى طريق كالصحافة اليوم مثلاً.. وإذا كانت الشورى أساس الحكم فى الإسلام كان الحاكم مضطراً إلى أن يستشير وإلى أن يشار عليه.. وإلى أن ينصح إذا نصح.. وغني عن البيان أن النظام البرلماني فى الصحيح يكفل للشعب توجيه الحاكم ونقده ومراقبته.. وكذلك الصحافة والرأى العام.

وقد أقام الإسلام الحكم على أنه من الشعب وللشعب.. فجعل الشورى أساسه.. وإذا كان الإسلام لم يحدد طريقة معينة للشورى.. فإنه ترك الطريقة للناس حسب تجاربهم فى حياتهم.. واختبارهم لشئونها..

قال تعالي" وأمرهم شورى بينهم" سورة الشورى- ٣٨

وقال سبحانه وتعالي للرسول: " فأعف عنهم.. واستغفرلهم.. وشاورهم فى الأمر". سورة آل عمران- ١٥٩

وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد.. وكان بعض المسلمين قد أشاروا على النبي بالخروج لقتال قريش وحلفائها فى الوقت الذى كان النبي لا يريد أن يخرج فيه بجيشه ليقاتل بعيداً عن المدينة.. بل كان يؤثر أن يقف موقف المدافع.. ولكنه استجاب لمشورتهم.. وخرج للقتال.. فانهزم المسلمون.. ولكن الله سبحانه وتعالي أمر النبي أن يعفو عمن أشاروا عليه بالخروج فلا يقرعهم.. ولا يلغي التبعة عليهم.. وأمره أن يستغفر لهم.. دلالة على أنه قد صفح ورضي... ثم أمره أن ستشيرهم فى المستقبل فلا تبغض إليه الهزيمة التى نشأت عن مشورتهم أن يستشير وأن يشار عليه.

ونلاحـــظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمره الله بأن يستشير مـــع ما اتصف به رجاحة العقل.. وسمو الأخلاق.. وصواب التدبير.. ومع أنه يوحي إليه.

وقـــد صدع الرسول بأمر ربه.. واقتدى به خلفاؤه من بعده.. لأنهم فهمـــوا أن الأمـــر بالشـــورى ليس موجهاً إلى الرسول وحده.. ولأنهم عـــرفوا أن الله تعالـــي رفع من قدر الشورى.. إذ أمر بها نبيهم.. وإذ قرنها بركنين من أركان الإسلام: هما الصلاة والزكاة فى قوله تعالي: " والذيـــن اســـتجابوا لربهم.. واقاموا الصلاة.. وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون".

وإذن فـــإن الحكـــام أشد حاجة من النبي وخلفائه إلى أن يستشيروا وإلـــى أن يشـــار علـــيهم.. لأن هـــذه الاستشـــارة مظهر من مظاهر الديمقراطـــية الصـــحيحة.. وللحكـــام فى رسول الله أسوة حسنة.. فقد طالما استشار أصحابه واستمع إليهم.

ففـــى غـــزوة بدر قال الحباب بن المنذر للرسول: يا رسول الله أهذا مـــنزل أنزله الله... ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره.. أم هو الرأى والحرب والمكـــيدة؟ قـــال الرســـول: بـــل هو الرأى والحرب والمكيدة.. قال: يا رســـول الله.. فإن هذا ليس لك بمنزل.. فانهض بالناس حتى تأتي أدني مـــاء مـــن القـــوم فتنزله.. ونردم الآبار.. ونبني لنا حوضاً نملؤه بالماء فنشرب ولا يشربون.. ففعل رسول الله ما أشار به الحباب.

وفـــى غزوة الخندق أشار عليه سلمان الفارسي أن يبني خندقاً حول المدينة ليدرأ عنها المغيرين.. فاستمع إلى مشورته.

وفـــى عهـــد أبي بكر كثر القتلي من حفظة القرآن الكريم.. فأشار علـــيه عمر بن الخطاب أن يكتب القرآن الكريم مخافة أن يضيع بموت

الحفـــاظ.. فاستجاب له.. وقد حدث عمر بن سوادة قال: صليت الصبح مـــع عمـــر.. ثم انصرف وقمت معه.. فقال: أحاجة؟.. قلت: حاجة.. قـــال: فالحق بى.. فلحقت به.. فلما دخل منزله أذن لي.. فإذا هو على سـرير لــيس فوقه شئ.. فقلت: نصيحة.. فقال: مرحبا بالناصح غدواً وعشياً.. وأخذ عمر يناقشه في بعض أمور.. وفى إحدى خطبه قال: " أعينونـــي علـــى نفســـي بالأمـــر المعـــروف.. والنهي عن المنكر.. واحضارى النصيحة فيما ولاني الله من أمركم".

وكان عمر يستشير فى كل شئون السياسة حتى فى اختيار العمال.. قـــال يوماً لأصحابه: أشيروا على ودلوني على رجل استعمله فى أمر قد دهمني.. فقولوا ما عندكم.. فإني أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أمـــيرهم كـــان كأنه أميرهم.. وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم.. قـــالوا: نرشح لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي... فنشير على أمير المؤمنيـــن بـــه.. فاســـتدعاه وولاه .. فوفق فى عمله.. وحقق ما أراده عمر منه وأكثر.. فشكر عمر من أشاروا عليه بتوليته.

وتتلخص واجبات الحاكم فى عشر قواعد:

١- المشاورة فى كل ما ليس فيه نص قرآني.

٢- حفـــظ الدين على أموره المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.. ورد الزائغين والمبتدعين.

٣- تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود.. لتصان محارم الله من الانتهاك.. وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

٤- حماية الأمن.

٥- تحصين الثغور وتقوية الجيوش.

٦- جباية الضرائب والزكاة علي ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير جور أو تعسف.

٧- صرف الأرزاق للناس.. وتدبير الأموال لهم.. وحمايتهم من الأمراض والمجاعات.

٨- استخدام الأكفاء وتقبل النصح من الأمناء.

٩- نشر الدعوى الإسلامية وتبليغها.

١٠- أن يباشر بنفسه أمور الناس.. وأن ينهض بسياسة الأمة وألا تشغله لذة أو عبادة عن مصالح الناس.

٣- واجبات الشعب:

الحاكم والمحكوم يدان تتعاونان علي الخير.. ودفع الضر.. فإذا صلح الحاكم وفسد الشعب.. أو صلح الشعب وفسد الحاكم كانت العواقب وخيمة ذميمة.. لذلك لابد لخير الأمة من صلاح الحاكم وصلاح الشعب.. فإذا كان للشعب علي الحاكم حقوق فإن للحاكم علي الشعب حقوقا أيضاً.

أ- الطاعة:

أولى الواجبات التي علي الشعب أن يطبع القوانين والنظم.. ويساعد علي تنفيذها.. تحقيقاً لقوله تعالي: "**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**". سورة النساء- ٥٩.

ولقوله صلي الله عليه وسلم: "من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ونخيلة صدره.. فليعطه ما استطاع.

ولــيس الغــرض أن يطيع الشعب علي الرهبة وحدها.. لأن الذي يطــيع علي الرهبة وحدها.. يتحين الفرص الخروج علي القانون.. إذا ما اطمأن إلي نجاته من يد القصاص.. وإنما نريد من الشعب، أن يطيع علــي الرغبة أيضاً.. يطيع القانون لأنه مقتنع بما في طاعته من خير وحق.. نريد الشعب أن يحتكم إلي ضميره.. فلا يتحين أحد أية فرصة للإفلات من حدود القانون والتهرب من العقاب وخداع الحكام والتحايل بالخبث والمكر والدهاء.

حينــئذ لا يغــش التاجر لأنه مطمئن إلي اختفاء أمره.. ولا يسرق الســارق لأنـــه بمـــنجاة من القبض عليه.. ولا يقتل القاتل لأن أحداً لا يــراه.. ولا يختلس الموظف من مال الدولة لأن حيلته لن تنكشف.. بل يطــبع كــل واحــد من هؤلاء القانون بوازع نفسه.. ورغبة في طاعة القانون.. ونفرة من عصيانه.

وعلي الشعب أن يعص الحاكم إذا حاد عن الحق والعدل.. فيخالف أمــره لــيقومه.. لأن الرســول عليه الصلاة والسلام يقول: "لا طاعة لمخلــوق فــي معصــية الخالق" ويقول: "السمع والطاعة علي المرء المســلم فــيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية.. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

فــإذا خــالف الحاكم أصول الحق والعدل والخير.. واتبع شهواته.. وجب علي الشعب خلعه وتولية غيره.. لأن الشعب مصدر السلطات.. وهــو الذي نصب الحاكم.. وهو الذي يثبته أو يقومه أو يخلصه.. قال أبــو بكــر: "أطيعونــي ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم".

وقـال علي بن أبي طالب: "قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي وإمـام المسـلمين البخـيل ولا الجـاهل ولا الجافي ولا المرتشي ولا المعطل للسنة.. فيهلك الأمة".

قـال ابـن حـزم: إنه إذا وقع شيء من الجور.. وإن كان قليلاً.. وجـب علـي المسلمين أن يكلموا الحاكم فيه.. يمنعوه منه.. فإن اقتنع وراجـع الحـق وأقام الحدود فلا يخلع ولا يحل خلعه.. وإن امتنع عن إقامـة الحـدود وأصر علي فعله.. وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق.. لقوله تعالي:

"وتعاونوا علي البر والتقوى ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان" ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشريعة.

ب- نصح الحاكم:

وعلـي الشـعب أن يسدي النصائح للحاكم.. فيبصره بعواقب ظلمه إن كـان ظالماً.. لأن الحق أولى بالطاعة من أمر الحاكم.. وسبيل ذلك في العصر الحاضر.. الصحافة ومجلس الشعب والنقابات..

قـال علـيه الصلاة والسلام: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" وقال: "إن الله يرضي لكم ثلاثاً: أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شـيئاً.. وأن يعتصموا بحمل الله جميعاً ولا تفرقوا.. وأن تناصحوا من ولاة الله أمـركم." وهو بهذا نسق التوحيد والاتحاد وتوجيه الحاكم في نسق واحد.

ومـن النصائح أن يسهم الخبراء بآرائهم في حل المشكلات.. وأن يـبدوا اقتراحاتهم لترقية الوطن في كل مرافقه وشئونه.. سواء دعتهم الحكومة إلي هذا أم لم تدعهم.

ج- إيثار الصالح العام:

لـيس أضـر علـي الأمة من انصراف أفرادها إلي تحقيق مآربهم الخاصـة ورعايـة شئونهم الفردية.. والانصراف عن الصالح العام.. لأن هـذه الـنزعة تفقـد الأمـة تـرابطها وتماسها.. وتميت وجدانها المشترك.. وتقضي علي ضروب الإصلاح وعوامل الرقي والعلاء.

فعلـي أفـراد الشـعب أن يشـعروا بأن خير الجماعة خير لهم.. وضررها ضرر عليهم.. بل عليهم أن يؤثروا خيرا الجماعة علي خير أنفسـهم.. ويدفعـوا عـنها الضرر بهمة أعظم من دفع الضرر الذي يسـهم.. رأيهم بهذا يحققون للوطن خيراً ينالهم وينال أبناءهم.. ويقونه شـراً أن لم يصبهم فإنه يصيب الوطن كله.. ويذوق عواقبه أبناؤهم أو أحفادهم.

وإذا ما أخذ كل فرد نفسه بهذا الواجب.. استطاع الشعب أن يساهم فـي ترقـية شـئونه.. واستطاعت كل جماعة أن تنهض بالوطن في نطاقهـا.. قـرية مديـنة أو نقابة.. وبهذا لا يكل الشعب إلي الحكومة وحدها كل عمل.. لأنها لا تقدر أن تنهض بكل شيء في كل وقت.

وإن إيـثار الصـالح العـام لراجع إلي الضمائر الحية.. وإلي حب الوطـن.. وإلي الخوف من الله تعالي الذي لا تخفي عليه خافية.. أكثر مـن اعـتماده علـي القانون ورقابة الحكومة.. بهذا الإيثار لا يتعاون الشـعب علـي تحقـيق الخير العام فقط.. بل أن كل فرد مخلص في عملـه.. ويتقـنه.. سواء أكان صانعاً أم تاجراً أم زارعاً أم موظفاً في الحكومـة أو في هيئة من الهيئات.. فلا صانعاً يغش ولا تاجراً يخفي السـلع لـيرفع أثمانها.. ولا موظفاً يرتشي أو يهمل أو يعطل مصالح الناس بكسله وتعقيده الأمور.

وبهــذا الإيثار للصالح العام لا يتبرم أحد بتحديد السعر ولا بتحديد الكســب.. ولا بالتقشــف الذي يقتضيه خير الوطن وصلاحه.. وتقويته وترقيته.. وبهذا الإيثار تقل الخصومات والشكاوي والقضايا.. ويتحقق قول عمر بن الخطاب في إحدى خطبه:

"أعطــوا الحــق مــن أنفســكم.. ولا يحمل بعضكم بعضاً علي أن تتحاكموا إلي.. فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة.. وأن أجيب إلي صلاحكم.. عزيز علي غيكم."

الإسلام قوة دافعة إلي السلام:

دأب الناس علي أن يتحاربوا في كل عصر وفي كل مكان.. وكلما صــعدوا فــي ســلم الحضارة زاد افتتانهم في اختراع وسائل الحرب والتخريب والتدمير.. فهدموا بمخترعات العلم والحضارة ما أبدع العلم والحضارة.. وخربوا في يومهم ما شيدته الأجيال من قبلهم.

ومن الغريب أنهم لا يبتغون من الحرب إلا بسط السلطان.. وتوسيع الملــك.. وإشــباع الفهــم إلــي الشــهرة والمجد.. واستبعاد الضعفاء.. والاســتئثار بخــيرات بلادهــم.. وطالما اعتلت الدعوات إلي السلام.. فصمت دونها الآذان.. كأنما كتب علي البشر ألا ينعموا بسلم دائم.

وليس صراع العالم الذي يهدد البشر بالانقراض.. وينذر الحضارة بالدمــار.. ناشــئاً عن دوافع سامية.. أو غايات نبيلة.. بل إنه صراع مبعــثه الجشــع والغايــة مــنه التغلــب والسيطرة واحتكار الخيرات والاستئثار بالقوة والنفوذ.

وهــنا تتجلــي عظمــة الإسلام.. لأنه دين سلام.. يؤثر السلم علي الحــرب ما وسعه الإيثار.. فإن لم يكن من الحرب بد لحماية العقيدة..

أو صيانة الحياة.. أو الدفاع عن الوطن.. فالحرب شر وضرورة موقوتة.. وذلك أن الإسلام يدعو إلي المثل الأعلي في جميع الصلات والمعاملات.. فإذا لم ينجح المثل الأعلي.. لجأ الإسلام إلي العلاج الذي لا ينجح سواه.. مراعاة للوقاع ومجاراة للأحداث.

ولقد دعا الإسلام إلي السلام.. فأبي خصومة إلا الحرب.. وصبر المسلمون علي أذاهم.. فلم يزدهم الصبر إلا طغياناً وعدواناً.. فلم يكن للمسلمين خيار آخر عن الحرب.. ليحموا أنفسهم وعقيدتهم استجابة لدينهم الذي يأمرهم بالقوة والاستعداد للدفاع.. كما يدعوهم إلي المسالمة والتسامح.. ولا غرابة في أن يكون الإسلام دين سلام.. والقرآن الكريم يصف المؤمنين المتقين بالمسالمة والتسامح.

قال تعالي: "**وعباد الرحمن الذين يمشون علي الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**" سورة الفرقان- ٦٣.

ويسمي الجنة دار السلام: "**لهم دار السلام عند ربهم**" سورة الأنعام- ١٢٧.

ويجعل التحية فيها سلاماً.. "**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً**" سورة الأحزاب- ٤٤.

ويبشر الله الأتقياء بأن تحييهم الملائكة في الجنة بالسلام: "**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون**". سورة النحل- ٣٢.

وكيف لا يكون دين سلام وكل مسلم يقول في تشهده كل يوم مرات: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين.." ثم يختتم كل صلاة بالسلام؟

وإذا كانــت الحــرب في طبائع البشر فإن الإسلام ضيق نطاقها.. وراعـــي فيها حرمات الإنسانية أو في رعاية.. فالمسلمون لم يحاربوا إلا لــيدفعوا العــدوان علــيهم.. ولم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مســالمة أعدائهــم.. والمســلمون لم يحاربوا إلا المحاربين.. وتركوا المسالمين وغير المحاربين آمنين في ديارهم.

والمســلمون لم يتجاوزوا في حربهم حدود الدفاع إلي الانتقام الحاقد والتنكـيل المبــيد.. وقــد جــنحوا إلي السلام حينما استجاب الأعداء للســلام.. وكانوا بعد انتصارهم رحماء بالمغلوبين.. لم يمثلوا بالقتلي.. ولــم يخــربوا العمران ولم يجبروا أحداً علي اعتناق الإسلام.. نعم إن المسلمين لم يستغلوا قوتهم ليضطروا أحداً إلي أن يسلم.. لأنهم يعلمون أن له مــن القوة الذاتية ما يفتح له القلوب.. ويشرح القلوب.. فقد ذاع الإســلام في مكة.. والنبي وأتباعه قلة لا يملكون من وسائل القوة ما يحمــون به أنفسهم من الأذي.. ثم ذاع في المدينة قبل أن يهاجر النبي إلــيها.. وتعهد الذين أسلموا بحماية النبي ونصرته إذا هاجر إليهم.. ثم اســتمر الإسلام ينتشر بقوته الذاتية في كل عصر.. حتى في العصور التي ضعف فيها المسلمون واضطرب سلطانهم.

وحســبنا هنا شهادة السيرتوماس أرنولد في قوله: تصدعت أركان الإمــبراطورية العظمـــي.. وتضعضعت قوة المسلمين السياسية.. لكن غزواته الروحية بقيت مستمرة دون انقطاع.

وأنه ليتضح لمن يدرس قوانين الحرب في الإسلام.. أنه دين رحمة وســماحة وسلام.. سواء في ذلك دوافع الحرب.. وبواعثها.. والغرض منها وغايتها.. ونظام المعركة وسيرها.. ونتائج الحرب وآثارها.

فلــيس للحرب هدف إلا الدفاع لحماية الوطن وصيانة العقيدة واتقاء الخطــر الواقــع أو الخطــر المتوقع.. ولهذا نهي الإسلام عن العدوان حتى علي الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل.. قال تعالي: **وقاتلوا فــي سبيل الله الذين يقاتلونكم.. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"** سورة البقرة- ١٩٠.

فالحــرب هنا لإعلاء دين الله الذي ارتضاه.. وليست للسيطرة ولا للاحــتكار.. ولا للغنائم والأسلاب.. ومع هذا فإن ختام الآية يحذر من العدوان.. لأنه بغيض إلي الله.

قــال تعالــي.. **"ولا تقولــوا لمن ألقي إليكم السلام لــست مؤمناً، تبتغون عرض الحياة الدنيا"** سورة النساء- ٩٤.

وهكــذا نجــد أن الإســلام نهي عن قتال من أعلن مسالمته.. وأن أثمرت حربه منافع مادية.

وقــد جري المسلمون علي السماحة في حروبهم وفتوحهم.. فكانوا يبعــثون إلي البلد الذي يريدون فتحه شروطاً للصلح قبل أن يحاربوه.. كمــا فعل عمرو بن العاص مع أهل غزة حينما حاصرها.. وكما فعل مع أهل مصر إذ عرض عليهم حرية دينية وعدالة شاملة.

وإذ نظــر الإسلام إلي السلام علي أنه الأصل.. وإلي الحرب علي أنهــا طــارئ موقوت.. شرع من النظم ما يتفق مع سموه.. وسن من القوانيــن مــا يضــمن تخفيف ويلات الحرب.. ويحصرها في أضيق نطــاق.. فــلا يصح أن تتعدي الحرب إلي المدنيين الذين لا يحاربون كالشيوخ والنساء والأطفال والعجزة والعباد المنقطعين للعبادة.

ولا يجــوز أن يجــوع المسلمون أعداءهم.. أو يقتلوا سفراءهم أو يعـــتدوا علـــي المستأمنين في ديارهم من رعايا الدولة المعادية.. فإذا جـــنح العدو إلي السلام كان علي المسلمين أن يسالموه.. وإذا ما رغب فـــي الهدنة كان عليهم أن يهادنوه.. علي شرط ألا يكون في هذا إهدار لحـــق مـــن حقوق الدين.. أو تعويق للدعوة علي الذيوع.. قال تعالي: "**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله**". سورة الأنفال- ٦١.

ولـــم يكن الغرض من الجهاد إجبار أحد أن يسلم.. بل أن المسلمين ضربوا أروع الأمثال في كفالة الحرية الدينية للناس.. ولهذا رحب بهم ســكان المســـتعمرات الرومانية وغيرها.. لينقذوهم من تعسف الحكام ومن الاضطهاد الديني.

وكـــيف يتصـــور أحـــد أن الغـــرض من الجهاد كان الإجبار علي الإسلام.

والنبـــي صـــلي الله عليه وسلم مخاطب بقوله تعالي: "**لست عليهم بمسيطر**". سورة الغاشية- ٢٢

وبقوله: "**ما علي الرسول إلا البلاغ**".. سورة المائدة – ٩٩

وبقوـــله: "**لا إكـــراه فـــي الدين قد تبين الرشد من الغي**".. سورة البقرة- ٢٥٦.

أمـــا نظـــام الإســـلام فـــي معاملة المغلوبين بعد أن تضع الحرب أوزارهـــا.. فإنه النظام الذي لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل ولا من بعـــد فـــي السمو والرحمة والرفق.. وذلك لأن الإسلام لا يبيح التمثيل بالقتلي.. ولا تخريب العمران.

الإسلام يوجب علي المسلمين بعد انتصارهم أن يخيروا المغلوبين بين البقاء علي دينهم ودفع الجزية.. والجزية نتيجة للحرب لا باعث إلي الحرب وهدف من أهدافها.. وقد شرع الإسلام أعدل النظم وأرحمها في معاملة الأسرى والأرقاء.. كما شرع أسمي نظام في معاملة الشعب المغلوب.

وقد شهد للإسلام بذلك كله كثير من غير المسلمين.. مثل الكونت هنري دي كاستري في قوله: أن المسلمين امتازوا بالمسالمة.. وحرية الأفكار في المعاملات.. ومحاسنة المخالفين.. فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة.. ولم يتركوا أثراً للتعسف في طريقهم إلا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال.. ولم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

وكذلك قال جوستاف لبون: لم تكن القوة عاملاً في نشر القرآن.. لأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم.. وإذا كان بعض النصارى قد أسلموا.. واتخذوا العربية لغة لهم.. فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد.. ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى.. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانيا.. وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم.. تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم.

عدت.. وجدت مسيو: شارل سايمون قد خلع نظارته.. وما أن رآني حتى وضع ابتسامته الأخاذة فوق وجهه..

قال:

بحث جيد.. وجدير بالدراسة.. ولكن هذا البحث حرك داخلي سؤال قديم لم أجد له إجابة.. والسؤال يتلخص في:

لقد افتتح القرآن كثيراً من السور بالقسم.. فلماذا ورد هذا القسم في القرآن وهو كما يقول المسلمين تنزيل من رب العالمين...؟

وهذا الأمر يثير ثلاث شبهات:

١- أن الذي يلجأ إلى القسم هو المتهم في صدقه.. المفتقر إلي تأييد دعواه.

٢- أن القسم جاء في القرآن مؤيداً لأنباء ذات خطر كالتوحيد والبعث والحساب.. فإذا كان القسم موجهاً إلي المؤمنين فلا مبرر له.. لأنهم مؤمنون بالدين وبما جاء به وأخبر عنه.. وإذا كان موجهاً إلي المشركين والكفار فلا معني له.. لأنه ليس دليلا يقنعهم وتتضح به الدعوى.

٣- أن المضطر إلي القسم يقسم بما جل وعظم.. ليكون قسمه أوقع في نفوس المخاطبين.. فكيف أقسم القرآن ببعض المخلوقات..؟ ولماذا أقسم بمخلوقات بعضها لا قيمة له..؟

بعد أن أنهي كلامه.. قلت له:

هذه شبهات ثلاث قد تبدو في النظرة الأولى علي شيء من القوة.. لكنها بعد التوضيح والتدليل المقنع.. والتفنيد لا تلبث أن تتداعي.. وسيقتضيني هذا أن أوضح ما هو القسم.. ونشأته.. وأنواعه.. والغرض منه.. وأن أبين نوع القسم في القرآن الكريم.. والكشف عما في القسم من ألوان البلاغة.

هز رأسه موافقاً.. وقال مبتسماً:

- تفضل.. أنا مصغي إليك.

يتبين للذي يتتبع أسلوب القسم أنه نوعان:

- نوع لا يصاحب القسم مقسم به في جملة القسم.
- ونوع يصاحبها فيه مقسم به.

النوع الأول:

أمـــا الـــنوع الأول فيتمثل في كلمات تدل علي القسم وإن كانت لم توضـــع فـــي الأصـــل للحلف بالله أو بشعائره أو بشيء آخر.. وهذه الكلمات: القسم والحلف واليمين والنذر:

١- فالقسم في الأصل اللغوي: القطع.. ومنه قسمة الشيء.. فصار القســـم بمعنـــي الحلـــف كأنه قطع للظن والاشتباه.. وهو لا يستوجب مقسماً به.. ولهذا جاء في نصوص كثيرة وحده..

كقوـــله تعالي: "**أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**". سورة الأعراف- ٤٩.

"**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة**". سورة الروم- ٥٥.

علـــي أن المقسم به وهو الله تعالي قد يقدر في هذه الأمثلة.. ولكنه غير لازم.. لأنه يصح أن يكون مراداً به الله تعالي.. ويصح أن يكون مراداً به غير الله.. ويصح ألا يراد به إلا الجزم والتأكيد.

٢- الحلـــف.. معـــناه الأصيل: الحدة والقطع.. فهو شبيه بالقسم.. يقـــال ســـكين حليف أي ماضي قاطع.. ولسان حليف أي حد يد زلق.. والحلـــف مـــأخوذ من الحلفاء وهو نبات محدد الأطراف.. والمراد بأن فلاناً حلف أن يفعل كذا.. يراد به أنه قطع الشك في أن يفعل.

والحلــف كالقســم لا يلزمه اتصاله بمقسم به.. لأن المراد به شدة تبديد الشك وقطعه.. ومنه قوله تعالي: "**وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى**" سورة التوبة- ١٠٧.

وقوله: "**يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له**" سورة المجادلة- ١٨.

٣- اليميــن.. فإنــه يدل علي القسم.. لأن كثيراً من الأمم كالعرب والعبرييــن والــروم والهــنود.. كانوا يوثقون المعاهدات.. ويؤكدون الوفــاء.. بــأن يــأخذ بعضهم بيمين بعض.. كأنما يرمزون إلي أنهم وضــلوا قلوبهم.. ورهنوا في العزم علي الوفاء أيمانهم.. كقوله تعالي: "**لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا**". سورة البقرة- ٢٢٤

وقوله: "**قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم**".. سورة التحريم- ٢.

ومــا زال الــناس يضع بعضهم يده اليمني في يد الآخر عند البيع والشــراء والتعاقد والتعاهد وتوكيد الأنباء.. وكان للعرب قبل الإسلام مضــروب مــن توثيق العهد تفصل باليمين.. منها أنهم كانوا يحتالون علــي ربــط النسب بين القبليتين المتحالفتين.. وإن لم تكونا من أصل قريب.. بأن يعقدوا الحلف علي دم الذبائح التي تنحر للآلهة.. لأن هذا الدم يرمز إلي أن العلاقة بين الحليفين كعلاقة الدم.. وهي الأساس في القــرابة الدمويــة.. وكانوا يقسمون بدماء الذبائح التي تقرب للأصنام والآلهة.

وكــانوا أحــياناً يوثقون الحلف والعقد بلعق الدم.. فيمس كل فريق بمناه في جفنه ملأى الدم.. ثم يلعق كل رجل ما علق بيده.

وكــانوا أحياناً يغمسون أيمانهم في الماء.. فكأنما أمسك بعضهم بيد بعــض.. بمــا مسهم جميعاً من الماء الذي غمسوا فيه أيمانهم فلصق

بهـــا.. ولقد وثقوا العهد في حلف الفضول بماء من زمزم.. جعلوه في جفـــنة.. وبعـــثوا بـــه إلي البيت.. فغسلت به أركانه.. شربوه.. كأنهم أرادوا أن يســـري العهد في كيانهم.. وكان هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان بمكة.. وحضره رسول الله قبل البعثة.

وأحـــيانا كانوا يغمسون أيمانهم في الطيب.. يمسحون بها الكعبة.. كمـــا فعلوا في حلق المطيبين.. ولعلهم فعلوا ذلك لأن عبق الطيب أبقي من الماء.. وأكثر دلالة وشهرة.

وربمـــا دل العـــرب علي العهد بوصل حبل بعضهم بحل الآخر.. حـــتى صار الحبل أسماً للعقد.. ففي القرآن الكريم: "**واعتصموا بحبل الله جميعاً**".

علـــي أن اللغة العربية لم تنفرد بالتعبير عن القسم باليمين فالعبرية تشـــاركها فـــي هـــذا.. جاء في الزبور: "الذين أفواههم تنطق سوءا.. ويميـــنهم يمين كذب" وجاء وضع اليمين في اليمين في أمثال سليمان: "يا بني إن ضمنت صاحبك فصفقت كفك لغريب".

كذلـــك لم ينفرد العرب بتوثيق المحالفة بالدم.. فقد كان العبريون أحياناً يذبحـــون ذبـــيحة.. ويرســـون دمها علي المتحالفين.. يريدون الرمز إلي نصـــرة القرابة المولاة.. أو الإيعاز بثباتهم علي العهد حتى تسيل دمهم في الوفـــاء بـــه.. جـــاء في سفر زكريا: "فإني بدم عهدك قد أطلقت أسراك". وجـــاء فـــي سفر الخروج: "وأخذ موسى الدم.. ورش علي الشعب وقال: هوذا. دم العهد الذي قطعه الرب معكم علي جميع هذه الأقوال.

٤- الـــنذر.. فمن معانيه الوجوب.. وتحريم المشتبهات حتى يفعل الـــرجل ما أوجبه علي نفسه.. كما نذر المهلهل ألا يشرب خمراً.. ولا

يقرب امرأة.. ولا يبدل ثيابه إلي أن يأخذ بثأر أخيه كليب.. ثم توسعوا في معني النذر.. فصار يدل علي التزام شيء بقسم.

النوع الثاني:

وهو الذي يصاحبه مقسم .. لتحقيق غرض من الأغراض..

فما هي هذه الأعراض..؟

١- منها أن المقسم يذكر المقسم به ليبرئ نفسه من الكذب.. أو ليحضها علي الوفاء.. فيشهد المقسم به علي صدقه وعلي وفائه.. ويجعله كفيلاً له.. وهذا هو الغرض الأصيل لهذا النوع من القسم.. ولعل ذلك هو السبب في كثرة مجيئه بالواو والباء.. لما فيهما من العطف والضم والمصاحبة والإسناد.. وربما كانت التاء مقلوبة عن الواو.. كما قلبت في تقوى وتجاه.

وقد ينوب عن القسم التصريح بإشهاد الله علي الصدق.. كما في قول النبي صلي الله عليه وسلم في خطبة الوداع: "ألا هل بلغ.. اللهم فاشهد".

ولهذا ورد الإشهاد يميناً في قوله تعالي: "**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله، والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون**". سورة البقرة- ٢٠٤.

فسمي الله شهادتهم يميناً.

علي أن القسم قد يدل علي إعزاز المقسم به.. في نحو لعمري.. أي أقسم بحياتي الغالية.. وهذا النوع من القسم ليس بالإيمان الغليظة.. لأنه كثيراً ما يستعمل في التأكيد فحسب.. لهذا لا يشترط في المقسم به أن يكون معبوداً أو مقدساً.. وإن جاء كذلك أحياناً.

٢- ولقـد يدل القسم علي تقديس المقسم به.. إذ كانت الأمم القديمة توثـق إيمانها.. وتؤكد الوفاء بها بإقامة الأرباب شهوداً علي أقوالهم.. يسـتمدون منها العون علي الوفاء بعهودهم.. ويستنزلون سخطها علي من يخون ويغدر.

وكـان العـرب يـتعاهدون علي النصرة والوفاء.. وربما جمعت المعـاهدات قـبائل متباعدة النسب.. فكانوا يوثقون عهدهم بالقسم في الكعـبة.. إذ يشـدون الله علـي ميـثاقهم.. ويقسمون به سبحانه.. أو يقسـمون عـند أنصابهم التي دبحوا عليها..أو يكتفون بشهودهم البيت الحرام.. والقسم لديه.. ثم اضطرهم بعدهم عن البيت بأن اكتفوا بالقسم به.. أو بشعائر الحج.

ويجب أن أنفي هنا.. أن يكون في القرآن الكريم قسم مبني علي أن المقسـم بـه مقدس.. إلا إذا كان بالله سبحانه وتعالي.. كما جاء علي لسـان إبراهـيم علـيه السلام: "**وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين**".. سورة الأنبياء- ٥٧.

٣- علـي أنـنا نجد في أساليبهم أقساماً بأشياء غير معبودة.. ولا مقدسة.. يريدون بالقسم بها إشهادها أو الاستبدال بها.

وهـذا هو الضرب الاستدلالي من القسم.. ولا غرابة في أن يخرج القسـم عـن معـناه الأصيل إلي غرض آخر.. وهو الاستبدال.. فإن الخـبر والإنشـاء يخرج كل منهما عن غرضه الأصلي إلي أغراض أخـرى.. فالاستفهام مثلاً يخرج عن طلب المعرفة إلي النفي والتقرير والإنكار والتعجب وغيرها.

إذن.. فقد تبين أن بين المقسم به والمقسم عليه ارتباطاً وتناسباً في جميع الأحوال.. علي أن اللغة العربية لم تنفرد بالقسم الاستدلالي.. ففي العبرية واليونانية نظائر له.

جاء في سفر أيوب: "أسأل البهائم فتعلمك.. وطيور السماء فتخبرك.. أو كلم الأرض فتجيبك.. ويحدثك سمك البحر أن يد الرب صنعت هذا.. الذي بيده نفس كل حي وروح كل أنسي".

وجاء في خطبة من خطب ديموستين في أثينا يحث علي مقاومة فيليب المقدوني: "أقسم بالذي خاطروا بنفوسهم في معركة ماراثون.. والذين كانوا في الحرب البحرية عند سلامس .. والذين كافحوا الأعداء علي فلاطس.. أنكم لم تكونوا علي الباطل".

فماذا أراد من قسمة الاستدلالي؟ أراد تحميسهم وإشعارهم بالفخر.. وتذكيرهم بالأبطال من أسلافهم.. وعقد موازنة بين حالهم في الدفاع بحال آبائهم المجاهدين.. ومثل هذا القسم أن الشاعر يوليوس كان قد أبلي بلاء حميداً في موقعة ماراثون.. فكللوه كعادتهم.. ثم اتهمه حساده بعد ذلك بأنه ساخط علي اليونان.. فبرأ نفسه بقوله "أقسم باكليلي الذي نلته يوم ماراثون.. أنه لن يراني شامت أضمر سخطاً علي اليونان".

لعله قد استبان أن القسم الاستدلالي ليس مقصوداً به تقديس المقسم به.. وبهذا يتضح بطلان الاعتراضين اللذين تقدم بهما مسيو: شارل سايمون.. لأن الاعتراض الأول قائم علي شبهة أن القسم علي الأمور الجسيمة لا فائدة منه للمنكر.. إذ أنه يتطلب الدليل.. ولا فائدة فيه للمؤمن الموقن.. لأنه مصدق.. ليس في حاجة إلي قسم وتدليل.

أما الاعتراض الثاني: فإنه مستند إلي أن القسم يجب ألا يكون بغير الله.. فكيف أقسم سبحانه بمخلوقاته.؟ .. إذن فلا موضع لأي من

الشـــبهتين.. لأن القســم فــي القــرآن من النوع الاستدلالي المراد به الإشهاد والاستشهاد مع تضمنه أغراضاً بلاغية أخرى.

أمـــا الشبهة الثالثة فيبطلها أن القسم ضرب من البيان.. ألفه العرب ووثقــوا به أنباءهم.. علي ما يشتمل علي من بلاغة.. ولكن ما الفارق إذا بيــن القسم المراد به الإشهاد والقسم المراد به الاستدلال؟ أو بعبارة أخرى ما الفرق بين الإشهاد والاستشهاد؟

يظهــر الفــرق مــن أن المراد بالإشهاد.. إشهاد الخالق سبحانه أو إشـــهاد الناس أو غيرهم علي توثيق القسم وتوكيده والعزم علي الوفاء بــه.. أمــا المــراد بالاســتدلال فهو الاستشهاد علي صدق المقال.. كالاستشهاد بالسيف والرمح والحصان علي صدق الدعوى.

الأدلة علي أن كثير من القسم في القرآن استدلالي:

١- أن القرآن ينصرف في أساليبه.. فتارة يذكر الأمور الدالة علي وجــود الله ووحدانيــته وقدرتــه في أسلوب القسم بها.. وتارة يسوقها مساق العظة والتوجيه.. وهي في الحالتين بينات علي ما سبقت إليه لم يفكــر فيها ويتدبر مراميها.. قال تعالي: "**أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقــت، وإلـــي السماء كيف رفعت، وإلي الجبال كيف نصبت، وإلي الأرض كيف سطحت**".؟ سورة الغاشية- ١٧.

ولا شــك أن توجــيه القســم بهــا علـــي أنه استدلالي للاحتجاج والاستشهاد يناظر ذكرها للعظة والاعتبار والتوجيه.

٢- ويعـــزز هذا أن القسم القرآني قد يجيء معه ما يفيد أن في هذا القســـم بياناً لمن يعقلون ويفكرون.. كما في قوله تعالي: "**والفجر وليال**

عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حجر". سورة الفجر- ١-٥.

فنــبه بعــد القسم علي أن الأشياء المقسم بها دلائل لمن يعقل وأنها قسم عظيم في تقدير من يفكر

وكثــيرا مــا يجــيء مثل هذا التعقيب في القرآن الكريم بعد ذكر الدلائــل علي وجود الله ووحدانيته وقدرته.. كقوله تعالي: **"وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون"** سورة النحل - ١٢

٣- علــى أنــه لــيس من المعقول أن يتصور إنسان أن الله يقدس مخلوقاتــه الــتى أقســم بهــا.. على حين أنها كما ذكر القرآن مراراً مخلوقــات مســخرة طائعــة.. لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ... ولا تستطيع من الأمر شيئاً.

٤- ثــم أن القــرآن يقسم أحياناً ويعمم القسم... يريد تعميم الآيات الدالــة.. كقولــه تعالي: **" فلا أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون".** سورة الحاقة- ٣٨

فأقســم الله بكــل شئ مرئي وغير مرئي.. فكيف يظن أحد أن الله أقسم بكل شئ ليقدس كل شئ.؟

٥- ولقــد يذكــر القسم القرآني مشيراً إلى وجه الاستدلال.. كقوله تعالــي: **" والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى.. وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي".** سورة النجم ١-٤

٦- كذلــك قــد يذكــر القرآن الكريم الآيات الدالة.. ثم يقسم بالله ســبحانه وتعالي.. كأنما قد مهد بذكرها للمراد من الاستدلال بها.. قال

تعالـــي: " **وفـــى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون، وفـــى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**" . سورة الذاريات ٢-٣٢ .

ومعنـــي هـــذا أن الآيـــات المنبـــثة فى الأرض وما عليها... وفى الـــنفوس وأحوالهـــا واسرارها.. وفى السماء ونجومها وسحبها.. كلها أدلـــة علـــى وجـــود الله وقدرتـــه.. ودلائل على صدق النبوة والبعث والقرآن الكريم.. ولهذا عقب عليها بالقسم بذاته العلية.

وهـــذا القســـم بـــالذات العلية مراد به التقديس.. لأنه بالله المعبود بحـــق.. ومتضمن الاستدلال بما تدل عليه السماء والأرض من بينات على وجود الله تعالي.. وعلى صدق محمد عليه الصلاة والسلام.

٧- إذا مـــا رجعـــنا إلـــى القسم القرآني وأجوبته.. وجدنا ملاءمة بيـــنهما.. وأدركـــنا أن المناســـبة قوية بين المقسم والمقسم به والمقسم عليه.. وهذا يعزز أنه قسم استدلالى.. قال تعالي" **والسماء والطارق ، ومـــا أدراك ما الطارق، النجم الثاقب، إن كل نفس لما عليها حافظ**". سورة الطارق ١-٤

فأقســـم سبحانه بالسماء وبالنجوم المضيئة للاستدلال بخلقها العظيم العجيـــب على قدرته.. وجاء جواب القسم ملائما لهذه القدرة.. وهو أن الله مهيمن رقيب على كل نفس.. بدليل قوله تعالي فى سورة أخرى: " **وكان الله على كل شئ رقيباً**.." وحتى على التفسير الآخر وهو أن الله وكـــل بكل نفس ملكاً يحفظ أعمالها ويحصيها عليها.. فإن جواب القسم ملائم للقسم الاستدلالى.

" **وقـــال تعالـــي: " واللـــيل إذا يغشي، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثـــي، إن ســـعيكم لشـــتي، فأما من أعطي واتقي وصدق بالحسني**

فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغني وكذب بالحسني فسنيسره للعسرى". سورة الليل- ١-١٠

وهنا أقسم الله تعالي بالليل الذى يغطي بظلامه كل شئ بسبب غروب الشمس.. وبالنهار الذى يتكشف بشروق الشمس.. وبخلق الذكر والأنثي من نطفة واحدة.. للاستدلال بهذا القسم على قدرته التى أوجدت النظام الشمسي الدقيق.. وأحداث الشروق والغروب والليل والنهار.. وبقدرته على خلق الشئ وضده.. وجاء جواب القسم ملائماً لهذا التضاد.. وهو أن الناس متباينون فى أعمالهم.. ومختلفون فى مساعيهم.. والله عليم بهذا كله.. ويجزى كلا منهم بما يستحقه.. فيجزى بالثواب من آمن واتقي وتزكي.. ويجزى بالعقاب من جحد الزكاة واستغني بطيبات الدنيا عن نعيم الجنة وكذب بالدين.

النتائج المستنبطة من القسم القرآني:

أولاها: أن القسم من الله يراد به الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وقدرته ووقوع البعث وما شاكل هذا.. وليس مراداً به التقديس.. وإن كان المقسم به عظيماً فى ذاته.. وعظيماً عند الله خالقه.. كقوله تعالي:" **والقرآن ذى الذكر". وقوله:" والقرآن المجيد".**

الثانية: أن القسم بالله تعالي مقصود به التقديس.. لأنه الخالق الذى يستوجب التقديس والعبادة.. كقوله تعالي" **فورب السماء والأرض إنه لحق".**

الثالثة: أن القرآن الكريم قد يستعمل أسلوب القسم بغير مقسم به.. كما جرى العرف اللغوي.. نحو قوله تعالي :" **أخرج منها مذءوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين".** سورة الأعراف- ١٨

البلاغة فى أسلوب القسم:

بعد أن تبين أن الكثير من القسم فى القرآن الكريم مقصود به الاستدلال.. وأنه لا يصح للتقديس والتعظيم إلا إذا كان بالخالق سبحانه وتعالي.. تعالي معي نتبين ما فى أسلوب القسم من بلاغة.

١- إذا كان القسم الاستدلالي شواهد وأدلة على صدق المقسم عليه.. فلماذا عدل المتكلم إليه عن أسلوب التصريح والاحتجاج الصريح؟ لماذا لم يجئ الاثبات والتدليل كما يجئ فى البرهنة على نظرية هندسية أو قضية علمية.؟

الجواب على هذا: أن التدليل الخالص يحسن حينما يوجه الخطاب إلى العقل.. وليس المخاطب راغباً عن الدعوى ولا نافراً منها.. أما إذا كان الخطاب للعاطفة.. والغرض منه الآثار والتأثير... والمخاطب نافراً أو معاند.. فإن البرهنة تسلك مسلكاً آخر.. لتجتذب المخاطب وتمتلك نفسه.

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات صريحة فى التدليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته ووقوع البعث والجزاء.. ووردت آيات أخرى كالقسم.. تعتمد على الآثارة والاستشهاد والاستدلال... ومن شأن الأسلوب المتنوع أن يجدد الانتباه والشوق.. ولهذا قال تعالي:" **أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**". سورة الأنعام – ٦٥

٢- وفى أسلوب القسم تأييد للمقال وتقوية وتعزيز.. كما فى قوله تعالي: " **والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل، وما هو بالهزل**" سورة الطارق ١١-١٤. .. وكما فى قسم النبي بقوله:" **والذى نفس محمد بيده**".

وكـــان العـــرب يثقون بقول الحر.. ويعيبونه إذا كذب فى قسمه أو هـــزل.. ولعـــل هذا من الأسباب التى دعت إلى كثرة القسم فى السور الـــتى نزلـــت فى صدر النبوة.. ليستيقن العرب صدق النبي فى التبليغ عن ربه.

٣- والقســـم ضرب من الأسلوب الانشائي.. لا مناص للخصم من الأقـــرار بـــه.. ولا وجه له فى إنكاره.. فإن شاء أنكر جواب القسم.. لأنـــه خبر لا إنشاء.. وقد يجمع القسم القرآني بين الإنشاء والوصف.. كالقســـم بالقـــرآن المجـــيد.. والـــيوم الموعـــود.. والصافات صفاً.. والمقســـمات أمـــراً.. والفارقات فرقاً.. ففى هذا وإشباهه قسم ووصف للمقسم به.. ليكون الاستدلال أعظم فى النفس وأوقع.

وقـــد يوجه القرآن الخطاب إلى النبي فى أسلوب القسم.. وهو يريد الخصم المنكر.. مثل قوله:" **يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم**". سورة يس ١-٤

٤- وقـــد يحذف جواب القسم وهو المقسم عليه.. فينتقل بعد القسم إلـــى كـــلام آخر لكنه مرتبط بالمحذوف.. والسر فى هذا أنه يسد على المخاطـــب المنكر طريق الفرار.. فلا ينتقل من القسم وهذا إنشاء إلى الجـــواب وهـــو خبر.. لئلا يمارى المنكر فى الجواب.. ثم لكي يكون القســـم كالتمهـــيد والتنبـــيه إلي استدعاء سمع المخاطر.. فيرهق أذنيه ليســـمع مـــا بعـــد القسم فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكـــلام الســـابق.. كقولـــه تعالي: " **ص والقرآن ذى الذكر، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق**".سورة ص ١-٢

فأقســـم بحرف من حروف المعجم على سبيل التحدى والتنبيه على الاعجـــاز.. واتـــبعه بالقســـم بالقرآن.. وحذف الجواب لدلالة التحدى

عليه.. كأنه قال والقرآن ذى الذكر أنه لكلام معجز.. ولكن الكفار يستكبرون أن يذعنوا له.. فيعارضون الرسول ويكذبون.. أو كأنه قال: أقسم بالقرآن ذى الشرف العظيم إنك لصادق فيما تبلغ عن ربك.. ولكن الكفار يستكبرون أن يذعنوا للحق.. ويصرون على أنه يعاندوك.. أو أقسم بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار.. بل هم فى استكبار ومخالفة وعداوة لمحمد.

٥- ويمتاز أسلوب القسم بإيجازه.. ولهذا يهجم على السامع فيمتلك مشاعره.. ولعل العرب أكثروا منه وافتنوا فيه لو جازته وهم إلى الإيجاز أميل فى شعرهم ونثرهم.. ومن هنا راجت الأمثال بينهم وشاعت.. وذاعت الحكم والتوقيعات فيما بعد الجاهلية.. وتسابقوا إلى تجويدها والاحتفاظ بها.

٦- على أن من مزايا القسم أن يسهل الجمع بين عدة أدلة فى جملة واحدة أو جمل متلاحقة.. كما فى سورة التين والبلد والطور والشمس والليل والفجر.. مع الإيجاز.. ولو فصلت الأدلة.. وبسط فيها القول لفقد الكلام تأثيره.

٧- ثم أن القسم الاستدلالى يشرك السامع فى استنباط الدليل.. ويخفف من عناده وخصامه.. فيشعر أنه تأمل وعرف.. ومن هنا كانت الأساليب الانشائية كلها أكثر اجتذاباً للقارئ أو السامع من الأساليب الخبرية.

ولهذا ينوع اللبق والحاذق فى أسلوبه.. ويراوح بين الإنشاء والخبر.. لينشط السامع.. ويشركه معه فى الفهم والبحث والاستنباط.. حتى ليتوهم السامع أنه هو الذى اهتدى إلى الحق بنفسه.. ولعل من أسباب بلاغة الكتابة أن المخاطب له نصيب فى تفهمها ومعرفة مرماها.

٨- ويمـــتاز القسم بأنه تدليل فى غير الصورة المعتادة للتدليل.. إذ أن الدلـــيل المعـــتاد المألوف قد يجبر الخصم إلى المجاجة والإنكار.. فقوله تعالي: " **والعصر إن الإنسان لفى خسر**". سورة العصر ١-٢.

أبلـــغ مـــن تحويلـــه إلـ أن الإنسان فى خسر.. لأن الزمن ينتقص عمـــره.. فالآيـــة الكـــريمة إنشاء واستدلال غير صريح.. والجملة خبر واســـتدلال صـــريح.. لكـــنه مع ظهوره يدعم الخصم العنيد إلى إنكاره.. فيدعـــي أن الإنســـان فى ربح.. لأنه يلتذ فى عمره الفاني.. أو يدعوه إلى إنكـــار مـــا يترتـــب على الخبر من الحث على الإيمان والعمل الصالح.. فيدعي أنه لابد من الاستمتاع بالملاذ والشهوات حيث لا مفر من الموت.

٩- ثم أن القسم فى مطالع السور استفتاح رائع.. والقليل الذى ورد فـــى غضون السور جمال بارع.. ولو أن كلماته التى فى مطلع السور صـــورت لـــبهر جلالهـــا وجمالهـــا.. وبحسب السامع أو القارئ.. أن بتحـــيلها ليتمـــثل صـــورة مرئي واحد كالنجم الثاقب.. والقلم الكاتب.. والخـــيل العاديـــة.. والـــرياح الذاريـــة.. أو يتمثل عدة صور كالتين والزيـــتون وطـــور سنين وهذا البلد الأمين.. مثل : " **والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور**". سورة الطور ١-٦

فـــإذا ما قرع سمع المخاطب بهذا الاستفتاح الرائع- وهذه الصور البديعة.. تيقظ عقله ونشطت نفسه.

١٠- بقـــي وجـــه أخير من أنواع البلاغة فى القسم.. هو أنه تقديم لتوثـــيق الصدق قبل الدعوى.. فالقسم يقرع أذني المخاطب.. فيصغي ويترقـــب ما بعده.. ثم تجئ الدعوى فيسهل قيادة لها.. ولكنه إذا فوجئ بالدعوى التى ينكرها انصرف عنها ونفر منها.

والفــرق كبير بين أن يقال: ما أنت بنعمة ربك بمجنون، أقسم بالقلم ومــا يســطرون، وبين قوله تعالي: " **ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون**". سورة القلم ١-٢

كذلك نحس فرقا كبيراً بين أن نقول أن ما توعدون لصادق.. وأن الديــن لواقع.. أقسم بالذاريات ذروا.. وبين الآية الكريمة:" **والذاريات ذرواً، فالحــاملات وقــراً، فالجاريــات يسراً، فالمقسمات أمراً، إنما توعدون لصادق وأن الدين لواقع**". سورة الذاريات ١-٦

ومــن الــذى يستطيع أن يسوى بين أن يقال: ما ضل صاحبكم وما غــوى.. أقسم على صدق هذا بالنجم إذا هوى.. وبين التعبير القرآني: "**والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى**".

وهكــذا نجــد أن القســم فــى القــرآن الكريم.. أكثره للاستدلال والاستشـــهاد.. ولا تكــون للتقديس إلا إذا كان القسم بالله تعالي.. وهو كلـــه للقســم على أمور جسام كالتوحيد.. وقدرة الله.. وصدق النبي.. ووقــوع البعث.. وضلال المشتركين مما لا غضاضة فى القسم عليه.. ثــم أنهــا أســلوب عربــي ألفه العرب.. وجروا عليه.. وتعارفوه فى شعرهم ونثرهم.. كما جرت عليه أمم أخرى.

وبهــذا كلــه ســما القســم فى القرآن عن أن يتطاول إليه نقس أو عيــب.. بــل تســامى القســم القرآني على ضروب القسم التى سلكها الشــعراء والكــتاب جميعاً.. ذلك أن فى الأدب يوجد القسم.. ولكنه لم يجمــع مــن البلاغة ما يتسم به القسم فى القرآن الكريم.. ولم أجد فى قســم شــعرى ولا نثري مثل ما فى القرآن من حذف الجواب أحياناً.. والانــتقال إلـــى كلام آخر موصول بالجواب المحذوف.. كما فى قوله

تعالي: " **والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود**" سورة البروج ١-٤

فإن هذا الضرب الفريد من خصائص الأسلوب القرآنى وحده.

ولقد صدق الله العظيم قوله : " **قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**". سورة الأسراء – ٨٨

وفى قوله:" **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً**". سورة النساء – ٨

صمت ناظراً إلى مسيو: شارل سايمون.. الذى أدرك بعد لحظات أني أنهيت حديثي.. مد يده مهنئاً وهو يقول:

– محاضرة مطولة.. لكنها حسنة ومفيدة

هززت رأسي شاكراً..

قال:

– لكن بقي موضوع شغلني كثيراً فى الأونة الأخيرة.. وهو موقف الإسلام من الشعر.. فالإسلام أدان الشعر.. وغض من شأن الشعراء.. إذ وصفهم بالضلال والكذب.. ووصف اتباعهم بالغواية.. هذا بالإضافة إلى ما حدث فى صدر الإسلام من توقف الشعر وركوده.. ومن انقطاع بعض الشعراء عن قرض الشعر كلبيد.

قلت... محاولاً أن أوسع صدرى لمزيد من مزاعم وافتراءات مسيو: شارل سايمون...

قـلت:

مـا مـن شك فى أن هذا الوهم ناشئ عن فهم غير صائب للآية الكريمة:" **والشعراء يتبعهم الغاوون..، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون".** سورة الشعراء ٢٢٤-٢٢٧

وأغلب الظن أن كثيراً من الذين ينسبون إلى الإسلام تحريم الشعر أو الغض من شأنه يقفون من الآية الكريمة عند قوله تعالي:" **ويقولون ما لا يفعلون**". كأنما هذا الاستثناء منقطع الصلة بالآية.

والحق أن الشعراء المقصودين فى الآية القرآنية هم شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله بالهجاء ومسوه بالأذى.. وتطالوا على الإسلام والمسلمين.. لهذا وصفهم الله تعالي.. بأنهم يتخبطون فى شعاب من القول.. ويذهبون فى دعاواهم مذاهب الضلال.. ويحيدون عن الحق والرشاد وسواء السبيل.. ومثلهم بمن يهيمون على وجوههم فى كل واد.. لا يدرون الوجهة الصحيحة.. ولا يستقرون على حال من القلق والاضطراب.. كعبد الله بن الزبعرى وأبي عزة الجمعي وهبيرة بن أبي وهب.

ومن شأن هؤلاء الشعراء المعادين للإسلام ألا يزعمهم وازع عن الشر والبهتان وفاحش المقال.. فهم يجرحون الأعراض بالباطل.. ويمدحون أناساً بالكذب.. ويتهمون البرئ.. ويبرئون الأثيم.. ويتغزلون غزلاً مكشوفاً.. ولا يطرب لقولهم هذا إلا الغواة والسفهاء.. أما الشعراء الذين انتصروا للإسلام ودافعوا عن النبي.. وردوا على

شـــعراء المشـــركين كحســـان بن ثابت.. وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحـــه.. فقـــد اســـتثناهم الله تعالي من هذا الوصف.. وهم الذين قال النبي فيهم: " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل.

وإذا كانـــت الآيـــة قـــد فهمت أحيانا ذلك الفهم المبتور.. فأن حديثاً نـــبوياً قـــد روى مبتوراً.. ففهم على غير ما ينبغي أن يفهم. روى عن رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم.. قوله: " لأن يمتلئ جوف أحدهكم قبحاً حتى يريه– يفسد جوفه– خير له من أن يمتلئ شعراً".

ولكـــن للحديـــث تكملـــة روتها السيدة عائشة.. فيما استدركته على الصحابة.. وهى " شعراً هجيت به".

إذن فأن الآية والحديث يتفقان فى تحريمهما لونا معيناً من الشعر.

فما هذا اللون الذى يحرمه القرآن والسنة؟

كـــل مـــا يتصل بالصد عن الحق والخير.. وكل ما يتصل بالدعوة إلـــى الـــباطل والشـــر.. ســـواء فى ذلك هجاء رسول الله وأصحابه.. والتجنـــي على الإسلام.. وتجريح أعراض الناس.. ورمي المحصنات الغـــافلات.. والتشـــهير بالجرائم والمنكرات.. والمباهاة بها.. وتزيين مجـــالس الفســـق والفجور بالافتتان فى وصفها.. والدعوة إليها.. وما يشبه هذا مما ينفر منه الخلق الكريم.. وتأباه النفوس الكريمة.. ويتقزز منه المجتمع المهذب الفاضل.

ولـــم يكـــن الإســـلام وهو دين الفضائل والمثل العليا أن يفعل غير ذلـــك.. ولـــو أنه أقر هذه الطائفة من الشعراء على غوايتها لتعرضت صروحه الأخلاقية إلى رجات تزعزع بعض أركانها ودعائمها.

لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: إنما الشعر كلام.. فمن الكلام خبيث وطيب.. وقالت السيدة عائشة: الشعر فيه كلام حسن.. فخذ الحسن وأترك القبيح.

وعلى الذين يدعون أن فى هذا حجراً على الشعر.. وتضييقاً على الفن أن يذكروا أن الغاية السامية من الفن إنما هى تجيب الحق والخير والجمال والعدل إلى النفوس.. لإقامة مجتمع راق عظيم.

وعليهم أن يتذكروا أن أفلاطون قال فى كتابه الجمهورية: " علينا أن نراقب شعراءنا.. فتوجب عليهم أن يطبعوا قصائدهم بطابع الخلق الحميد.. وإلا فليكفوا عن النظم.. وعلينا أن نوسع نطاق مراقبتنا.. فتشمل أساتذة كل فن .. فنحظر عليهم أن يصبغوا أعمالهم بطابع الوهن والرذيلة والفساد والخسة.. لكى لا ينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة.. كما تنشأ الماشية فى مراع رديئة.. فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها".

وهاجم أفلاطون الشعراء فى كتابه- القوانين- إذ مجد هومير.. وبلل ثراه بندى الزهر والريحان.. ثم عقب على هذا بأن الشعراء والخطباء لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا.. وكثيراً ما أغرى بهم الحكام ليحولوا بينهم وبين إفساد الشباب.. لكنه دعا إلى حريتهم إذا التزموا الفضائل الخلقية.. وصانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التى لا ظلال لها من الحقيقة.

وعلى الذين يزعمون أن الإسلام حجر وقيد حرية الفنانين أن يعلموا الغاية التى قصد إليها أرسطو من الأدب.. ففى رأيه أن الأدب قد يتعرض للرذيلة ولكن ليحاربها.. ولابد من الحيلولة بينه وبين أن يقرها أو يزينها أو يشيعها.

ولــم تكــن دعوة الكلاسيكين لتختلف عن دعوة أفلاطون وأرسطو.. فــإنهم قــد اتجهوا بالأدب وجهة خلقية.. وحرصوا على أن يدعوا إلى المثل العالية.. وأن يجتذب القراء إلى الفضائل الدينية الاجتماعية.. وفى مذهــبهم أن أعظــم الشــعراء هــو الذى يتجلى فى شعره إمتاع القراء وتهذيــبهم وتغذيــة عقولهــم وتقوية أخلاقهم... وأن على القصاص أن يبصــر المجتمع بمساوئه ويصلحوا عاداته.. ومن الجرم أن يفتن الكاتب المســرحي فــى تصــوير الرذائل تصويراً.. يحببها إلى المشاهدين أو يدفعهــم إلــى مناصرتها.. وخلاصة مذهبهم نصر الحق على الباطل.. والخير على الشر.. والعزيمة على الهوى.. والواجب على العاطفة.

بل شجع الإسلام الشعر:

لننــتقل بعــد هذا إلى التطبيق العملى فى الإسلام.. لنتبين تشجيعه للشعر.. بعد أن ظهر لنا أنه لا يعارض إلا بعضه.

فقــد دعــا النبــي حســان بــن ثابت إلى هجاء قريش.. وقال له: أهجمهــم.. فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام.. أهجهم وجبريل معك.. ألق أبا بكر يعلمك هناتهم.. وبني الحسان منيراً فــى المســجد ينشــد عليه شعره.. وكان حسان لا يهجوهم إ لا بالكفر والضلال وسئ العادات والمعتقدات.

فلمــا تولــى عمر بن الخطاب الخلافة مر بحسان وهو ينشد الشعر فــى مسجد رسول الله.. فأنكر عمر عليه ذلك.. فقال: حسان دعني يا عمــر.. فــو الله انك لتعلم أني كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك.. فما ينكر على ذلك.. فقال عمر: صدقت.

وكــان النبــي يسمع الشعر ويتأثر به.. وكانت السيدة عائشة كثيرة الــرواية للشــعر.. حــتى قالوا أنها كانت تروى شعر لبيد.. وتروى

القصيدة ستين بيتا.. والقصيدة مائة بيت.. وكانت معجبة بشعر حجية بن المضرب وهو شاعر جاهلى غير مشهور.. وتحض على روايته.. وتقول إنه يعين على البر.. وقالوا: ما كان ينزل بها شئ إلا أشدت فيه شعراً.

كذلك كان أبو بكر وعمر وعلى وعبد الله بن عباس وغيرهم.. يحفظون الشعر ويروونه.. ويستشهدون به.. ويطربون له.. وبعضهم يقول: كان عمر مشهور بالرواية وبراعة الاستشهاد.. تمثل مرة بشعر.. ثم قال لفرات بن زيد الليثي: أتدرى من يقوله.. قال لا أدرى يا أمير المؤمنين.. قال عمر: هذا شعر أخيك قسامة بن زيد.. وكتب إلى أبي موسي الأشعرى.. " مر من قبلك بتعلم الشعر.. فإنه يدل على معالى الأخلاق.. وصواب الرأى.. ومعرفة الأنساب".

أما على ابن أبي طالب فكان خطيباً يكثر فى خطبه من الاستشهاد بالشعر.. وكان يقول شعراً.. ولكنه لم يبرع فيه.. لهذا لما أشار المسلمون على النبي بأن يعهد إليه بالرد على شعراء المشركين قال: لا.. ليس هناك.. أى أنه لا يقوم لهم.

وكان ابن عباس يحفظ شعراً كثيراً.. يستعين به على فهم القرآن وتفسيره.. ويقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه.. فاطلبوه فى أشعار العرب.. فإن الشعر ديوان العرب.. وكان إذا سئل عن شئ من القرآن أنشد فيه شعراً.

وقيل لسعيد بن المسبب: أن قوماً بالعراق يكرهون الشعر.. فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً.. وهكذا مضي المسلمون على ميلهم إلى الشعر والتغني به والطرب لسماعه.. واتخاذه منهجاً من مناهج الدراسة العلمية والأدبية والخلقية.

وهكــذا...

أيحــق لإنســان بعد هذا أن يحكم على الإسلام حكماً عاماً أنه حرم الشعر.. أو أضعفه..أو حقر من شأنه.؟

وهــل مــن الإنصــاف أن يذهب أحد إلى أن الإسلام قيد الشعراء وضيق عليهم مجال القول؟

لقــد وضح أن الإسلام شجع الشعراء فى عهد الرسول وبعده.. وأن الرسول نفسه.. وأكابر صحابته كانوا يهشون للشعر ويطربون له.

وإذا كــان الإسلام قد نهي عن بعض موضوعات الشعر.. فإنه كان يــتوخى مــن هذا الفن الرفيع أن يكون من الوسائل إلى تربية الفرد.. وترقــية الوجــدان.. والســمو بالمجتمع.. وإقامة صرحه على دعائم وطيدة من الحق والخير والعزة والقوة والمجد.

قلــت لمســيو: شــارل ســايمون الــذى كان يتابع كلماتي بشغف واهتمام...

قلت :

- أرجــو أن أكــون قد أجبت عن الموضوع الذى يشغلك.. وأكون أوضحت وأفهمت.

قال:

- أجبت وأوضحت وأفهمت.

خرجــنا من مكتبة الإسكندرية متجهين إلى بيتي.. بعد أن اتفقنا أن نتــناول طعــام العشــاء معاً.. مررنا بمجمع الكليات.. عبرنا حدائق الشــلالات.. وصــلنا إلى الكوبرى " أبو عين واحدة" الذى يضعنا فى

بداية حى محرم بك.. مشينا فى شارع منشه الذى يقع فيه المبني الذى أسكن أحد شققه.. ألقيت التحية على المهندس جورج والمهندس مينا وهما من ملاك البرج.. صعدنا.. تقدمته إلى داخل الشقة.. استقبلنا تناسم ومرام اللتين سلمتا على استحياء ثم انصرفتا.. ومهاب الذى أشار إلى مسيو: شارل سايمون قائلاً:

- ده خواجه يا بابا..؟

ضحكت .. وأصابع يدى تفرك رأسه..

طلبت من مسيو: شارل أن يتفضل بالجلوس.. وبعد دقائق جاءت زوجتي...

قدمتها:

- الدكتورة: أستاذ الأدب والنقد

نهض.. أحنى رأسه مرحباً.. ولم يمد يده.. فقد أدرك من الحجاب الشرعي.. أنه لا يجب أن يفعل.

جلسنا.

قلت:

- للدكتورة بحث شيق عن اليهود الذى عاشوا فى الإسكندرية.. يدلل على سماحة الإسلام وقدرته على قبول الآخر دونما خوف أو تعصب.. و.. قاطعني مسيو: شارل..

قال مبتسماً:

- أرجو من الدكتورة أن تعرضه لنا.

نظرت إليّ مستفسرة..

أومأت لها أن تفعل..

قالت..

قبل نحو ١٥٠ عاماً وفى مجتمع الإسكندرية ذى الطابع العالمي.. عاشت جاليات من أجناس مختلفة.. اختلطت دماؤهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى نسيج إنساني مميز.. ترعرع ونما بحب فى عباءة الإسكندرية السمحة.. فكانوا يتفاخرون بهويتهم المستمدة من ظلال تلك العباءة.. أرمن ويونانيون وإيطاليون وأقباط ومسلمين وسواهم.. خطفهم بريق المدينة الساجية على صدر البحر المتوسط.. فسكنوها جسداً وروحاً.. حتى حينما عصف بهم تيار التأميم أوائل خمسينات القرن الماضي وهاجروا فى إنحاء متفرقة من العالم.. لم يخب هذا البريق فى دمائهم.. فظل الحنين إلى الإسكندرية يطاردهم.. فمنهم من ألف كتباً أو كتب مذكراته ونشرها.. ومن أسس جمعيات للسكندريين المهاجرين وحتى الآن يحرص الكثير منهم على زيارة الإسكندرية.. مسقط رأسهم ومرتع صباهم.. ليستعيدوا دفء علاقات إنسانية حميمة تركت بصماتها على منازل ومقاه وشوارع ومساجد وكنائس ومعابد.. تنطق بروعة الميراث الثقافي والروحي للإسكندرية.

عاشت الجاليات جنباً إلى جنب مع السكندريين.. وبرغم ذلك حافظت كل جالية على عادتها ولغتها وحياتها الاجتماعية.. ومناسك عباداتها وتاريخها وحتى المقار الخاصة بها.. وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية بين الجاليات.. ولعبت هذه اللغة دوراً أساسياً فى توحيدهم.. كما كان معظمهم يعرف شيئاً من العامية المصرية بحكم الاحتكاك اليومي المباشر.

الجالــية اليهودية فى الإسكندرية تعتبر مثالاً قوياً على هذه الحالة.. حيــث تمــتع اليهود بكامل حريتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية وبناء المعــابد وإقامـــة المحـــافل.. وقد ساندتهم الحكومة فى تيسيرات البناء ومـــنحهم الأرض مجانـــاً.. ممـــا أسهم فى انتشار المعابد اليهودية فى مختلف مدن مصر وبخاصة القاهرة والاسكندرية.. وحتى عام ١٩٣٠ م كـــان هـــناك ٢٠ معـــبداً فـــى الإسكندرية.. تنتمي إلى مجموعات ومجـــتمعات متبايـــنة مـــا بين يهود مغاربة وأتراك وإيطاليين وأسبان وفرنســـيين.. ويهود مستعربين.. وكانت الطائفة لها مجلس عام يتكون مـــن حاخـــام باشـــي.. ونائب الحاخام.. ورئيس ونائبه.. وسكرتير.. واتخـــذت الطائفـــة مـــن معبد" الباهو حنابي" بشارع النبي دانيال مقراً لهـــا.. وهو من أقدم وأشهر معابد اليهود فى الإسكندرية.. المعبد الذى شـــيد عـــام ١٣٥٤م.. تعـــرض للقصف من قبل الحملة الفرنسية على مصـــر.. عـــندما أمر نابليون بقصفه لإقامة حاجز رماية للمدفعية بين حصـــن كـــوم الدكـــة والعجر.. وأعيد بناؤه مرة أخرى عام ١٨٥٠م بتوجيه ومساهمة من أسرة محمد علي.

فى المعبد التقيت رئيس الطائفة اليهودية الحالي د. ماكس سلامة.. طبيـــب الأســـنان المعـــروف بالإسكندرية – ٩٢ عاماً– استقبلتني مايا خادمـــته وهـــى مســـيحية من سرى‌لانكا.. ماكس استعاد معي بعض الذكـــريات.. يقـــول ماكس الذى يرأس الطائفة منذ ٦ سنوات.. كانت الجالـــية الـــيهودية من أكبر الجاليات وأهمها بالإسكندرية.. وكان لهم محـــال تجارية مثل هانو وشيكوريل وعدس.. وكطبيب أسنان كان من بيـــن أهـــم زبائني الملكة فريدة والملك فاروق وأفراد الأسرة الملكية.. وعائلـــة الأمـــير طوســـون.. وعائلة عبد الناصر.. ولم تكن هناك أى

عداوة بيننا كيهود وبين المسلمين.. فقد بلغ عدد أفراد المجتمع اليهودى ذات مرة ٨٠ ألف نسمة.. لكن السياسة تدمر كل شئ إنساني.

وبحنيـــن جـــارف يتابع ماكس.. أفتقد حفلات الأعياد.. فحتي عام ١٩٣٥م كـــنا نحتفل كمصريين بالأعياد معاً.. وكان يقوم كيبور – عيد الغفـــران– هـــو بمثابة احتفال كبير فى الإسكندرية.. كانت الجماهير: ســـواء مســـلمين أو أقـــباط أو يهود يسيرون فى ميادين المنشية وحتى المعـــبد فـــى محطـــة الرمل.. الآن لا توجد هذه المظاهر الاحتفالية.. ولكن فى أوقات الأعياد يأتي حاخام من إسرائيل لقيم الشعائر الدينية.. وتأتـــي بعـــض الوفود للاحتفال بشكل يكاد يكون سرياً.. الآن لا يوجد مـــن يأتي للصلاة.. نظراً لتناقص عدد اليهود المقيمين فى الإسكندرية بســـبب الهجـــرة إلى إسرائيل.. فقد أصبح عددهم الآن: ٤ رجال و ٢٠ ســـيدة مـــن أصـــل يهـــودى.. ولكنهن متزوجات من مسلمين أو من مسيحيين.. وكل الشباب هاجروا.

حـــول أنشـــطة الطائفة.. يقول ماكس أنها فى تقلص متلاحق.. ولا توجـــد حالياً سوى جمعية خيرية واحدة فقط.. يحتضنها المعبد– تتولى مســـاعدة مـــا تبقي من اليهود.. واستطيع أن أقول منذ الستينات توقف النشـــاط بانغلاق النوادى والمستشفيات والمدارس.. بعد أن كان للطائفة نشـــاط ملحـــوظ فى مجال الخدمات الاجتماعية.. حتى المعابد اليهودية الأخـــرى الـــتى أنشأتها عائلات يهودية كبيرة.. تم بيعها أو تهدمت.. وتتلقـــي الطائفـــة بعـــض المعونات من مؤسسات يهودية فى الخارج لتعينها على سد احتياجات المحتاجين إلى جانب ما تدره أملاك الطائفة وهى عبارة عن بعض العمارات التى تؤجرها الطائفة منذ سنوات.

أمـا السيد يوسف – ٥٤ عاماً- القائم بأعمال الطائفة.. وهو رجل مـثقف ذو شخصية اجتماعية.. يجيد أكثر من لغة.. وله صداقات مع أنـاس فى دول كثيرة.. ولد بالإسكندرية لأب وأم يهوديين.. والده كان تـرزياً مشـهوراً.. وكـان مصمم ملابس أسرة عبد الناصر.. درس يوسـف فـى إحدى المدارس الفرنسية بالإسكندرية.. يؤكد يوسف أن أفـراد الجالية مصريون يدينون بالولاء لمصر.. وهم مخلصون لها – يقـول: أنه لا يملك الكثير من الذكريات.. لكنه يروى أنه فى المرحلة الابتدائـية حوالـي عام ١٩٦٥م كان تقريباً الطالب الوحيد الذى يدين بالـيهودية فـى المدرسة.. وكان فى حصة الدين.. يذهب الطلاب إلى حصـة الدين الإسلامى أو المسيحي.. بينما .. كان يجلس هو فى فناء المدرسـة.. ويذكـر أن المدرسين عرضوا عليه أن ينضم إلى أى من الجانبيـن.. وبـالفعل كان يحضر مرة حصة الدين الإسلامي.. ومرة أخـرى للديـن المسيحي.. مما جعل لديه خلفية بالديانتين وتعاليمهما.. وهذا ما مكنه من الاندماج مع اصدقائه من الجانبين.

بمدخـل المعبد. تطالعك آيات قرآنية معلقة فى حجرة.. إنها حجرة الأسـتاذ عبد النبي أبو زيد.. المسؤول الإدارى بالمعبد.. يعمل به منذ ٢٠ عامـاً.. اسـتقبلني فى مكتبه ببشاشة.. وعندما سألته عن المعبد.. قال:

جميع العاملين هنا مسلمون.. ومعنا محاسب مسيحي.. والجميع هنا مـتحابون.. أما عن المعبد فهو مغلق معظم العام.. ولكن يشعر الجميع بالسـعادة حقـاً عـندما تأتي الوفود للاحتفال برأس السنة اليهودى فى شـهر سـبتمبر – أيلـول- وعـيد الغفران والحانوكاه والبوريم وعيد المظلة وسمحات أورات وعيد الفصح- بيسح.

أثـــناء تجوالي بالمعبد قابلت سيدة مسنة لطيفة تعلو وجهها ابتسامة رقـــيقة.. هى لينا ماتاتيا- ٨٣ عاماً - تعمل بالمعبد منذ أكثر من ٣٠ عامـــاً.. وهـــى المسؤولة عن سجلات الجالية اليهودية بالإسكندرية.. وعن تعداد المواليد.. وتوثيق الزيجات والوفيات.. تقول:

أنـــا مـــن مواليد الإسكندرية لأب وأم يونانيين...استقيت عشق مصر والإســـكندرية خاصـــة منهما.. لذا لم أغادرها.. فقد عشت بها أجمل أيام حياتـــي مـــع زوجـــي المسلم.. ولم نكن نعاني يوماً من أى مشاكل.. كان المعـــبد هنا يعج باليهود المصريين الذين يأتون للصلاة كل سبت.. وكان لا يتســـع لهم.. وكانت تقام به حفلات الزواج بحضور الفتيات والسيدات فى قمة أناقتهن.. وكانت تشبه أيضا احتفالات الزواج عند المسلمين.

وكانـــت العروس تذهب فى الليلة السابقة للاحتفال بالزواج إلى الحمام - الميكفا- أى الحمام الديني فى صحبة أمها وحماتها وجدتها وعماتها.. تحمل ســـلة من الصفصاف بها صابون معطر فاخر ومناشف وزجاجة ماء كولونيا أو مـــاء ورد ولـــيفة جديدة وقبقاب خشب مبرقش مطعم بالصدف أو بكرات زجاجـــية ملونة.. وطشت صغير من النحاس أو الفضة.. ثم تنزل إلى مسبح شعائرى.. وبعد طقوس التبريك يقدم شراب منعش وقهوة أو شاي مع الجاتوه والحلـــوى والملـــبس والبونـــبون.. ثم تتوجه النسوة بالعروس عائدات إلى منزلها.. حيث يستقبلهن الجيران بالزغاريد والتهاني.. وجرت العادة أن يعقد الحفـــل الدينـــي فى شقة أحد العروسين.. أما حفل الاستقبال فيقام فى خيمة داخـــل فناء المعبد.. أو شرفته.. وتقدم الموسيقي العبرية.. وغالباً ما يعزف لحـــن البولكا أو موسيقي المازوركا مع الاستعانة بمغنية شرقية وأفراد تختها لإحياء الليلة.. وينفض الحفل حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً.

وتستدرك ماتاتيا: كل شئ اختلف عن الماضي فلا توجد حفلات زواج.. وقد اقتصرت الصلاة على الأعياد والمناسبات الدينية- ونحن لا نأكل طعاماً دينياً.. وبين الحين والآخر يأتي لنا أصدقاء بطعام الكوشير.. المحلل دينياً.. وهو عبارة عن اللحوم والخبز الذى تجرى عليه بعض الطقوس الدينية.. فنتناوله مرة أو مرتين فى السنة.

يؤدى اليهود الصلاة مرتين فى الصباح وفى المغرب.. يمكن تأديتها فى المنزل.. ولكن الصلاة الجماعية تتم فقط يوم السبت ويلزمها عشرة رجال على الأقل لتصبح مقبولة شرعاً.. وقد توقفت هذه الصلوات الجماعية.. بسبب كبر السن لمعظم من بقي من اليهود.. كما أن عددهم أصبح أقل من ١٠.

ومن المعابد الأخرى العمامة بالاسكندرية: معبد زاراديل الذى انشأته عائلة زاراديل عام ١٣٩١.. ومقره فى شارع عمرام بحارة اليهود فى سوق السمك القديم.. يحتفظ المعبد بمخطوطتين نادرتين للتوراة بالخط الأشورى.

من المعابد اليهودية فى الإسكندرية هناك معبد منشه.. أسسه البارون يعقوب دى منشه عام ١٨٦٠م بميدان المنشية.. وهو مبني بسيط مكون من طابقين.. ومعبد جرين الذى شيدته عائلة جرين بحي محرم بك عام ١٩٠١.

أما حارة اليهود الشهيرة فكانت مثالاً حياً على أوضاع اليهود فى الإسكندرية واندماجهم مع أهلها المسلمين.. وهى تبدأ من حي الجمرك ببحرى حتى حى المنشية.. وهى ليست حارة بالمعني المعروف.. بل حى كامل فيه شوارع وحارات كثيرة متصلة ببعضها بعضاً.. سكنها اليهود والمسيحيون والمسلمون.. ولا تزال هذه الحارة محتفظة

بطابعهـــا المعمـــارى وسكانها من الطبقة المتوسطة والفقيرة.. فكانت تقطـــنها الطـــبقة الدنــيا من الجالية اليهودية.. وكانوا غالباً من اليهود المصـــريين المولد والجنسية.. وكانت العربية لغتهم.. واقاموا علاقات صداقة مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين.

يســـترجع عم مسعد الشهير بمسعد روما.. صاحب مقهي بلدى فى حارة اليهود- ٨٣ عاماً- شريط الذكريات قائلاً:

لقـــد كانت أياماً حلوة.. كنا كلنا معا كعائلة واحدة.. ولم يكن هناك فرق بيننا.. كنا نتزاور ونحتفل معاً بالأعياد.. كانوا يحتفلون معنا بعيد الفطر.. وكنا نتبادل الكعك.. وهم كانوا يقدمون لنا كعك عيد الغفران.. كذلك المسيحيون.. لذا كانت الحارة كلها أعياد.

ويســـتطرد عـــم مســـعد: لقد عشت وتربيت بينهم.. وكان معظمهم خياطيـــن.. ويبـــيعون لـــوازم الخياطة.. وكانوا حريصين على أسرار مهنـــتهم.. ويشـــير إلى زقاق أمامه... كان هنا إبراهيم بياع الدقيق.. وبيومي بياع النحاس.. كانت عشرة طيبة.. كنا بنخاف على بعض لما يكـــون فيه مشكلة مع واحد منهم.. كنا ندافع عنهم.. وإذا مرض أحدنا الكـــل يلـــتف حوله.. كنا نقعد على القهوة ونلعب دومينو وكوتشينه.. وكانـــت لهم قهوة خاصة بهم أسمها قهوة إبراهيم صالح.. لكن خرجوا من مصر اتغيروا.

وحول المأكولات اليهودية.. يقول عم مسعد.. كانوا يأكلون مثلنا.. لكن كانت لهم مخابز وجزارات خاصة بهم.. تقدم لحوماً مذبوحة على الطـــريقة الـــيهودية.. فلـــم يكن مسموحا لهم بتناول أى لحوم أخرى.. حيـــث كان أحد الحاخامات يتولى الإشراف على هذه الذبائح للتأكد من مطابقتها للشريعة اليهودية.

تاريخياً عاش اليهود فى الإسكندرية منذ أسسها الاسكندر الأكبر- وشكلوا ربع سكان المدينة القديمة- وشهد العصر الروماني وجود العديد من الجاليات اليهودية الكبيرة.. سكنت مناطق معروفة أطلقت عليها أسماء انبيائها.. وظلت هذه الأسماء متداولة- ولا تزال حتى الآن.. لكن ملامح الجالية اليهودية فى تاريخ الإسكندرية الحديث تشكلت مع نهاية القرن السابع عشر.. حين رحل مجموعة من الصيادين اليهود الفقراء من رشيد وإدكوا إلى الإسكندرية.. لينضموا إلى بضع مئات من اليهود متعسرى الحال.. وأقام هؤلاء الوافدون خياماً لهم فى حى الأنفوشي بمحاذاة شاطئ البحر.. وبشارع الصيادين بالقرب من سوق السمك القديم.. فيما بعد أصبحت هذه الخيام أكواخاً.. تحولت بدورها إلى منازل.. لتصبح حى اليهود بالاسكندرية.. الذى يمتد من حوش النجار وحوش الجعان وحوش الحنفي إلى ميدان وشارع فرنسا.

ومع مرور الوقت أجتذبت الاسكندرية مزيداً من يهود القاهرة والدلتا.. ومن المغرب والعراق وتركيا.. نتيجة للانتعاش الاقتصادى الهائل الذى شهدته.. وانفتاحها على أسواق الغرب.. وقد أقام يهود الطبقة المتوسطة فى حى محرم بك.. حيث شيد أول مستشفي يهودى عام ١٨٩٣م بجهود البارون جاك دى منشه والمعروف الآن بمستشفي الرمد.. وما زال فى شارعى باولينو والرصافة ملجآن للمسنين من اليهود.. إلى جانب العديد من المدارس والمعابد.. بينما أقام يهود الطبقة البوجوزية وسط المدينة بالقرب من شارع النبي دانيال.. ثم توسعت أملاكهم فى منطقة الرمل.

لعب اليهود دور واسطة العقد بين الجاليات المختلفة.. فكانوا بمثابة همزة الوصل بينها .. ساعدهم على ذلك العديد من الأنشطة التجارية

والحرفـية.. التى انتشرت وسط المدينة.. كميدان محمد على ومحلاته الكبـيرة.. كمـا سـيطر السماسرة وكبار رجال المال من اليهود على البورصة.. لدرجة أنها كانت تغلق أبوابها فى جميع الأعياد اليهودية.. وكـان مـنهم أكـبر تجار القطن.. كما أسسوا العديد من البنوك التى مازالـت تغلـق يـوم السبت.. وكانت محلات المجوهرات وشركات التأميـن والملاحـة الـيهودية تنتشـر فـى شـوارع شريف وتوفيق وسيزوستريس واستانبول.

فـى الطـرف الآخر من المدينة نشط يهود الاسكندرية فى الميناء الـبحرى.. وبعد الحرب العالمية الثانية كانت الطائفة اليهودية بالمدينة مـن أكـثر الجالـيات تألقـاً ونشاطاً.. فقاموا بتأسيس بنوك: العقارى المصرى. الأهلى المصرى.. التجارى المصرى.

ومـن أكثر العائلات تأثيراً فى الاسكندرية عائلة منشه.. وعميدها يعقـوب دى منشـه.. والـبارون ليفـي دى منشه وهو مؤسس البنك العثماني المصرى عام ١٨٧٢.. الذى أقرض الخديوى إسماعيل لتنفيذ مشروعاته النهضوية فى مصر.. لذا سمي أحد أهم شوارع حى محرم بك بشارع منشه.. كما تنتسب منطقة سموحة أشهر مناطق الاسكندرية إلى جوزيف سموحة.. عميد عائلة سموحة التى يرجع نسبها إلى يهود بغـداد وكـان رجـل اقتصـاد وصناعة.. شيد نادياً رياضياً لممارسة الفروسية.. لازال يحمل اسمه.

كمـا شـملت إسـهاماتهم مـيدان الـثقافة فنافست الاسكندرية فى عشـرينات وثلاثيـنات القـرن الماضـي مسارح وصالونات باريس الأدبـية.. وكـان من أهم الشخصيات فى تاريخ السينما العربية توجو مزراحي وهو من أسرة يهودية إيطالية.. قدم الحياة السكندرية بتنوعها

فـــى شخصـــية شـــالوم الـــيهودى وصـــديقه جـــنجل المسلم فى فيلمه الترجمان.. ونذكر أيضاً الفنانة بهيجة المهدى وأسمها الأصلى هنريت كوهيـــن والتى قامت ببطولة عدة أفلام مع على الكسار.. وكذلك الفنان عمر الشريف أو ميشيل شلهوب.

أسس التعامل مع الآخر غير المسلم:

تـــنطلق فلســـفة الإسلام فى منهجها للتعامل مع الآخر من الأسس التالية:

١- التعارف والتعاون بالبر والقسط: وذلك استجابة لتوجيه القرآن الكـــريم للبشـــرية جمـــيعاً: " **يـــا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلـــناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**" " الحجرات-١٣".

" **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديـــاركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**". سورة الممتحنة – ٨.

ويـــنطلق هـــذا الأساس كذلك من وثيقة المدينة، التى تمثل دستوراً لأهلهـــا.. وقـــد كتبها رسول الله.. صلى الله عليه وسلم.. لسكانها من مهاجريـــن وأنصـــار من جهة... ويهود من الجهة الأخرى.. وجسدت صـــورة الـــتعايش الحضـــارى والـــتعاون الاجتماعي فى ظل الدولة الإســـلامية.. وتضـــمنت تلـــك الوثـــيقة حرية العقيدة والرأى والنفس والمـــال.. وحـــرمة الجوار... ونصرة المظلوم... ومقاومة المعتدى.. وأن يكون سكان المدينة يد واحدة على من يهاجمها أو يحارب أهلها.

٢- **الكـــرامة الإنســانية:** إذ تنطلق فلسفة الإسلام فى خطابها مع الآخـــر على أنه جزء من الذات الأصلية من زاوية الكرامة الإنسانية.. بلا فرق بين أبناء دين أو لون أو جنس أو عرق.

يقـــول الله تعالي: " **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً**". سورة الأسراء- ٧٠

٣- **الحـــرية فـــى الاختـــيار:** وتنطلق فلسفة الإسلام فى تصورها للآخـــر مـــن تقريـــر قاعدة الحق الطبيعي فى الحرية وحق الاختيار.. وعـــدم جواز الأكراه على الإيمان بحال. يقول تعالي:" **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**". سورة الكهف – ٢٩

إن محاولـــة جمـــع الناس على دين واحد كخيار وحيد لا ثاني له.. يتنافـــي مـــع المشـــيئة الربانية.. ويوقع فى محظور الإكراه.. قال الله تعالـــي: " **ولـــو شـــاء ربك لآمن من فى الأرض جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.**" سورة يونس – ٩٩

٤- **الدعوة إلى الله:** ولا شك أن الدعوة إلى الله تعالي.. لا تتم فى الأصـــل إلا بالكلمـــة الطيبة الحسنة.. لا بالعنف والغلظة.. سواء على مســـتوى الأفـــراد والجماعـــات.. أم على مستوى الدول.. من منطلق عالمـــية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها... قال تعالي:" **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً..**" سورة الأعراف – ١٥٨

٥- **القواســـم المشـــتركة:** وثمـــة قواسم مشتركة بين أهل الأديان الســـماوية ومـــن يلتحق بهم... يمكن أن تجمع بينهم.. وفى مقدمة هذه القواسم.

- التوحيد الكلى... ورأسه الإيمان الكلى بالله... والمسلمون لم يأتوا بدين جديد كلية.. بل هو تجديد لما وجد فى معالم التوحيد فى أديان الرسل السابقين.. وإمتداد جوهرى لدعواتهم.. وقد أمر الله المسلمين بمخاطبة أهل الكتاب بالحسني.. باستثناء من يظلم منهم... يقول الله تعالي: **" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"**. سورة العنكبوت - ٤٦

٦- إنصاف الآخر والموضوعية فى الحكم عليه: لم يفرق القرآن الكريم بين المؤمن بدين الإسلام وغيره من أهل الأديان.. إذا ما اقترف أى منهم عملاً سيئاً.. إذ تأبي سنة الله العادلة محاباة المسلم علي سواه ما دام الجرم واحد.. قال تعالي" **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً"**. سورة النساء - ١٢٣

٧- التعايش لا الصراع: ومن الأسس التى يستند عليها الإسلام.. إيمانه بالتعايش الإنساني بين الأديان المختلفة والحضارات المتباينة.. حيث التعارف والتعاون.. والإسلام لا يؤمن بالصراع الحضارى كحتمية تتبناها.. وتسعي لتطبيقها وفقاً لإيمانها بها قانوناً بين البشر.. ولكن يجب تحرير النزاع حول مسألتين جوهريتين فى هذا السياق:

الأولى: مسألة التدافع الحضارى كسنة كونية تحكم الوجود.. فهذا أمر يقرره القرآن الكريم: **" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"** سورة البقرة - ٢٥١

الثانية: مسألة الصراع كحتمية اجتماعية تنفي وجود - ثابت- فى الكون فإن التدافع وفق المنطق الإسلامي لا يعني سوى التعدد..

والـــذى يحفـــظ التوازن للفرقاء المتباينين- كحركة اجتماعية لا تقضي بنفـــي الآخـــر أو استئصاله.. بل تعمل على تحويل مواقع الفرقاء فى إطار التعددية ليس أكثر.

وهكـــــذا:

فـــإن خطـــاب القرآن عن نظرته إلى الآخر من منطلق الاعتراف الكـــامل بذاتيته... وكينونته المستقلة... وحقه فى إقامة الحضارة التى يتمخض اختياره المطلق فى إقامتها.. شريطة عدم تعديها وحدودها أو تجاوزها إلى حقوق المسلم وحدوده.

الحقوق المكفولة للآخر غير المسلم:

تتمـــثل فى: الحرية الشخصية... وما تتضمنه هذه الحرية من حق الانـــتقال والسفر.. والإقامة فى دار الإسلام وحرمة مساكنهم.. وحرية الـــرأى والاجـــتماع والـــتعلم والعمـــل وحماية الشخصية من الاعتداء علـــيها.. وعدم القبض بغير حق... وحق التمتع بمرافق الدولة وكفالة بيت المال.. وقبل ذلك وبعده حرية الاعتقاد والعبادة.

واجبات الآخر غير المسلم:

والقـــاعدة المنطقـــية تقتضي بأن أية حقوق لفرد أو جماعة يقابلها منظومة واجبات.. وهي:

١- أداء الواجبات المالية المقررة عليهم.

٢- التزام أحكام القانون الإسلامي فى المعاملات المدنية وغيرها.. أى التقـــيد بالتعالـــيم الإســـلامية المطبقة على المسلمين.. فيما لا يمس عقائدهم وحريتهم المدنية.

٣- احترام شعائر المسلمين ومشاعرهم.

التعايش الاجتماعي مع الآخر. كيف؟

أولاً: إلقـــاء السلام على الآخر ورده: لما فى ذلك من معاني المودة والإحســـان.. وخلق السلام الاجتماعي بعد ذلك.. وهو ما يمثل شرطاً أساســياً لنيل الهدف الاسمي وهو دخول الجنة.. مصداقاً لحديث النبي صــلى الله عليه وسلم.. فيما يرويه عنه أبو هريرة.. رضي الله عنه.. أنـــه قال." لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم".

وفى رواية أخرى " والذى نفسي بيده لا تدخلون الجنة".

ثانـــيا: العلاقـــات الاجتماعـــية: لعـــل مـــن أبلـــغ أنماط العلاقات الاجتماعـــية.. علاقـــة النسب والمصاهرة.. وهو أمر تبني عليه شبكة مـــن العلاقـــات الاجتماعية المتحذرة بين المسلم والآخر الكتابي ولهذه العلاقـــات مستلزماتها الأخلاقية.. سواء كان ذلك فى ديار المسلمين أم خارجهـــا.. ولذلـــك فـــبعد المصاهرة يصبح أبو الزوجة الكتابية وأمها جديـــن لأولاد الزوج المسلم.. وأخوانها أخوالهم.. وأخواتها خالاتهم.. ولهؤلاء جميعاً حقوق الرحم وذوى القربي.

لكـــــن ....

لماذا أباح الإسلام للمسلم الزواج من كتابية دون العكس؟ والجواب علـــى ذلـــك راجـــع إلى أصل نظرة المسلم إلى الكتابي.. فهو يعدهم أصـــحاب كـــتاب ســـماوى.. مماثل فى الأصل للمسلمين.. ولذلك فإن المســـلم لـــن يضطهد زوجته الكتابية.. لأنه يعلم ابتداء أنها تخالفه فى ديـــنه مـــع جـــواز أن يقترن بها.. ولذلك فإنه سيتيح لها ممارسة حقها

الديني العقدى والعبادى.. من منطلق إيمانه بحرمة التدخل القسرى.. للحيلولة دون ممارستها.. فهل كان سيتأتي ذلك لو أن الكتابي تزوج مسلمة؟ - والكتابي يشكك فى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام-

إن التعايش الحضارى والاجتماعي مع الآخر غير المسلم قد جسدها الصحابة الكرام- رضوان الله عليهم- عملياً فى تعاملهم اليومي والمناسبات مع الكتاب وغيرهم.. مثل: تشييع جنائز أهل الذمة وعيادة مرضاهم.. واغاثتهم عند النوازل... والدفاع عن أعراضهم ومنحهم من أموال الصدقة.. إباحة أداء عبادتهم فى أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين والعكس.. والسماح لهم بعدم العمل فى أيام عطلهم كالسبت والأحد.. وعدم إلزامهم بما يعتقده المسلم حلالاً أو حراماً فى دينه انطلاقاً من المبدأ الإسلامى القائل: " اتركوهم وما يدينون".

وضع صديقي مسيو: شارل سايمون ابتسامة كبيرة فوق شفتيه وراح يردد:

- برافو... برافو... برافو... مجهود كبير قد تم بذله.

نهضنا إلى مائدة السفرة.. تناولنا أنا ومسيو: شارل طعام العشاء.. وبعد تناول القهوة.. خرجت مع مسيو: شارل.. حيث أوصلته بالسيارة إلى فندق سيسل.. وهو مكان إقامته أثناء وجوده فى مصر.

ودع كل منا الآخر وهو يقول:

إلى لقاء آخر.. إلى لقاء آخر

الفصل الثالث

تلقيت رسالة على بريدى الإلكتروني.. تخبرني بأن مسيو: شارل سايمون.. يرغب فى التحدث إلى عبر شاشة الكمبيوتر من خلال النت..

بعد أن تبادلنا التحية.. عاجلني قائلا:

لقد تابعت عدة حلقات على إحدى القنوات الفضائية.. تناولت المخاطر والتحديات التى تجابه المجتمع الإسلامي.. وراح المتحدث يرفع صوته.. طالباً جمهور المشاهدين باليقظة لما يحاك للإسلام من قبل الغرب وعملائه المقيمين وسط المسلمين.

وقد وجدت أغلب كلامه.. متجني على الغرب الذى يمد يد المساعدة إلى المسلمين فى كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.. يضاف إلى ذلك أن هذا الكلام يوسع الفجوة القائمة بالفعل بين الغرب والإسلام.

أردت أن استبين رأيك فى هذا الشأن.

قلت:

- سبق أن كتبت فى هذا الموضوع.. وسوف أرسل لك الـFile بعد لحظات.. رجاء الانتظار.

المخاطر والتحديات التى تواجه الإسلام:

إن المصدر الرئيسي للإسلام هو القرآن... وقد بقي هذا المصدر صافياً.. وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام فى تربيته للمسلمين.. على أن لا يختلط بغيره من المصادر.. لأنه كان يريد أن يصنع جيلاً خالص القلب.. خالص العقل.. خالص التصور.. خالص الشعور.. خالص التكوين من أى مؤثر آخر.

ويمكن أن يوصف الإسلام من هذه الناحية بأنه رباني النزعة.. لأن تصوره للوجود بكل خصائصه ومقوماته مستمد من الله.. تلقاه الإنسان كاملاً بخصائصه هذه.. ليتكيف به ويطبق مقتضياته فى حياته.. ويعني هذا أن المسلم يعتقد أن الله الذى خلق هذا الكون هو الذى خلق الإنسان.. وكل ما فى هذا الوجود يسير على سنة الله مسخراً لصالح الإنسانية.. وهكذا يتحدد مكان الإنسان فى هذا الكون:

إنساناً مستخلفاً من الله فى أرضه.

إن صفة الربانية هذه تقف فى مقابل صور الثقافة المادية.. وبينما تهتم العقيدة التى تبني على أساس من الإيمان بالله بغايات الأشياء وأصولها البعيدة.. فإن المادية لا تهتم إلا بأسبابها ومظاهرها.

ويترتب على ذلك أن الفكر الإسلامى لا ينظر إلى الحياة على أنها الغاية الأسمي والمثل الأعلي.. وإنما على أنها مرحلة لابد من اجتيازها بمنتهي الإيجابية والاتقان.. وهكذا فإن المسلم فى أوج قوته وسلطته وسيادته مؤمن بربه خاضع له.. لا يداخله الغرور الذى داخل الغربي حين يسرت له أسباب الحياة وسخرت له الطبيعة قواها.

ومثل هذه العقيدة تجمع بين الغايات والوسائل.. وبين العلم والإيمان.. وكونها تستمد كيانها من مبادئ الدين لا يعني تخليها عن العقل والعلم.. فاعتماد الإسلام عليها واحتفائه بهما أمر لا يحتاج إلى بيان.. فالدين ليس أبداً بديلاً عن العلم والحضارة ولا عدواً لهما.. وإنما هو إطار ومحور ومنهج لهما فى حدود إطاره ومحوره الذى يحكم شؤون الحياة.. إن من الخداع أن نضع كل ما يتصل بالمنهج الإلهي فى كفة.. والإبداع الإنساني فى عالم المادة فى كفة أخرى ثم نطلب إلى الإنسانية الاختيار.

المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني.. وإنما هو منشئ لهذا الإبداع.. وموجه له الوجهة الصحيحة.. كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة فى الأرض.

إن شقاء الإنسانية... فى انفصال العلم عن الإيمان.. وانفصال المؤسسات الفكرية عن الأخلاق والغايات الصالحة.

الإسلام منهج حياة.. منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها.. منهج يشكل التصور الاعتقادى الذى يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان فيه.. كما يحدد غاية الوجود الإنساني.. ويشمل النظم الواقعية التى تنبثق من ذلك التصور الاعتقادى.. وتستند إليه.. وتجعل له صورة واقعية متمثلة فى حياة البشر.. كالنظام الأخلاقي الذى ينبثق منه.. والأسس التى يقوم عليها والسلطة التى يستمد منها. والنظام السياسى وشكله وخصائصه... والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته.. والنظام الاقتصادى وفلسفته.. والنظام الدولى وعلاقاته وارتباطاته.

هذا هو الإسلام.....

فلماذا المخاطر والتحديات....؟

نبذة تاريخية:

بلغت الوثنية أوجهاً.. وسيطر نظام الطبقات الجائر... وبلغ ظلم الحكام غايته... وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها قبل ظهور البعثة النبوية.. وبدا عالم متداع قد شارف على النهاية.. وكانت كل الأحداث تتمثل فى تطلع إلى رسالة جديدة.. ودعوة البشرية إلى الحق.. وزاد من هذا التطلع اصطدام الفرق فى مختلف الأديان حتى

فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات.. وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول.

رسالة عالمية شاملة بعد أن أنطوت مرحلة الدعوات والرسالات المحدودة والجزئية والإقليمية.. رسالة تعيد صياغة الفكر الإنساني والحضارة .. وفق مفهوم التوحيد وتحمل فى أعماقها طابع الشمول والتكامل.. ومن هنا كان التقاء التاريخ بالإسلام.. التقاء مؤثراً بعيد المدي.. وكان موقع اللقاء بعيداً عن تأثير الحضارتين الفارسية والرومانية فى جزيرة العرب.. التى لم يكن مجتمعها غارقاً فى تبعية فكرية وثنية أو مسيحية أو يهودية.. ولم يكن متحضراً قد عقدته الحضارة وأورثته الانحلال بالإضافة إلى كونه مجتمعاً فقيراً غير مسرف الثراء.

كل هذه الحيثيات مهدت لذلك المجتمع القدرة على تحمل الرسالة.. ولواء الدعوة الجديدة.. وبرزت دعوة الإسلام من خلال قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ... محمد بن عبد الله ومنهجه القرآني.. لتهدف إلى دفع البشرية خطوات إلى الأمام فى طريق الإنسانية.. ومنذ بزغ فجر الإسلام بمولد رسول الله.. وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطوير المجتمعات.

ولا شك أن الفترة التاريخية التى بدأت من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اختياره بجوار الرفيق الأعلي.. هى مرحلة بناء المجتمع الإسلامى الأول.. فقد بني النبي محمد المجتمع المكي فى ثلاثة عشر عاماً.. ثم شرع فى بناء المجتمع المديني فى عشرة أعوام.. كانت الأولى: مرحلة بناء الفرد والأخرى مرحلة بناء المجتمع الذى أخرج الأمة الإسلامية التى تعبر عنها بالمجتمع.

وبانقضاء فترة الثلاثة والعشرين عاماً.. كان مفهوم بناء الإسلام قد أكتمل.. وتكونت القاعدة التى اندفع منها الإسلام إلى العالم كله.. واتضحت مقومات الإسلام ومفاهيمه إبان حياة الرسول من حيث كونه ديناً ومدنية وفكراً ومجتمعاً.. وكانت هذه هى الخطوط العريضة لمقومات المجتمع الإسلامى.. والتى لم يدخل عليها أى إضافة جديدة.. إذ أن كل ما جاء من بعد ذلك إنما هو تفسير لها وتوسيع لآفاقها.. وتحليل لوقائعها.. مستمداً من قابليتها للحركة والتطور على الذى أتاحته فى مقوماتها من حيوية.. ومرونة جعلتها قادرة دائما على مسايرة الحياة والإنسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة.

وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضر اتجاهاً طبيعياً.. فبعد أن تكون المجتمع الإسلامي فى قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب.. ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة.. كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى الآفاق.

وقد عرف المجتمع الإسلامي المخاطر والتحديات منذ نشأته الأولى.. فالدعوة والتى ظهرت فى مكة حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وعقولها.. فلما واجهتها المخاطر والتحديات تحركت حركات متوالية.. بالهجرة إلى الحبشة والدعوة خارج مكة فى الطائف.. ثم بالهجرة نحو يثرب حيث قامت هناك لتؤلف الجزيرة ومجتمعها فى وحدة فكر ومجتمع موحد.

ثم كانت حركتها فى أواخر حياة النبي نحو الحضر... نحو الفوهة التى خرجت منها الهجرات المختلفة بغية نشر الدعوة الإسلامية.. والجهاد فى سبيل تحقيق رسالتها.. والمبادأة بالحركة واليقظة.. وإبراز الهيبة الرادعة للمتربصين على الإطراف... وقد أشارت تحركات

الرســول فى حيبر ومؤنته وبعث أسامة.. ورايته منصوبه أمام المسجد وكــان آخر ما أوصي به بالرسول" أنفذوا بعث أسامة" والذى انفذه أبو بكر فى أول أعمال ولايته.. كانت كل هذه الإرهاصات توحي بالاتجاه الــذى ينبغــي أن يتجه إليه الإسلام.. أن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتاخمنين.

ولا شــك أن هاتيــن الدولتين قد أحستا بخطر الدعوة الإسلامية.. وكــان لابــد لهــا أن تفكر طويلاً فى أمر الإسلام ومدى الخطر الذى يترتــب على وجودها.. ومن ثم بدأت تتآمر للقضاء عليه.. وكانت هذه ثانية التحديات التى تواجه المجتمع الإسلامى فى مهده.

فقــد شــهدت الجزيــرة العربية انتفاضة معادية للإسلام فى شتي ارجائهــا.. عــدا مكــة والطائف... وكان التحدى خطيراً.. أعقبه قيام حــروب الــردة التى انتهت بتوحيد الجزيرة وإعادتها للإسلام... فيما ســمي بحروب التوحيد.. والتى خرج بعدها الإسلام إلى آفاق الأرض فــى موجــات متتالية إلى العراق ودمشق ومصر وفارس من عام ١٢ إلــى عام ٢٣ هـــ... ثم موجه ثانية من عام ٤٠ إلى عام ٥٠ هـــ فى شمال إفريقية.. وموجه ثالثة من عام ٨٣ إلى عام ٩٣هـــ إلى الأندلس غــرباً والســند شــرقاً.. ولــم تلبث راية الإسلام أن رفعت من حدود الصين إلى حدود فرنسا..

هذا الصدام بعالم الغرب المسيحي هو من المخاطر والتحديات التى بــرزت مــع ظهور الإسلام.. ولا زالت تناهض مجتمع الإسلام حتى وقتــنا الحاضــر.. فهناك معركة تحد من نوع خطير بين عالم الإسلام وعــالم الغرب.. بين الإسلام كرسالة ونظام فكره وبين الغرب وفكرة وحضــارته الــتى ابتدعــتها مــن حضــارة الإسلام نفسه.. كل ذلك

والمجتمع الإسلامى فى مرحلة انصهار للفكر الوافد وتمثل للقيم الإسلامية.

وقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية.. التى تقضي على المحارب بأن يركز قواته فى ميدان واحد.. فقاموا بدفع قواتهم فى ميدانين واسعين في وقت واحد.. ومهما يكن من العوامل التى يوردها المؤرخون تفسيراً لهذا النصر... فإن العامل الأول والأعظم هو الإيمان العميق بالله... والثقة فى نصره.. والتماس الشهادة فى سبيل نصرة الإسلام.. والحق أن موجة توسع المجتمع الإسلامى كانت حركة عدل.. ورحمة.. فقد صادفت أقطارا غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد.. فكانت دعوة الإسلام متنفساً من المنضمين لهم حرية الأديان والفصل فى شؤونهم على قانونهم.. جنباً إلى جنب مع شرح أهداف الإسلام وتطبيقاته فى المجتمع الإسلامي.

ومنذ أن توقف التوسع الإسلامى.. إلى بدأ الغزو الخارجي لعالم الإسلام بالحملات الصليبية.. كانت عمليات البلورة والأنصار الفكرى والاجتماعي تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد.. وعقلية متقاربة.. وكانت الأجناس تتلاقي من عربية وفارسية وتركية وبربرية... لتنصهر فى بوتقه الإسلام ومجتمعه الجغرافي.. لتكون أمة واحدة ذات عقلية واحدة..

وتحقيقاً لقوله تعالي: " **هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**". سورة الأنبياء – ٩٢

ولما بلغت موجة المد الإسلامي غايتها.. بدا أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها.. وتصدها.. وذلك بزرع التحديات والمخاطر فى طريق المد الإسلامي من ناحيتين.. تحد داخلي يتمثل

فــى حركات تحمل طابع التآمر السياسي على نظام المجتمع الإسلامي ودولته من البابكية والقرامطة والباطنية.

وتحد خارجي فكرى يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الإسلام ومفاهــيمه.. وكانــت أغلــب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشــكيك الفكــرى.. ويستهدف ذلك القضاء على الإسلام.. بالقضاء على دولته وعلى مفاهيمه.

وقــد امــتدت هــذه التحديات طوال تاريخ الإسلام.. وامتدت معها المقاومـــة وردود الفعــل.. من خلال جبهة المفكرين والعلماء والدعاة الذيــن يمكــن أن يطلق عليهم المصلحون أو المجددون... وكانت هذه الجــبهة تحمل لواء العمل لمجابهة هذه المخاطر والتحديات.. التى هى أشد عنفاً من الحملات العسكرية على مجتمع الإسلام.

ولــم تكن التحديات والمخاطر فى مجابهة الإسلام أمراً مستغرباً.. بــل علــى العكس من ذلك كان أمراً طبيعياً.. إذ أن أى قوة جديدة من شــأنها أن تغير مجرى التاريخ.. وتفرض كيانها.. إنما تقيم هذا الفعل علــى أرض الواقــع مؤثرة فى الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالإزالة.. وبالــتحويل.. ولم يكن فى الإمكان أن يقوم هذا الفعل من فراغ.. ومن هــنا كــان للإســلام ردود على هذه التحديات والمخاطر فى البيئات المخــتلفة الــتى سيطر عليها والأديان التى واجهها.. والقوى الحاكمة التى أزالها.. لقد قاوم الوثنية والمجوسية وأزال امبراطورية الرومانية عــن مــناطق اســتعمارها فى الشام ومصر وافريقيا.. ومن هنا كانت مقاومة الإسلام بالحرب هي العمل الأول.

ففــى الموجــة الأولــى تقدمت قوة الإسلام لحدود الشام والعراق لمواجهــة نفــوذ الدولــة الرومانية.. وإلى حدود العراق لمواجهة نفوذ

الدولــة الفارسية.. واصطدم المسلمين بالروم فى أجنادين واليرموك ثم سـقطت القـدس.. ثـم استسلمت مصر لتخرج من ظلم الرومان بعد معـارك دامـية.. بينما استأنف المسلمون الزحف على فارس وكانت معركة القادسية عام ١٦ هـ من أعنف المعارك.. تلتها معركة نهاوند عـام ١٩هـ.. حيث تم الاستيلاء على الاهواز.. ونتيجة لهذه المعارك دانت الامبراطوريتان.. وساد الإسلام.

تابع المسلمون التوسع بمعركة ذات الصوارى ٣١هـ... وانضمت بـرقة وجـزء من النوبة وأرمنية وطبرستان.. وتخطت الجيوش نهر جـيحون.. وسـقطت بلخ وكابوله وغزنه من بلاد الترك.. ومن البحر سقطت قبرص عام ٢٨هـ... وتجددت الموجه فى عهد عبد الملك بن مـروان وابـنه الوليد.. لاستكمال جناح الفتح إلى الاندلس والآخر إلى السند والهند وبلاد الصين.

ولكـن هـذه الموجه الأخرى لم يكن الإسلام ويعتمد على القوة كما فـى الجولـة الأولى... بل بدأ بخطوات جديدة وقوة ذاتية من التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة ليحقق توسعات فى أرض لم يكن للإسلام فيها دولة أو كيان سياسي.

وقـد سـقط الـنظام الأمـوى كـتطور طبيعـي لحركة المجتمع الإسـلامى.. بتحقـيق كسر القيود المفروضة والتى كانت تحول دون اشـتراك العناصر المختلفة فى الحكم.. على قدم المساواة وبلا تفرقة.. ووفـق مفهوم الإسلام ودون سيطرة العرب على شئون سائر المسلمين واستعلائهم عليهم.

ومع أن النظام العباسي قد تلافى أخطاء الحكم الأموى.. فإن الفرق المتعارضـة التى تصارعت حول سلطان الدولة.. قد برزت بشكل لم

يسبق له مثيل... مما جعلها تغرس كثيراً من المخاطر والتحديات أمام المجتمع الإسلامي منذ ذلك التاريخ.

غير أن هذا الانقسام السياسي وغلبة الترف وضعف القوى العسكرية.. أغرت القوى المتربصة بالإسلام... للانقضاض عليه فى غزو بداهيناً لأول وهلة من جهة الحدود البيزنطية وجبهة الاندلس... فى محاولة لحصر الإسلام فى أفريقيا وآسيا... حتى تمكنوا من الوصول إلى أهدافهم بالحروب الصليبية التى غزت المشرق.. وكان يجب على المجتمع الإسلامي أن يمر بمرحلة الانصهار.. بدخول الفكر والثقافة والأديان التى تتبناها الشعوب التى انضمت إلى الإسلام... وحينما لم يحدث هذا الانصهار.. انقسم عالم الإسلام إلى عدد من الدول المستقلة: كالدولة الأموية فى الاندلس.. والأغالبة فى تونس والادارسة بمراكش والطاهرية فى خرسان والطولونية فى مصر ثم الفاطمية... والحمدانية فى حلب والسلاجقة.

واستطاعت هذه الدول على تفرقها تجديد شباب الإسلام.. وعملت فى مواجهة مخاطر وتحديات الحضارة والسياسة الغربية المناهضة للمجتمع الإسلامى.. وقامت حركة التدوين والترجمة والتأليف.

وكان الدفاع عن الإسلام ومواجهة تحديات الأديان والعقائد والمذاهب القديمة... واستصفاء العصارات منها وفق مفهوم الإسلام.. وداخل إطاره القائم على التوحيد... ومن ثم مقاومة حركات الانقضاض من الخارج المتمثلة فى مواجهة البيزنطيين عام ٣٣٣هـ والحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس من عام ٤٨٩هـ... وسقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ.

وظلت مجالات التقدم والتجديد مفتوحة فى أرجاء المجتمع الإسلامي... للإضافة والنهوض.. وأصبحت عناصره عموماً قادرة على الوصول إلى الحكم والسياسة.. عدا الخلافة التى ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد عام ٦٥٦.

ولم يقف التحدى الغربي لمجتمع الإسلام عن التهديد باستعادة ما كان تحت يد الرومان منذ ظهور الإسلام.. ولذا كان لزاماً على الدولة الإسلامية مواجهة هذا التحدى.. بمحاولة استئصال الرومان عبر محاولات ضخمة لتطويق بينزنطة إبان حكم الخليفة عثمان... ثم استؤنف على يد معاوية بنظام الشواتي والصوائف ثم المحاولة الكبرى للاستيلاء على القسطنطينية بالأسطول الإسلامي.. وقيام الرشيد عام ١٨١هـ بإخضاع الروم وإجبارهم على دفع الجزية... واعقبه المعتصم بفتح عمورية عام ٢٢٣ هـ... ثم جاءت مقاومة سيف الدولة الحمداني عام ٢٩٣- ٣٨٠هـ بالغة الأثر فى تاريخ الإسلام...

إذ كان مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الإسلامي بالاشتراك مع البيزنطيين... لم يوقف من خطره ويؤخره إلا ظهور السلاجقة الذين صمدوا ببسالة.. وجددوا شباب الإسلام فى وجه الدولة البيزنطية... وحققوا انتصارات هامة كان أكبرها موقعة ملاذكرد التى أسر فيها الامبراطور رومانوس عام ٤٦٣هـ.

وكان لموقعة ملازكرد أعمق وقع فى أوروبا... فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الإسلامي ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع فى أوروبا.. هنالك تعالت صيحات التحذير.. وجرى إعداد مخطط الغزو الصليبي الذى امتد بجناحه إلى المشرق والمغرب.

واعتبر بحق أكبر تحد للمجتمع الإسلامي فى الوقت الحاضر.

وهكـــذا زاد خطـــر الموقف بين المشرق والمغرب فى طرفي عالم الإســـلام.. بمحـــاذاة الدولة الرومانية الشرقية المنهارة ومحاذاة فرنسا علـــى حدود الأندلس.. مما هيأ الفرصة لاندلاع الحروب الصليبية فى أواخـــر القـــرن الخـــامس واســـتمرت خلال القرنين السادس والسابع الهجـــرى.. والـــتى انتهت بهزيمة ساحقة فى المشرق للقوى الغربية.. وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الإسلام فى أراضي الغرب.

غـــير أن الحـــروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة شابة فى عالم الإسلام.. هى موجة الوحدة الإسلامية العثمانية.. التى توغلت فـــى أوروبـــا وســـيطرت على اقدارها خمسة قرون كاملة.. كرد فعل للحروب الصليبية.

ويـــبدو واضـــحاً مـــن الحـــروب الصليبية أنها كانت مليئة بروح التعصب والانتقام.. بينما كان التوسع فى عالم الغرب رحيما عادلاً...

ولـــم يمـــض كثـــير وقـــت.. حتى استولى المغول على بغداد... واســـقطوا الخلافـــة العباسية عام ٦٥٦هـــ.. وكانت مصر آنذاك القوة المعـــتمد علـــيها فى العالم الإسلامي.. فهزمت المغول شر هزيمة فى عيـــن جـــالوت عام ٦٥٩هـــ... وكانت قوة المماليك فى مصر تسيطر على مقدرات العالم الإسلامى وتحمل لواء المقاومة.. الممثلة فى سيف الديـــن قطـــز.. والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر.. وامتد هذا النفوذ واســـتمر حتى برزت المقاومة الإسلامية البدوية وهي قوة العثمانين.. ويمكـــن القـــول أن عصر الوحدة الإسلامية العثمانية قد أمضي القرن الثامـــن والتاسع والعاشر فى مكان القوة والصدارة والتوسع...والتوغل فـــى أوروبـــا حيـــث استطاعت رفع راية الإسلام.. وأن تسيطر على الـــبلقان والصـــرب وتصـــل فيـــنا ثلاث مرات... وحققت بذلك وحدة

إسلامية على أنقاض التفكك الذى واجهه عالم الإسلام بعد ضعف قوى المماليك.. التى استنفذت فى مقاومة الصليبيين والتتار.

وكـــان قيام هذه الوحدة مرحلة استقرار فى عالم الإسلام.. وسيادة على البحر الأبيض المتوسط.. واستطاعت أن تحيل البحر الأسود إلى بحـــيرة إسلامية.. وقد استبسلت القوى العثمانية واجتازت البوسفور... واحتلـــت القسطنطينية حاضرة وعاصمة الدولة البيزنطية الشرقية عام ٨٥٧هـــ.

فكـــان ذلـــك قمـــة الموقف بالنسبة للغرب.. إذ بدأت حركة إجلاء المســـلمين عن الأندلس.. ولم يمض أكثر من أربعين عاماً حتى طويت صفحة الإسلام فى الاندلس.. وبالرغم من تجمع قوى الغرب وتوحدها فـــى وجه الزحف العثماني.. فإن العثمانين.. ظلوا قادرين على كسب النصـــر.. ممـــا حـــدا بأوروبـــا لفتح جبهة أخرى عن طريق أسبانيا والبرتغال فى الكشف الجغرافي.. لتطويق المجتمع الإسلامي.

وبســـقوط الاندلس.. كانت فكرة الغزو الاسباني البرتغالي للمجتمع الإســـلامي قـــد خطت أولى خطواتها.. وذلك بوصول فاسكو دى جاما لـــرأس الـــرجاء الصـــالح عام ٩٠٤ هــ لإحكام الحصار الاقتصادى للمجـــتمع الإســـلامي.. وصـــرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبـــيض المتوسط وموانئه الإسلامية.. وقد استطاعت فارس أن تحتفظ بســـلطانها بعـــيداً عن العثمانيين وأن تقيم الدولة الصفوية... أما الهند الإسلامية فقد أقامت هى الأخرى دولة المغول الكبرى التى ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند.

وقـــد صـــاحب هـــذا الغـــزو فى عالم الإسلام حركة انتشار ذاتية للإســـلام خـــارج دائـــرة عالم الإسلام.. إذ عمل المسلمون على نشر

الإسـلام فى بلاد غرب أفريقيا وجزائر الهند الهولندية وجزر الفلبين.. وقد قام بعبء هذه الحركة عدد غير قليل من التجار والحجاج والعلماء علـى اختلاف الأجناس.. وكان للسنوسيين دور ضخم فى هذا العمل.. وهم الذين اخرجتهم زوايا الصحراء.

ولـم يـتوقف التوسع الذاتي عند أفريقيا وحدها.. بل امتد إلى بلاد التـتر فـى روسيا وفى الصين.. وهنا يبدو الإسلام ومجتمعه مجابهاً للـتحدى نفسـه.. ففى الوقت الذى كان الاستعمار الغربي الزاحف فى غـزو جديـد يطـوق مجتمع الإسلام... ويسيطر على مقدراته.. نجد الإسـلام يشـق طـريقه فى قلب إفريقية ويحقق انتصارات جديدة فى ارخبـيل الملايـو.. وشـمال شرق آسيا.. وهى ظاهرة طالما سجلها الإسـلام فـى طول تاريخه.. كرد فعل لكل المخاطر والتحديات التى يتعرض لها.

وبعد حركة التطويق التجاري والاقتصادى لمجتمع الإسلام... التى انطلقـت حوالـي عـام ١٦٠٠ م مـن الاندلس بواسطة شركة الهند الانجليزية والهولندية... بدأت حركة الاحتلال العسكري بحملة نابليون عـام ١٧٩٨م... وانتهت بالحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. حيث سـيطرت هولـندا على اندونيسيا وبريطانيا علي الهند وعدن ومصر والسـودان والعـراق وفلسـطين وفرنسـا على لبنان وسوريا وتونس والجزائر والمغرب.. وإيطاليا على ليبيا.. ونمت الحلقة بسقوط الخلافة العثمانية ١٩١٨م... وتمت حركة تطويق العالم الإسلامي.

وبانـتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله قد سقط فـى قبضـة الاستعمار الغربي.. عدا إيران وافغانستان التى ربطهما بـبعض المعـاهدات.. وبدأت مخاطر وتحديات من نوع جديد تجتاح

مجتمع الإسلام وعالمه... وهى مرحلة الاستعمار الفكرى والاقتصادى.. وقامت حركات موافقة لتيار الغرب كما حدث فى تركيا.. وتم زرع أكبر تحد لمجتمع الإسلام.. بزرع دولة يهودية صهيونية فى قلب العالم الإسلامي فى فلسطين عام ١٩٤٨م والتى لازالت تفرض سيطرتها.. وما أعقب ذلك من سقوط القدس عام ١٩٦٧م ثالث الحرمين الشريفين.. وهو التحدى الذى يشغل مجتمع الإسلام وعالمه بكامله حتى الوقت الحاضر.

هذه نظرة موجزة لتطور الإسلام.. رأيت من الضرورى الحديث عنها عزيزى القارئ.. لتعرف كيف تكون الإسلام؟ وكيف وصل الوضع الراهن الذى يعيشه ؟ ومتى بدأت الجذور التاريخية للمخاطر والتحديات التى تجابهه الآن...؟ وكيف تطورت من عوامل ضعف حتى أصبحت عقبات كبيرة فى سبيل تطور الإسلام ونهضته...

المخاطر والتحديات التى تواجه الإسلام:

تعددت تيارات الدعوات والاخطار الوافدة إلينا من خارج العالم الإسلامى: من إلحادية وعلمانية وقومية عنصرية ووطنية مجردة ووثنية دنيئة... وما تزال هذه الدعوات والاخطار تنمو.. وتجند من يستجيب لها... وتتشكل فى صور جديدة ولكنها فى مضمونها واحدة فى أهدافها.. وهى القضاء على وحدة الفكر الإسلامي.. والحيلولة دون التقاء ثقافته الإسلامية الواحدة.

ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية: هى تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان.. ومن ثم ظهور القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل بعد كل تحدى... وذلك حتى فى أشد فترات الضعف.

وعلـــى ذلك فإن روح الإسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة... فى ظل عقيدة التوحيد.. لا يتعارض مع سير الحضارة... بل هو يدفعها دفعاً إلـــى الغايـــات العلـــيا.. ذلـــك أن المبادئ الإسلامية الأساسية ستظل قابلة للتطبـــيق.. لأنهـــا مثل أعلى فى الأصالة والواقعية والسماحة ومطابقة تماماً للفطرة وجارية مع الطبيعة البشرية سلباً وإيجاباً.. كما قال الله تعالي:" **فطرة الله الـــتى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**". سورة الروم- ٣٠

ولا شك أن توقفها وتغلب مذاهب أخرى عليها فى هذا العصـر.. ليس إلا عرضـــاً مـــن أعـــراض ضـــعف المسلمين وعجزهم عن القيام على مـــنهجهم.. وهـــو عرض زائل يمر بكل الأمم... تأتي بعده اليقظة.. وفى المبادئ الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشرى كله.

ويجـــب ألا يكون لدينا أدني شك فى قدرة الإسلام على احتواء كل المجـــتمعات الموازيـــة.. فهو الذى يمكنه تقديم أصدق الحلول لمشاكل المجـــتمعات وقضاياها.. من خلال الإيمان بالله والأخلاق والمسؤولية الفـــردية.. ولا أصـــدق على ذلك من وجود أزمة الإنسان المعاصـر.. الـــتى تعـــترف بها المجتمعات الحديثة.. وتعجز عن حلها.. وليس لها حـــل إلا أســـلوب الإسلام وقيمه ومبادئه.. وهو أسلوب الفطرة المنزل من عند الله... ستشهد على ذلك بقول هاملتون جب:

" لـــيس الإسلام ديناً بالمعني المجرد الخالص.. بل هو مجـــتمع بـــالغ تمـــام الكمال.. يقوم على أساس ديني.. ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية لأن ظروفه فى أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين وقد أكد هذه النزعة الأصـــيلة.. مـــا تـــلا ذلك من صوغ القانون الإسلامى

والنظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام مــن العقائد والعبادات.. أنه أعظم من ذلك بكثير.. فهو مدينة كاملة وحضارة شاملة".

ومــن هــنا كانــت المخاطر والتحديات التى جوبه بها الإسلام فى الوقــت الحاضــر.. تخــتلف عن سابقتها.. وتهدف إلى القضاء على مقومــات العقــيدة والفكــر الإســلامى.. بوصــفها القوة التى تصدت للحــروب الصــليبية وللاستعمار الغربي... لذلك فإن معركة الإسلام هى: معركة العقيدة ومنها وإليها ترجع جميع المخاطر والتحديات.

تنبــثق مــنها وتعــود إلــيها مهمــا اختلفــت المســميات وتبدلت الشــعارات... وقــد تعددت المخاطر والتحديات عموماً.. ولكن أهمها وأبــرزها هى: تلك المخاطر والتحديات التى نشأت فى مجال العقيدة.. باعتبارها غاية الأهداف.

المخاطر والتحديات فى مجال العقيــدة:

اثبت التاريخ أن ديانات وعقائد مختلفة قد غابت عن الحياة تماماً.. وأصــحاب تلك العقائد لم يقرروا تدمير عقائدهم ودياناتهم... والإسلام كعقــيدة بمــا يواجــه من مخاطر وتحديات تقف أمامه.. وتحاول أن تــتطاول علــيه وهذا ليس بجديد.. فقد تعرضت العقائد عموماً من كل ملة إلى شر الاضطهاد.

فقــد واجهت المسيحية تحدياً وواجهت اليهودية تحدياً... ورغم ذلك نجد دولاً مسيحية ودولة لليهود في فلسطين.. والإسلام كنظام للحياة الاجتماعية.. لا خوف عليه من الاندثار أو الضياع أو الاختفاء.. فهذا قد تكفل رب العزة بقوله تعالي:" **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**". سورة الحجرات.

وطالمــا قــد أصــبح حفظ الذكر من الوظائف الإلهية.. فلا خوف عليه: "وكفي بالله وكيلا".

والتفســير يوضـــح ذلك ويستعرض هذا الحفظ الرباني.. فقد جاء علـــي المســلمين زمان ما نزال نعانيه.. ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم وعــن حمايـــة نظامهم.. وعن حماية أرضهم وعن حماية أعراضهم.. وحــتى عن حماية عقيدتهم وعقولهم ومداركهم.. وغير عليهم أعداؤهم المنتصرون كل معروف عندهم.. وأحلوا مكانه كل منكر فيهم.

كــل مــنكر مــن العقــائد والتصورات ومن القيم والموازين ومن الأخــلاق والعــادات ومــن الأنظمة والقوانين.. وزينوا لهم الانحلال والفســاد والتوقح والتعري من كل خصائص الإنسان وردوهم إلي حياة كحــياة الحيوان.. وأحياناً إلي حياة يشمئز منها الحيوان.. ووصفوا لهم ذلــك الشــر كلــه تحــت عناوين براقة من التقدم والتطور والعلمانية والعلمــية والانطلاق والتحرر.. وتحطيم الأغلال والثورية والتجديد.. إلـــي آخــر تلك الشعارات.. وأصبح المسلمين بالأسماء فقط.. مسلمين ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير.. وباتوا بلا قيمة وأصبحوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع.

ولكن أعداء هذا الدين.. بعد هذا كله.. لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها.. ولم يكونوا في هذا من الزاهدين.. فلقد كانوا أحــرص الناس علي بلوغ هذا الهدف لو كان يمكن البلوغ.. وعلي نيل هذه الأمنية لو كانت تنال.

ولقــد بــذل أعــداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود.. رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد منذ النبي موسي في الكيد لدين الله.. وقدروا علي أشياء كثيرة.. قدروا علي الدس في سنة رسول الله صلي

الله عليه وسلم.. وعلي تاريخ الأمة المسلمة.. وقدروا علي تزوير الأحداث ودس الأشخاص في داخل المجتمع المسلم.. وقدروا علي تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية.. علي مدار القرون وبخاصة في العصر الحديث.

ولكنهم لم يقدروا علي شيء واحد.. والظروف الظاهرية كلها مهيأة له.. لم يقدروا علي أحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ الذي لا حماية له من أهله.. المنتسبين إليه.. وشهدت هذه المعجزة الربانية بأنه حقاً "تنزيل من عزيز حكيم".

كل ما استطاعه أعداء الدين هو تأويل معاني بعض النصوص القرآنية.. ومحاولة أن يلوي هذه النصوص.. لتشهد لهم بما ترتب تقريره من الأحكام والاتجاهات ولكنها عجزت جميعاً وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطراباً.. أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا الكتاب المحفوظ.. وبقيت نصوصه كما أنزلها الله حجة باقية علي كل محرف وكل موءول.. وحجة باقية كذلك علي ربانية هذا الذكر المحفوظ.

وقد تعرض مجتمع الإسلام للحروب الصليبية التي فشلت في إخضاعه واحتوائه.. واتضح لأعداء الإسلام: أن سر قوة المسلمين وانتصارهم تكمن في عقيدتهم.. ولذا فقد وجهوا اهتمامهم نحو العقيدة.. لتحطيمها وتمزيقها من صدور المسلمين.. تبعاً لوصية القديس لويس التاسع.. الذي أوصي باستبدال الحروب العسكرية بحرب الكلمة.. ومن هنا بدأت الإرساليات والتبشير والاستشراق.. والغزو الفكري للإسلام وعالمه.. وهي وأن تسربلت كل هذه

المظاهـــر.. بمظاهـــر بـــراقة تحـــت ســـتار البحث العلمي والتطوير الحضـــاري.. وخدمـــة الإنســـان.. فهي في الواقع إنما تناصب العقيدة الإســـلامية العـــداء.. وتـــناوئها في كل ميدان.. وصدق الله العظيم إذ يقول: **"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، حتى تتبع ملتهم قل إن هـــدى الله هو الهدي ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله ولي ولا نصير"** سورة البقرة- ١٢٠.

وعقـــيدة الإسلام نري مصداقها في كل زمان ومكان.. وهذه العقيدة يتخذها اليهود والنصاري ميدانا للمعركة التي يشناها في كل وقت ضد المسلمين.

إنهـــا معـــركة العقـــيدة المشوبة بين المعسكر الإسلامي.. وهذين المعســـكرين.. الذين قد يتخاصمان فيما بينهما.. وقد تخاصم شيع الملة فيما بينها.. ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

إنهـــا معـــركة العقـــيدة في صميمها وحقيقتها.. ولكن المعسكرين العريقيـــن فـــي العـــداوة للإســـلام والمسلمين يلونانهما بألوان شتى.. ويرفعان عليها أعلاماً مختلفة في خبث ومكر وتورية.. أنهم قد جربوا حماســـة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة.. ومـــن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حـــرباً باسم العقيدة علي حقيقتها.. خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها.. إنما أعلنوها باسم الأرض.. الاقتصاد.. والسياسة والمراكز العسكرية.

وألقـــوا فـــي روع المخدوعيـــن الغافليـــن منا أن حكاية العقيدة قد صـــارت حكايـــة قديمة لا معني لها.. ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعـــركة باســـمها.. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين.. ذلك لكي يأمنوا جيشـــان العقـــيدة وحماستها.. بينما هم في قرارة نفوسهم.. الصهيونية

العالمية والصليبية العالمية.. جميعاً يخضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً.. فأدمتهم جميعاً.

وقد اتصلت هذه المخاطر والتحديات في مجالها الأكبر بالدين عامة والعقيدة خاصة.. فبدأت بالهجوم علي أصول الإسلام وقيمه وآثاره.. وجرت محاولات لزحزحته عن مجال الحكم.. ثم علي مجال القضاء.. كم عن مجال المجتمع.. لزحزحته عن الحياة العامة.. وخلق روح الاستخفاف بقيمه.. وتشجيع الدعوات المنحرفة.

المخاطر والتحديات المعاصرة:

القوى التي برزت كتحد عقائدي أمام الإسلام تتمثل في:

١- الصهيونية أو اليهودية.

٢- الصليبية- المسيحية المحرفة.

٣- الوثنيات الوضعية المعاصرة.

وكل من هذه العقائد الوضعية حاربت الإسلام في غير هوادة أو توان.. بكافة الوسائل والإمكانات المتاحة لها.. وأخذت علي عاتقها محاولة الوقوف في وجه العقيدة الإسلامية.. واستقطاب أكثر الذين يقعون في دائرة وجودها باعتناق كل منها بدلاً من العقيدة الإسلامية.

ذلك أن الغرب كان يعلم أن المسلمين لن يهزموا.. ولن يستوعبوا.. ولن يوضعوا في قبضة الغرب.. إلا إذا سقطت تلك المنارات من مفاهيم العقيدة.. هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام.. وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة علي دحر

كل من يتصدى له.. إذن فلابد أن تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطية.

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوى.. وتفريغها من مضامين القوة والإيمان واجتهاد.. حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير.. وحتى يصبحوا قطعياً من السائمة التي يمكن أن تطوي وتقهر.

الصهيونية كتحد عقائدي:

تعتقد الصهيونية أو اليهودية زوراً وإفكا إنها الشعب المصطفي المختار.. وأن الله وعدها بالتمكين في الأرض والتسلط علي العباد والرقاب.. وامتلاك مواطن الثروة ومنابع الخيرات.. وهي من أجل هذا المعتقد الباطل ترسم خطة وتحدد سياسة.. وتضع منهجاً.. تلزم البشرية كافة باتباعه.. والسير وفقه.. وتشرد شعوباً من أوطانها.. وتحتكر أقوات الملايين من الناس.. وتجردهم من حقوقهم الطبيعية.. كل هذا تفعله الصهيونية بخبث ودهاء.. بل قل إنها تفعل أكثر من ذلك.. لتصل إلي أطماعها الاقتصادية.. وتحقق أفكارها التوسيعية.

والصهيونية حركة سياسية وقومية ترمي إلي إقامة دولة يهودية.. تزعمها- تيودرهردزل- حين دعا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي إلي عقد مؤتمر صهيوني دولي في مدينة بال بسويسرا.. وقرر المؤتمر تكوين منظمات صهيونية في البلاد التي يوجد عدد كاف من اليهود.. وترتكز هذه الحركة في جوهرها علي عقيدة دينية.. أخرجها الوهم المتطرف.. والخيال الخرافي عن أصلها السماوي وحقيقتها الأولى.. وأصبحت فكرة مشوشة.. مشوهة.. وضعية غير

إلهية.. ومع هذا فإن أهلها يعتبرونها عقيدة دينية محضة.. يؤمنون بها من عير تدبر أو وعي أو إدراك.

ولــو درسنا اليهود كشعب له صفاته وخصائصه المميزة.. لوجدناه شــعباً شــريراً.. آثماً.. خائنا.. مرائيا.. خبيث الطوية.. ماجن السلوك والســيرة.. جــباناً.. متعصــباً.. مغــروراً.. متكالــباً علي المكاسب والمغــانم.. شــديد الســلب والنهــب.. ينقض الميثاق والعهد من أجل عرض من أعراض الدنيا.. كنفوذ أو جاه أو سلطان.

وهــم يعــتقدون أنهم يعصون الله.. ويفعلون ما يغضبه ويسخطه.. لذلــك نجدهم يتخذون بعض أيامهم للبكاء والعويل والصياح والنياحة.. فــإذا ما ظنوا أن الله قد تاب عليهم.. عادوا إلي أبشع ما كانوا عليه من شرور وآثام.. وضلال وانحلال وانحراف.

جــاء فــي أحد كتبهم: "قد خطئنا إلي الرب إلهنا.. ولم يرتد سخط الــرب وغضبه عنا.. لنا خزي الوجوه.. لرجال يهودا وسكان أورشليم ولملوكــنا ورؤسائنا وكهنتنا وآبائنا.. لأننا خطئنا أمام الرب وعصيناه مــن يــوم أخر الرب آباءنا من أرض مصر إلي هذا اليوم.. وما زلنا نعصــي الرب إلهنا.. ونعرض عن استماع صوته.. فلحق بنا الشرور واللعــنة.. لــم نسمع لصوت الرب إلهنا ولا لجميع كلام الأنبياء الذين أرسلهم إلينا ومضينا كل واحد علي إصرار قلبه الشرير.. عابدين آلهة أخرى.. صانعين الشر أمام عيني الرب إلهنا".

والــيهود ما يتصفون به من صفات منحطة ذميمة حقيرة.. وبالرغم مــن لؤم طباعهم.. فإنهم ينظرون إلي الشعوب الأخرى نظرة ازدراء واحــتقار.. وتســيطر عليهم نزعة شريرة حاقدة تدفعهم لقتل الآخرين والتنكيل بالأبرياء.. وإبادة الجماعات وإحراق الديار.. وإشعال النيران

فـي المـدن والحقـول.. لا يمنعهم من ذلك دين أو ضمير.. وتأخذهم رحمـة ولا رأفـة.. وقـد يظن أن رواء هذا التقتيل شجاعة وإقداماً.. ولكـن لا تعرف الشجاعة إلي نفوس اليهود سبيلاً.. وإنما هم جبناء.. وإنـه لا يكـون متوحشاً شرساً إلا الجبان.. أما الشجاع فلا يكون إلا كـريما حلـيماً.. رحيماً.. شهماً.. يأنف من مهاجمة الضعيف.. ويعفو عن القوى إذا وقع في قبضته.

يبني اليهود عقيدتهم وشرعيتهم علي ثلاث كتب:

١- التوراة.

٢- التلمود.

٣- البروتوكولات

التوراة:

جـاء فـي دائرة المعارف البريطانية: التوراة ليست كتاباً واحداً.. ولكـنها تتكون من مجموعة من الكتب.. استغرق تأليفها قروناً عديدة.. وإنهـا لـم تكتب بلغة واحدة ولكنها كتبت بالعبرية ثم استكملت باللغة الآرامـية.. وضـمت آخـر كتبها باللغة الإغريقية.. وقد اشترك في كتابتها رجال لهم قدر من العلم وآخرون حظهم من المعرفة ضئيل.

وهـناك من يري أن التوراة الأولى كتبت باللغة المصرية القديمة.. لأن موسـى عليه السلام كان يتحدث الهيروغليفية والتوراة تبين تعاليم الديانة اليهودية.

وقـد اعتـبر بعض اليهود أن اليهودية ديانة وضعية.. شأنها شأن جمـيع الديانات التي انتشرت في المنطقة.. خلال العهد الوثني.. وعلي رأس أصـحاب هـذا الـرأي سـيجموند فرويد.. الذي ذكر في كتابه

"موســي والوحدانية" بأن موسى كان زميلاً لإخناتون في المعهد العالي للدراســات اللاهوتــية فــي مدينة هليوبوليس. وقد انتهت أبحاث ذلك المعهد إلي وجود خالق للكون هو الله.. وبأن هناك بعثا وجزاء.

وهــناك من يرد سبب تحريف التوراة إلي أنها جمعت خلال فترات طويلة تمتد إلي ثمانية قرون.

وقــد أصــبح معــروفاً لدى كافة العقلاء.. وهو ما نجزم به نحن المســلمين ذلك لما ملئت به التوراة من تناقضات.. وترهات وخرافات لا تلــيق بالوحــي الكريم ولا برسالة السماء ورسل الله.. وقد صورت الــتوراة الله ســبحانه عمــا يقولون. إلهاً خاصاً ببني إسرائيل لا يحب سواهم.. فالله في التوراة- إله خاص- لا يحب إلا بني إسرائيل.. وأما سائر الناس فأغنام.. وأقل من أن يأبه بهم الرب.. والأنبياء في التوراة يفعلــون الفاحشة التي يتنزه عنها الإنسان العاقل سليم الفطرة.. فضلا عن صالح المؤمنين.. فضلا عن النبي المعصوم.

وتدعي التوراة المحرفة أن السحر قادر علي تغيير صورة الإنسان إلــي حمار مثلاً والعكس.. فهل يمكن أن يكون هذا كتاباً إلهياً مقدساً.. جاء لتعريف البشرية بالله.. ولهدايتهم إلي الطريق المستقيم..؟

هــل يمكــن أن يكــن كــتاباً مقدســاً من يقول: "يستحق القتل كل الجوييم- غير اليهودي- حتى ذوو الفضل منهم."

ويقول: "من قتل غير اليهودي.. فقد قدم قرباناً للرب".

التوراة والجنس:

يوجــد أناشــيد فــي التوراة تمزج بين الجنس والدين تأثراً بالعقائد الوثنية التي كانت منتشرة حينذاك في المنطقة..

جــاء فــي الإصحاح الثالث: "في الليل.. علي الفراش.. طلبت من تحبه نفسي.. طلبته فما وجدته.."

إني أقوم وأطوف في المدينة.. في الأسواق.. في الشوارع.. اطلب من تحبه نفسي.. طلبته فما وجدته..

وجدنـــي الحرس الطائف في المدينة.. فقلت أرأيتم من تحبه نفسي؟ فمــا جاورتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته.. وذهبت به إلي الفراش.

وعلـــي هذا فقد ملئت التوراة بقصص الجنس والأخلاقيات المنحطة البذيـــئة.. حتى أنه يبدو لمن يقرأ أية نسخة للتوراة.. أن الذين أضافوا إلـــيها مــا أضـــافوا من زيادات.. ما أنزل الله بها من سلطان.. كانوا متأثريـــن إلي حد كبير بالجنس.. وبالأساطير اليونانية التي تدور حول تصـــور العلاقـــة بين المرأة والرجل علي أنها غرائز ونزعات جنسية فقط.

تعارض التوراة مع المنطق:

ومع الحقائق العلمية الثابتة.. من ذلك مثلاً ما جاء في سفر التكوين عن نشأة اللغات:

"وكانـــت الأرض كلهـــا لســـاناً واحـــداً ولغة واحدة.. وحدث في ارتحـــالهم شرقاً وجدوا بقعة في الأرض- شنعار- وسكنوا فيها.. وقال بعضـــهم لـــبعض هلـــم نصـــنع لبنا ونشويه شياً فكان لهم اللبن مكان الحجـــر.. وكـــان لهم الجمر مكان الطين وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبـــرجاً رأســـه فـــي السماء ونصنع لأنفسنا أسماً لئلا نتبدد علي وجه الأرض فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنوهما..

وقـــال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم.. وهذا ابتداؤهم بـــالعمل.. والآن لا يمتـــنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه.. هلم ننزل ونبلـــبل هـــناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض فبددهم الرب مـــن هـــناك علـــي وجه الأرض.. فكفوا عن بنيان المدينة لذلك دعي اســـمها بابل.. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هنا بددهم الرب علي وجه الأرض".

فهـــذا التفســـير لنشـــأة اللغـــات لا يتفق مع الحقائق العلمية لتطور اللغات.. وأخذها وضعها الثابت لها.

كيف تم التحريف:

إنـــنا نؤمـــن أن الله تبارك وتعالي قد خاطب موسى عليه السلام.. وأنـــزل عليه التوراة فيها هدى ونور ليحكم أصحابها بما ورد فيها من شريعة.. ولكننا ننكر أن تكون التوراة التي في أيدي اليهود اليوم.. هي الـــتوراة الموحـــي بهـــا مـــن عند الله تعالي.. وذلك لأسباب جوهرية أصلية.. منها ما رأينا من مقالات رخيصة تملء الإنسان خجلاً وحياء هـــذا من جهة الموضوع.. أما من جهة الأسلوب والصياغة.. فإن كل من تطلع علي التوراة.. ويقرأ ما فيها يدرك تماماً اختلافات شديدة في الأســـلوب والتعابير.. فضلاً عن تناقض الأفكار.. وتضارب نصوصها بعضـــها بعضاً.. وأن هذا الاختلاف والتناقض ما كان ينبغي أن يصدر عـــن إنسان حصيف.. متزن.. فضلاً عن نبي مصطفي.. فكيف ينسب إلي الله: تعالي الله عما يقول الكافرون علواً كبيرا.

السبب في هذا التغيير والتبديل:

يذكـــر علماء تاريخ الأديان أن التوراة قد كتبت بلغات متعددة منها: الهيروغليفـــية- الفرعونـــية القديمــــة- ومـــنها العـــبرية والآرامـــية والإغريقـــية.. وإن كـــتاباً يكتـــب بهذه اللغات المختلفة.. يم يترجم في وقـــت لم تكن الترجمة ميسرة.. ولا التعليم واسع النطاق.. منتشراً بين الـــناس.. ولا الطـــباعة معـــروفة.. ولا المخلصون القائمون به وعليه موجوديـــن.. ولا العهدين موسي عليه السلام.. وكتابة التوراة قريباً.. بـــل إنه لم يكتب إلا بعد مرور ستمائة علي وفاة موسي عليه السلام.. كـــل هـــذه العوامل كفيلة.. بأن تؤكد حصول التحريف والتحصيف بل التبديل والتغيير.

ويذكـــر علمـــاء تـــاريخ الأديان أن ملك بابل بختنصر قد حاصر القـــدس.. وخـــربها وأحـــرق هـــيكل ســـليمان بكل ما فيه حتى ألواح الـــتوراة.. وعلـــي هـــذا فلم يبق لليهود توراة يتمسكون بها ويرجعون إليها.. ولم يجدوا جداً واحداً حافظاً للتوراة.. يرجعون إليه ليذكرهم بما ورد فـــي كـــتابهم الذي أحرق.. واختفت بإحراقه كل نسخة.. وكل أثر لما روي عن النبي موسي عليه السلام.

وقـــد سبى اليهود وليس في أيديهم مرجع واحد يحفظ عليهم دينهم.. فممـــا لا شك فيه أن يتأثروا بالديانات الوثنية المنتشرة آنذاك.. كالديانة الفارســـية والبابلـــية.. فشـــربوا من عقيدتها وأخلاقها.. وبعد حين من الدهـــر خطـــر علـــي بـــالهم أن يكتـــبوا كتاباً يحفظ عليهم عنصرهم الـــيهودي.. فكتبوا التلمود.. وقد أملي عليهم هذا الكتاب حقدهم الدفين علـــي البشـــرية.. وحرصهم في أن يعيدوا تجمعهم وأن يتخلصوا مما لاقـــوا مـــن ظلـــم حكـــام بابل.. ثم جاء الكاهن عزرا.. ووضع كتاب

التوراة.. معتمد علي التلمود أولاً.. وعلي بقايا أسفار من التوراة عثروا عليها مع كهنة في بلاد بابل.

التلمود:

التلمود كلمة عبرية.. قيل أن معناها التعليم.. وقد انطلقت فكرة تدوين التلمود من رأس أحد كهان اليهود بعد السبى البابلي عام ٥٣٩ قبل الميلاد.. ثم تأسست لجنة عدد رجالها ١٢٠ رجلاً لمتابعة ذلك الكاهن عزرا في كتابة التلمود.. وقد عرفت هذه اللجنة بالثنائم.. لأنها تجعل كتابهم المقدس في كتابين اثنين التوراة والتلمود.. واستمرت الإضافات والزيادات والأوهام تزيد في هذا المؤلف المخترع حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

ولليهود اعتقاد غريب في التلمود.. وهو أن هذا الكتاب مع معرفتهم الأكيدة بأنه اختلاق وافتراء.. وقد وجد قبل الخليفة ولولاه لزال الكون بأسره.. وقد أثر التلمود تأثيراً دينياً وثقافياً وسياسياً علي اليهود.. ويظهر التأثير الديني تحول عقيدتهم من التوحيد إلي الشرك الممزوج بالأساطير والخرافات.. فاليهود يخشون إلي خامات أكثر مما يخشون الله.. وأن الله في معتقدهم الفاسد قد أخطأ.. واعتذر إلي خامات الذين كتبوا التلمود.. وأن الأحبار أفضل من الأنبياء.

من وصايا التلمود:

١- مخالفة إلي خامات فهي مخافة الله.

٢- أقوال إلي خامات أفضل من أقوال الأنبياء.

٣- لا يمكن نقض تعليمات إلي خامات ولو بأمر من الله.

البروتوكولات:

يذكر أنه في عام ١٩٣٥م نشر تيودور فيشر صاحب المكتبة الألمانية في جنيف كتاباً يحتوي علي بروتوكولات حكماء صهيون.. فلجأ اليهود إلي المحكمة لوقف نشر ذلك الكتاب.. وكان الحكم الابتدائي لصالح اليهود.. ولكن فيشر.. استأنف الحكم واهتم بالقضية.. واستطاع أن يقدم الوثائق الرسمية التي تثبت صحة البروتوكولات.. ومن بينها وثيقة رسمية استخرجت من المتحف البريطاني.. تؤكد أن البروتوكولات قد أودعت في محفوظاتها منذ عام ١٩٠٦م.. كما ثبت لقضاة محكمة برن العليا أن اليهود استعانوا بشهود تحقق كذبهم وتزويرهم.. كما ثبت أن القاضي الذي الحكم الابتدائي كان عضواً في المحفل الماسوني.

البروتوكول الأول: جاء فيه:

السياسة نقيض الأخلاق ولا لقاء بينهما.. والحاكم الذي يدين بالأخلاق في حكمه ليس بالسياسي الحاذق.. وعرشه ليس بالعرش الثابت.. ويجب علي من يريد أن يتسلم الحكم: أن يتزود بالمكر والرياء.. أما الفضائل الإنسانية كالصدق والاستقامة فهي في عرف السياسة رذائل هي أقدر علي هدم العرش من أشد الأعداء ضراوة وفتكاً.

البرتوكول الثاني: جاء فيه:

نجاح مخططنا وقف علي ألا ينجم عن الحروب أي تغيير في الحدود أو التوسع في الأرض.. ويجب الاحتفاظ بهذا المبدأ ما وسعنا ذلك.. حتى يتيسر نقل الحروب من ميدانها القتالي إلي منافسة اقتصادية.. وعندئذ تضطر الأمم إلي الاعتراف بقوة سلطاننا وتفوقنا في هذا المضمار.

البرتوكول الثالث: جاء فيه:

إنـــنا نحكـــم البشر باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضـــيق والفقر.. وهذه المشاعر هي رسائلنا التي نكتسح بها بعيداً كل من يصدوننا عن سبيلنا.

حيـــن استحوذ علي السلطة تمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية باعتـــبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يجعل الشعب حيوانات متعطشة للدماء.. ويجب الإفساد في ميادين الثقافات العامة والفنون والتمثيل.

البروتوكول الرابع: جاء فيه:

يجـــب علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود.. وأن نضع مكانها عمليات حسابية ورغبات مادية.

البروتوكول الخامس: جاء فيه:

إننا نقرأ في قاموس الأنبياء أن الله اختارنا لحكم العالم.. وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل.

البروتوكول السادس: جاء فيه:

ســـنعمل علي تقويض الإنتاج من أساسه عن طريق نشر الفوضى بين العمال.. وتحريضهم علي شرب الخمر.. كما أنه لابد من استخدام جمـــيع الوســـائل الممكـــنة لطـــرد الأذكياء من غير اليهود من وجه البسيطة.

البروتوكول السابع: جاء فيه:

نحـــن الـــذي هـــيأنا دارون وماركس ونيتشه ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود.

البروتوكول التاسع: جاء فيه:

وقد تمكنا من تضليل الشباب من غير اليهود.. وإفسادهم خلقياً حملهم علي البلادة عن طريق تعليمهم المبادئ التي نعتبرها نحن باطلة علي الرغم من إيحائنا بها.

البروتوكول العاشر: جاء فيه:

علينا أن ننهك كل إنسان بالمنازعات والحزازات والحروب.. والمجاعة وانتشار الأوبئة.. والعوز والفاقة.. حتى يجد غير اليهود أن لا مناص لهم من مناشدتها العون المادي والسلطان.

البروتوكول الحادي عشر: جاء فيه:

غير اليهود كقطيع من الأغنام.. أما نحن فإننا ذئاب.. وهل تعلمون ما تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها.. إنها تغمض عينيها.. وسندفعهم إلي ذلك.

البروتوكول الثاني عشر: جاء فيه:

يجب الإفساد في ميادين العلاقات والروابط الاجتماعية.

البروتوكول الثالث عشر: جاء فيه:

عندما نصبح أسياد الأرض.. لا نسمح بقيام دين غير ديننا.. ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة كل العقائد.

البروتوكول الرابع عشر: جاء فيه:

لقد عيننا عناية خاصة بالعيب في رجال الدين غير اليهود.. والحط من قدرهم في نظر الشعب.

الجمعيات اليهودية:

لقد أنشأ اليهود عدداً من الجمعيات للعمل علي تنفيذ خططهم العدوانية والاستخرابية.. وكان من هذه الجمعيات ما هو سري للغاية.. لم يعرف عنه إلا بتصريحات أدلي بها بعض المسيحيين الذين غرر بهم وزجوا في تلك الجمعيات.. ومنها ما هو علني يعمل بصورة مكشوفة..

ومن أكبر الجمعيات لديهم: الماسونية:

وهي في ظاهرها جمعية خيرية تعمل لتوفير أسباب السعادة الاجتماعية للناس.. ولكن حقيقتها تتنافي مع ظاهرها.. إذ أنها تعمل علي شراء البسطاء من المسلمين والمسيحيين.. أصحاب الأهداف الإنسانية والنبيلة.. وتغريهم بتحقيق تلك الأهداف إذا كانوا أعضاء فاعلين في الجمعية.. ومن ثم تهيء عقولهم لتقبل المبادئ التلمودية.. وبصورة خاصة نظرية الشعب المختار.. تمهيداً لتحقيق السيادة الصهيونية علي فلسطين ثم امتدادها من الفرات إلي النيل.. بمساعدة رجالهم الماسونين الغربيين ثم أنها الماسونية الغربية التي تسعي إلي الاستيلاء علي السلطة العالمية تحقيقاً للإصحاح الملفق الذي يقول: كل أرض وطأتها بطون أقدامكم- فهي لكم.

وتقول وثائق الماسونية:

١- إن عقائدنا ورموزنا وأشارتنا ودرجاتنا هي مصرية فرعونية.. ولكنها انتقلت إلينا بواسطة بني إسرائيل.

٢- إن الماسونية مذهب سري لم تدون معالمها جميعاً.. وأكثر أمورها تجري علي نهج سفوي.

٣- إن الثورة الفرنسية ما هي إلا وليدة الماسونية.

٤- يجب ألا تقتصر الماسونية علي شعب دون غيره.. ولتحقيق الماسونية العالمية.. يجب سحق عدونا الأزلي الذي هو: الدين مع إزالة رجاله.

٥- لابد أن نكافح بجهد أكبر لإدامة القوانين والنظم اللادينية لأن السلطة المطلقة التي صنعها رجال الدين علي وجه المعمورة قد قاربت النهاية.. لا بل آلت إلي الزوال.. وأن غايتنا قبل كل شيء.. هي إبادة الأديان كلها.

وللماسونية شعار براق قد يغري كثيراً من السذج الذين لا يحسبون للأمور حسابها.. ولا يضعونها بميزان العقيدة والدين.. وهو: الحرية والإخاء والمساواة.. وهو الشعار الذي اتخذته الثورة الفرنسية.. وقد ثبت فيما بعد أنها كانت ثورة يهودية مختفية وراء قناع فرنسي.. استفادت منها اليهودية العالمية.. حيث نال يهود أوروبا حرياتهم وحقوقهم.. بينما كانت هذه الثورة محنة ونكبة للملكية الفرنسية وللكنيسة المسيحية.

والأعضاء الذين يعملون في هذه الجمعية علي مراتب أربعة:

١- المبتدئ.

٢- الشغال.

٣- الأستاذ.

٤- الرفيق.

٥- العظيم.

ومن الرفاق المشهورين: الرفيق كارل ماركس.. والفريق تروتسكي.. والرفيق تشرشل.. والرفيق جونسون.. والرفيق نيكسون.

ويندرج الماسوني في هذه الدرجات الواحدة تلو الأخرى.. وهو بذلك يبتعد عن الروح الإسلامية إن كان مسلما.. وعن الروح المسيحية إن كان مسيحياً.. ويقترب من الروح اليهودية والسياسة اليهودية.. حتى يتحول إلي عميل صهيوني.. يكون نواة للفرقة بينه وبين أهل دينه.. ودعامة الأثارة لإثارة الفتن والاضطراب في الدولة التي تنتمي إليها.. وبهذا يتحلي الماسوني عن جنسيته وعن دينه لأنه خضع لأمر أستاذته اليهود.

والماسونية ليست جمعية مستحدثة وإنما هي قديمة جداً.. تمتد جذورها إلي أعماق التاريخ .. وينشئها اليهود أينما حلوا في أقطار الأرض.. لتكون مركزاً لاجتماعاتهم التي يناقشون فيها ويتبادلون الرأي والمعلومات.. وتعزي الحركات الثورية العاتية والفتن الصخرية التي اندلعت في شتى الدول في العصر الحديث إلي النشاط الماسوني.. كالثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر.. وكتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوزيعها علي الدول الاستعمارية.. وكالثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م.. وإثارة الفتن في مصر والعراق ولبنان في وقتنا الحالي.

فالماسونية كانت وما زالت جمعية سرية للفساد وللإفساد وللتجسس والتآمر والخيانة الوطنية والارتداد الديني.. يحمي هذا كله طقوس وحشية قاسية تعاقب من يخرج عنها أشد العذاب.

المبادئ اليهودية وموقف المسلمين منها:

نـــري نحن المسلمين أن هذه المبادئ التي يتمسك بها اليهود والتي يخططـــون مـــن أجلها بأساليب مفزعة شريرة لا تتناسب مع من يؤمن بأنـــه صـــاحب رســـالة إلهية يحملها إلي البشر.. ليهدي بها الضال.. ويؤلـــف بهـــا بين القلوب.. وقد قال الله تعالي مبينا الحكمة من إرسال الرســـول صـــلي الله علـــيه وسلم: **"وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين"**. سورة البقرة- ٨٩.

ولئـــن كان خطر اليهود يمتد ليشمل العالم بأسره.. فإن خطره علي الإســـلام وعلي الأمة الإسلامية جسيم وعظيم.. وقد تجلي هذا الخطر مـــنذ بزوغ فجر الإسلام.. ومن اليوم الأول الذي سطع فيه نوره.. قال الله تعالـــي: **"ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علي الكافرين"**. سورة البقرة- ٨٩.

وقـــد أثاروا الفتن في عهد الخلافة الراشدة.. وفي التاريخ الإسلامي المجـــيد.. وظهـــر اســـم عبد الله بن سبأ ليمثل الشخصية اليهودية بكل خبـــثها وبكـــل لؤمهـــا وكيدها.. فأثار الناس بدسائسه وحرضهم ضد الخلـــيفة ذي النوريـــن- عـــثمان- ولـــم يكتف بأن ذهب ضحية مكره ومؤامـــرته الخلـــيفة الصالح.. وإنما امتدت فتنته لتحيط بالخليفة الرابع علـــي رضـــي الله عنه وأرضاه.. ومن ثم وجد الفرصة ملائمة لتشويه الفكر الإسلامي فأدخل بدعته وضلالته- إن لكل نبي وصياً.. وأن علياً وصي لمحمد.. وأن محمداً خاتم الأنبياء وعلياً خاتم الأوصياء.

وبـــث فكـــرة حلـــول الله بالأشخاص "ودسها بين الجاهلين من أهل الكوفة.

ولما قتل الإمام علي رضي الله عنه.. ظل هذا اليهودي يبث بدعته وضـــلالته: بـــأن علياً لم يقتل وإنما رفع إلي السماء.. كما رفع عيسي عليه السلام.. وأنه سينزل إلي الدنيا وينتقم من أعدائه.. وأن الذي قتل هـــو شـــيطان تمثل في صورة علي.. وصار يوسوس لهم هو وأعوانه من السبئية:

أن علـــياً يجـــري فـــي الســـحاب.. وأن الرعد صوته وأن البرق ســـوطه.. وحتى صار السبأي إذا سمع صوت الرعد قال: عليك السلام يـــا أمير المؤمنين.. وتابع السبئيون ضلالهم فاعتقدوا بتناسخ الإله في الأئمة من آل البيت بعد علي.

وكـــان مقتل علي رضي الله عنه أثراً من آثار الدسائس اليهودية.. وكـــان تمـــرد الخواج بسببه عبد الله بن سبأ.. وهكذا.. يتلاعب أعداء الله.. شر الدواب بالفكر الإسلامي.. وبالحوادث التي سببت انشقاقا في صـــفوف المسلمين.. وذهب ضحيتها آلاف مؤلفة من المؤمنين.. ومن السذج الذين استجابوا لمؤامرة ومكائد عبد الله بن سبأ.

وفـــي العصر الحديث.. برزت القوى اليهودية الصهيونية.. طامعة فـــي الســـيطرة علـــي الوطن العربي ثم العالم الإسلامي.. بل يريدون السيطرة علي الاقتصاد وعلي وسائل الإعلام من تلفاز وصحافة وذلك لتنفيذ البروتوكولات التي رسمت أحلامهم الضلالة المضلة.

لذا فعلينا نحن المسلمين أن نترصد حركاتهم.. ونتربص لهم ونفسد علـــيهم مخططاتهم.. وأن نكون علي بصيرة بكل ما يفعلونه.. كيلا نقع في حبائل كيدهم ومكرهم.

يقـــول تعالـــي: "**ويمكـــرون ويمكر الله والله خير الماكرين**" سورة الأنفال- ٣٠.

ويجـــب علينا عزيزي القارئ أن ندرك أن ما ينشره اليهود ويقبله بعض الناس ويذيعونه: من أن هناك تفرقة بين الصهيونية واليهودية.. إنمـــا هـــو أمـــر باطل يقصد منه تضليل الرأي العام.. وستر أعمالهم العدوانـــية الشـــريرة بهذا الرداء الخادع.. لذلك فإن التضليل والخداع والمكر والمكيدة صفات متأصلة في نفوسهم وطباعهم.

وليســـت الصـــهيونية إلا طليعة البعث اليهودي الذي يقود جماهير الـــيهود المنتشـــرين فـــي الأرض إلـــي السيطرة علي العالم.. سيطرة فعلـــية.. وإن هـــذه الســـيطرة ســـتنطلق مـــن ديار فلسطين ومن بيت المقـــدس.. بل إن كلمة صهيون نفسها تعني جبلا من جبال فلسطين.. أو مدينة داود- التي تطل علي أحد تلال القدس.. وأن فكرة العودة إلي فلسطين جزء لا يتجزأ من العقيدة اليهودية.

الفلسفة واليهود المتصهينين:

وقـــد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة وإفســـاد الفطـــرة.. إذ حاولـــت أن تصـــف الإنسان بأنه حيوان وابن المصادفة.. وأنه لا غاية لوجوده.. ولا هدفاً.. ورتبت علي ذلك أنه لا معنـــي للحياة الإنسانية ولا للمثل العليا.. وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعـــام والجـــنس.. وبذلـــك طغـــي طـــابع المادية علي علوم النفس والأخـــلاق والتربـــية والفـــن.. وهـــاجم مـــاركس وفرويد ودوركايم وداروين- وهم جميعاً من اليهود- الدين.

فقال ماركس: أن الدين أفيون الشعوب ومجموعة من الأساطير.

وقال فرويد: إن الدين ناشئ من الكبت.

وقال دوركايم: إن الدين ليس فطرة.

وقال داروين: إن الدين لا يفهم في سياق العلم.

.. وأخيرا..

فـإن معـابد هـذه الديانـة هـي المصانع العظيمة ودور السينما والمختـبرات الكيميائـية.. وباحـث الـرقص.. وكهنة هذه الديانة هم الصـيارفة والمهندسـين وكواكـب السينما.. ويتسع هذا المفهوم حتى يصـل إلي أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر.. محسوس في الرفاهـية المادية.. وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادي.. وهكذا نخلص إلي خطورة الصهيونية كتحد عقائدي.

الصليبية- المسيحية المحرفة- كتحد عقائدي:

أن نصـيحة لويس التاسع- عقب انتهاء الحروب الصليبية وفشلها- تدعـو إلـي الاتجـاه لحرب العقيدة.. للسيطرة علي الإسلام وعالمه.. عقب اتضاح النتيجة الحتمية لهم: بأن الإسلام لن يهزم ولن يوضع في قبضـة الغـرب الصـليبي.. إلا إذا سـقطت مفاهيم الجهاد والمقاومة والحـرية والتميـيز بالتوحيد والقرآن.. وطالما كانت هذه العقيدة هي القـوة الضـخمة التي كونت عالم الإسلام.. وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة علي دحر كل ما يتصدى له..

إذن فلابـد أن تبدأ المعركة من نقطة تزييف العقيدة.. وتفريغها من مضـامين القوة والإيمان والجهاد والتوحيد.. وهكذا كانت وصية لويس التاسـع بعـد هزيمـته في المنصورة بمصر.. تكشف عن التحول من حـرب السـيف إلـي حـرب الكلمة.. وهو ما يمثل موجة المخاطر والتحديات الفكرية أمام المجتمع الإسلامي.

وقد تنظم فيما بعد معركة قوامها التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب.

وقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب.. لأنه حارب من أجل إخضاع المسلمين.. ·زم في مصر وقتل في تونس.. وكان بذلك أول من أشار إلي تجنيد المبشرين في معركة الكلمة.. لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره كعقيدة.. ثم القضاء عليه معنوياً.. واعتبار أولئك المبشرين في تلك المعارك جنودا للغرب الصليبي.

واختير شرق البحر الأبيض المتوسط بين القاهرة وبيروت والقسطنطينية.. وهذا ما سجله أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسساته هذه الظاهرة.. تسجيلاً صريحا.. ويقول- نبيه أمين فارس- في تصوير خطة لويس التاسع في عبارات واضحة.. جاء فيها.

بينما كان الشرق الأدني مطمعا لأفكار بناة الإمبراطوريات كان أيضا محط أنظار جماعة أخرى من الناس.. تنشد أن تنجز عن طريق الكلمة ما عجز أجدادهما الصليبيين عن تحقيقه عن طريق السيف.. وبعبارة أخرى تنشد احتلال مهد المسيحية.. وإخضاع العالم كله للمسيح- إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها.. وهو يعتمد علي وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين: القديس لويس التاسع.

وهكذا عزيزي القارئ نجد نصاً صريحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت إلي استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة علي عالم الإسلام.. وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هـ.. ويقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية:

"إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة سياسي الغرب الذين وضعوا الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة".

وإن هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلي حملات صليبية سلمية.. تستهدف نفس الغرض.. وأن يكون أحد أسلحة الحملات الجديدة: هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل علي بقاء آثارها مستعرة بين البلدان المسلمة.

وقد بدئ في تنفيذ هذه المخططات عن طريق ثلاثة أساليب اعتمدت عليها في تحديها للعقيدة الإسلامية..

١- التبشير.

٢- الاستشراق.

٣- التغريب.

التبشير كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

بعد ارتداد الحروب الصليبية منهزمة أمام قوة المسلمين.. اتخذ الصليبيون وسيلة أخرى لإضعاف الروح الإسلامية في نفوس المسلمين.. هذه الوسيلة هي: التبشير.. وذلك بعد أن أدركوا يقينا أن الحروب بقوة السلاح المادي لا تجدي شيئاً.. بل إنها تكون في كثير من الأحيان باعثاً علي وحدة المسلمين وإظهار قوتهم المعنوية والمادية.

يقول رستز:

خابت دول أوروبا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف.. فأرادت أن تثير علي المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير.. فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات.. وفرقت المبشرين في العالم.. وهكذا تبينت الدولة حركة التبشير لمآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية.. ولقد استطاع- ريمون لول-

فـــي عـــام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل علي إذن من الملك يعقـــوب صـــاحب أوجونة ليبشر في مساجد برشلونه.. محمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا.

ويعتـــبر عـــام ١٢٩٩م أول عهد الأوربيين بالتبشير.. كما يعتبر- ريمـــون لول- أول من تولي التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فـــي مهمـــتها.. فقد تعلم- لول- اللغة العربية.. وجال في بلاد الإسلام ونـــاقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة.. وإلي جانب تطواف- لول- فـــي الـــبلاد الإســـلامية.. كانت السفن البحرية الأوروبية تطوق البلاد الإســـلامية.. وتفـــرض شبكة من التجسس.. فتدمر حضارتها.. وتفتت ركائز قوتها.

وتسلل المبشرون إلي داخل العالم الإسلامي.. للقيام بمهمة التجسس واســـتطلاع نقـــط الضـــعف وكشفها.. وبث الأعوان.. ونشر القلاقل والفتن والشبهات..

يقول الأب شانتور:

يأتـــي المبشـــر تحـــت علم الصليب.. يحلم بالماضي.. وينظر إلي المســـتقبل.. وهـــو يصغي إلي الريح التي تصفر من بعيد من شواطئ رومـــية ومـــن شواطئ فرنسا.. وليس من أحد يستطيع أن يمنع الريح مـــن أن تعيد علي آذننا قولها بالأمس.. وصرخة أسلافنا- الصليبيين- من قبل: إن الله يريدها.

ولم يتهاون الصليبيون في يوما منذ انقضاء الحروب الصليبية وإلي الآن فـــي توجـــيه مؤامـــرتهم.. وفـــي تكثيف خططهم لضرب العالم الإســـلامي.. للقضاء علي كل قوة تجمعه وتشده إليها..وما زال يشنون

غــاراتهم.. الغارة تلو الأخرى علي البلاد الإسلامية.. لتجعلها منطقة خاضعة لحكمهم الاستعماري.

وعلـــي هذا فالتبشير: ما هو إلا ستار شفاف أو واجهة مزيفة تخفي تحـــتها أطماعاً استعمارية.. تريد أن تحقق غزواً حضاريا.. وكثيراً ما يظهـــر البشير في مناسبات شتى مرادفاً تماماً لمعني الاستعمار.. ذلك لأن رجال الكنيسة الكاثوليكية.. يعتبرون التبشير بمذهبهم عملاً وطنياً.

ومـــن الواضح بمكان تآزر التبشير مع الهيئات السياسية.. للوصول إلـــي أغراضـــه ونوايـــاه الاستعمارية.. وقد أقترح أحد المبشرين أن تتعاون بريطانيا مع فرنسا علي سياسة السيطرة علي الشواطئ.. حيث يمكـــن وصول آلات القتال الحديثة بسهولة.. ذلك لأنه رأي أن الإسلام يتزايد عددياً.. ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً.

وقـــد اعـــتمد المبشرون علي إثارة النزعات الطائفية والقومية في صـــفوف المســـلمين.. وعملوا علي إحياء الحركات الشعوبية المعادية للمـــبدأ الإســـلامي.. فـــرجوا للقومـــية العربية التي تنتمي إلي فترات تاريخـــية مندثرة.. وإلي الفرعونية التي تنتني إلي حجارة الأهرام في مصـــر.. وإلـــي الفينيقـــية فـــي الساحل السوري.. وإلي الأشورية في العراق.

وقـــد امتصـــت هذه الاختلافات القومية والطائفية قواهم الذاتية.. إذ وجـــدت من يهتف بها ويغني بها.. وما زال التبشير يبحث عن معول آخـــر يهدم به التضامن الإسلامي.. وعن نزعات سياسية أخري تفتت رابطة العالم الإسلامي.. وتبعثر قواه.. وكأن اللورد:

جـــلاد ســـتون- حيـــنما صرخ في مجا ن العموم البريطاني.. وقد أمسك بنسخة من القرآن الكريم قائلا:

مـــا دام هـــذا القرآن موجوداً.. فلن تستطيع أوروبا السيطرة علي الشرق.. ولا أن تكون هي نفسها في أماكن.

وكـــأن هـــذا القـــول يتمثل للمبشرين دائماً.. ويدعوهم لأن يحكموا خططهم ويحزموا أمرهم.

أساليب التبشير:

لقـــد اندس المبشرون وراء كل فكرة براقة يمكن أن تجذب طبقات مخـــتلفة مـــن الشعوب.. فاستغلوا كافة الخدمات الاجتماعية لمصالحهم الخاصـــة.. فأنشـــأوا الأنديـــة الثقافـــية والترفيهية.. وجمعيات للشباب والشابات.. وأنشأوا جمعيات لإصلاح الأحداث ونادوا بإنصاف العمال لجذبهـــم إلـــيهم.. وقاموا بإنشاء جمعيات للرفق بالحيوان.. للتأثير في قلـــوب السذج من الناس.. الذين لا يلبثون أن يصطدموا بالواقع حينما يجـــدون ظلمهم للإنسان.. واستغلالهم للأعمال النبيلة في سبيل تحقيق أغراضهم الضعيفة.. ومطامعهم اللئيمة.

وتتلخص أساليب التبشير في:

١- انتشـــار مـــدارس تبشيرية في مختلف مجالات التعليم.. فهناك دور الحضـــانة وأخـــرى لتعليم تلاميذ المدارس الابتدائية وثالثة لتعليم مـــدارس المرحلة الإعدادية والثانوية.. بالإضافة إلي جامعات يسوعية وأخـــرى أمريكـــية.. وقـــد ثبت هذه المدارس والجماعات في مختلف أرجـــاء العـــالم الإســـلامي.. فـــي القرية النائية والقريبة.. في المدينة الكبـــيرة والمديـــنة الصغيرة.. وهي بهذا الانتشار والتوسع تغزو كافة فئات المجتمعات وتتصل بمعظم طبقات المجتمع.

ومـن أهـداف التبشير في هذا المجال: بث روح الولاء للغرب.. وإبعـاد الجـيل الحاضر رويداً رويداً عن شخصيته الإسلامية.. وعن تاريخه الإسلامي المشرق.. ثم وضع المسلم في قالب غربي مستعار.. ينسـي بـه أصـالة تراثه.. وتسترخي قواه.. ويفقد شجاعته وحماسته لحرمات الله أن تنتهك.. فإن غار علي حد من حدود الله يتجرأ عليه.. فتلك رجعية لا تليق بالرجل المثقف الواعي العاقل.. وإن أخذته كرامة المسلم وإباؤه.. الأصيل والعزة النفسية بأن لا يساير ولا يداهن.. فتلك همجية تتنافي مع الإنسان الحضري المتعلم.

وكثـيراً مـا أثرت المدارس التبشيرية في نفوس الطفولة البريئة.. فإذا بالطفل المسلم.. يردد صلواتهم وتيرنم بشركهم من حيث لا يدري ولا يشعر.. كما أثرت في الشبيبة اليافعة من أبناء المسلمين.. وأورثت فـي نفوسهم حب مخالطتهم والاقتباس من عاداتهم وتقاليدهم التي تمثل شخصـيتهم.. فـتذيل الشخصية الإسلامية.. وأول بوادر هذا الذيول.. التعاون في أداء العبادات وفي إظهار الشعائر الإسلامية الأساسية.

٢- نشـر العلمانـية: والدعوى إلي فصل الدين عن الدولة.. ورد النـتائج والأسـباب للطبـيعة أو إلـي المصادفة.. وهنا يكمن الخطر الشـديد.. الـذي يبذر بذور التشكيك في نفوس المسلمين.. ويؤدي إلي اضـطراب فـي العقيدة.. واضطراب في القيم والمفاهيم لدى الإنسان المسـلمين.. فتتـنازعه التيارات المتعاكسة المتضادة من مد وجذب.. فتضـيع ملامـح شخصيته وتنهار قواه الذاتية.. أو ينحرف في سلوكه الخلقـي.. ويخلع عنه الرداء الإسلامي.. وبهذا يتحقق للتبشير غرضه الخطير.

٣- المؤتمرات التبشيرية: منها:

أ- مؤتمــر القاهرة عام ١٣٢٤هــ- ١٩٠٦م المنعقد في منزل زعيم الثورة العرابية المسلم- أحمد عرابي.

ب- مؤتمر أدنبرج سنة ١٣٢٨ هــ في إنجلترا.

ج- مؤتمــرات القــدس وقد حصل في سنوات متعددة متعاقبة.. وإلي الآن.

أهم التوصيات:

- وجوب إقناع للمسلمين أن النصاري ليسوا أعداء لهم.
- وجــوب تبشــير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم.. ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أعضائها.

٤- فــتح المستشــفيات: وبعــث الإرســاليات الطبية إلي الشرق الإســلامي وهــذا أســلوب خطير أيضا.. لأنه يدس السم في العسل.. فالغاية شريفة طاهراً وقالبا.. ولكنها خبيثة مضموناً وحقيقة.. ذلك لأن المــرض حالة بليغة من حالات الضعف البشري.. ويتبع هذا الضعف قصــور في الإدراك الفكري.. فيصل الطبيب أو الممرض إلي غرضه من غير أدني جهد.

٥- الإعــلام: وهو من الوسائل التي اعتمد عليها التبشير للوصول إلــي أغراضه.. فكان يعمل من وراء حركات الصحافة.. وفق مصر ولبنان علي سبيل المثال جرائد مخصصة لصالح التبشير.

٦- نشــر الفساد والانحلال الخلقي: وهو من الوسائل المخزية التي اتــبعها التبشير.. فقد عملوا علي إنشاء حانات للخمر في كل من مصر وسوريا ولبنان.. وشجعوا علي تهريب المخدرات والحشيش.

وفي العصر الحديث يستعمل المبشر وسائل جديدة.. يدخل بها إلي قلب بلاد المسلمين.. ليؤثر في نفوسهم مثل:

- القنوات الفضائية.
- الكمبيوتر والنت.
- الفن والسينما.
- الفلسفة والشعر.

اليهودية والتبشير:

ليس هناك من شك في أن هناك تعاوناً وثيقاً بين إسرائيل وبين التبشير.. ذلك لأن كل منهما استعمار.. والاستعمار قادر علي التلون بألوان شتى وصور مختلفة.. إذ أنه يسعي لغاية واحدة.. وهي تسخير الآخرين لتحقيق مصالحه الخاصة.. ورفع مستوى بلاده اقتصادياً علي أكتاف البلاد التي تؤكل كل خيراتها.. ويستخدم رجالها لتصميم حضارة راقية.. تخلد اسم الدولة الغالبة.

ومنذ أمد طويل واليهود يساندون التبشير لتقويض أركان الدولة العثمانية واقتسام أراضيها.. وفعلاً وقع ما خطط له.. وكان من بين الذين قدموا للخليفة الصالح ورقة عزله.. ذلك اليهودي الذي ساومه في يوم من الأيام عن التخلي عن فلسطين إزاء رشوة مالية تدفع له.. ولكن السلطان عبد الحميد- رحمه الله- رفض بإصرار وعزيمة أن يباع شبر من أراضي فلسطين.. وتوعد اليهود الخليفة المسلم.. وأعقب ذلك إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧م.. الصادر من وزير الخارجية البريطاني.. والذي يقضي بمنح فلسطين وطناً قومياً لليهود.. وتوالت

الهجـــرة الـــيهودية أثناء الانتداب البريطاني.. وانسحبت ببريطانيا عام ١٩٤٨ من فلسطين لتمكن اليهود من التسلط عليها.

وأقيمـــت في فلسطين أول كنيسة بروتستانية.. وكان المبشرون جد مقتنعيـــن أن جمـــع اليهود في فلسطين وإنشاء وطن قومي لهم.. يسهل مهمـــتهم في الوصول إلي أطماعهم في ديار المسلمين.. للوصول إلي تغيير ثقافة المسلمين.

مـــن أجـــل ذلك فتح الإنجليز باب فلسطين علي مصراعيه لدخول قوافـــل الحقد والكراهية والمكيدة والخداع.. وقد كتب المبشر: = جون فـــان أسي- عام ١٩٤٣م: يذكر إسرائيل ويعلن حدودها كما هي عليه الآن- ويـــبرز المبشر- لورانس بروان- تفضيل المبشرين التعاون مع اليهود ضد القضية الإسلامية بقوله:

إن المســـلمين يخـــتلفون عن اليهود في أن دينهم- دين دعوة- أما اليهود فهم جماعة دينية مغلقة.. لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة.. ولكن بعـــد الاختـــيار لـــم نجد مبرراً لهذا التخوف.. لقد كنا نخوف بالخطر الـــيهودي.. لكنـــنا وجدنـــا الـــيهود أصدقاء لنا.. وعلي هذا يكون كل مضـــطهد لهـــم عدونـــا الألـــد ولكـــن الخطر الحقيقي كانت في نظام الإســـلام.. وفـــي قدرتـــه علي التوسع والإخضاع وفي حيويته.. إنه الجدار الوحيد الذي يقف في وجه الاستعمار.

وقـــال: إن الخطـــر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً هو: الخطر الإسلامي.. والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي.. فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم.. ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة.. وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة

إلـــي الحاجة للغرب.. وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هي اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب.

الاستشراق كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

كـــان للإسلام منذ ظهوره موقف مشرف مع المسيحية.. لم يشاركه فيه أحد من العقائد الأخرى.

يقـــول الله تعالي: "**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمـــن بـــالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**". سورة البقرة- ١٧١.

ويقـــول سبحانه: "**إنما المسيح عيسي ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه**" سورة آل عمران ٤٢- ٤٣.

ويحدثـــنا التاريخ أن الرجل الصالح- النجاشي- قد سمع للمسلمين المهاجريـــن مـــن مكـــة إلي بلاده.. أن يقيموا في الحبشة آمنين علي دمـــائهم وأموالهـــم وأعراضهم.. وحينما سمع هذا الإنسان الكريم كلام جعفر بن أبي طالب.. وهو يحدثه عن اعتقاد المسلمين بالمسيح عيسي بـــن مـــريم.. بكـــي حتى ابتلت لحيته.. وبكي أساقفته يومذاك.. وقال كلمـــته المشـــهورة الذائعـــة بيـــن المسلمين: إن هذا.. والذي جاء به عيسي.. ليخرج من مشكاة واحدة.

وقـــد كـــان الإسلام متعاطفا مع دولة الروم.. قال الله تعالي: "**ألم.. غلبـــت الـــروم. في أدني الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع ســـنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون.. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**". سورة الروم.

الأمر الذي عجب له مؤرخو المسيحية والدولة البيزنطية.. لأن كل الشواهد كانت تخالف هذا التنبؤ.. ومع ذلك فقد قضي الله أمراً كان مفعولاً.. وفرح المؤمنون بنصر الدولة البيزنطية.

وعلي هذا فالمسلمين دائماً أكثر تسامحاً وإنصافاً مع المسيحيين.. وقد عاشت الأقليات المسيحية في المجتمعات الإسلامية آمنة علي نفسها آمنة علي أعراضها.. آمنة علي أموالها.. لها من الحقوق مثلها للمسلمين.. ولو وازنا وضع هذه الأقليات المسيحية بأقليات مسلمة تعيش في مجتمعات مسيحية.. لما كان هنالك وجه للمقارنة بينهما.

وفي القرنين الأخيرين.. ومع بداية القرن الثامن عشر.. حينما دب الضعف في الكنيسة.. وانحسرت سلطتها في المجتمعات الأوربية والأمريكية.. وانهزمت في روسيا والصين.. لم تهدأ وتضع سلاحها.. وتستكن للأمر الواقع وإنما رأت أن هذه فرصة مناسبة لها لتؤكد للمجتمعات الأوربية والأمريكية أنها الجدار القوي.. والستار الواقي الذي يقف حاجزاً دون المسلمين.. فهي تضع يدها مع كل فكرة استعمارية.. ومع كل تآمر صهيوني.. يهودي لإشهار السلاح بوجه المسلمين.. وقد تواطأت الكنيسة مع الصهيونية ضد الإسلام في كل البلدان الأمريكية والأوربية.. والأفريقية والأسيوية.. مع أن اليهود هم الذين شوهدوا معالم المسيحية.. وأساؤا إلي شخص المسيح عليه السلام.

نقد المعتقد المسيحي:

نعتقد- نحن المسلمين- أن المسيحية المنتشرة الآن ليست هي المسيحية التي تنزلت علي المسيح عيسي عليه السلام.. وإنما هي مسيحية جديدة.. اتفق عليها بضغط من الملك قسطنطين عام ٣٢٥م.. أي بعد ثلاثة قرون من رفع المسيح إلي السماء.

ولكن ما السبب الذي دعا الملك قسطنطين لأن يضع مسيحية جديدة؟

الحقائق التاريخية تثبت أن إنجيل المسيح نفسه.. أي كلامه لفظاً ومعني لم يصل إلي الناس.. وإنما الذي وصل إليهم مجموعة من المذكرات الشخصية لبعض تلاميذه.. الذين لا يرتفع بعضهم عن الشبهات.

وكان لليهود أثر في تغير معالم المسيحية الصحيحة بما أثاروا من أباطيل حول السيدة مريم العذراء.. ولذا فقد اختلفت التصورات لديهم حول ذات الله تبارك وتعالي.. وحول المسيح عليه السلام.. ولا ننسي أبداً أثر الوثنية اليونانية.. والرومانية القديمة في إدخال تحريفات علي العقيدة الصحيحة.. وكان من نتائج اختلاف التصورات المسيحية.. أن تقاتل الناس بعد أن افترقوا إلي شيع وأحزاب.. فأراد الملك قسطنطين أن يقضي علي الفتن.. فعقد مجمعاً سمي: مجمع نيقية.. وأرغم القسيس علي الوقوف عند تصور يرضي الجميع.. كحل وسط.. فكان هذا الحل: هو تقسيم المسيح عليه السلام بين الألوهية والبشرية.. فهو بشر إله.. نستغفر الله من هذا المعتقد الباطل.

قال تعالي: **"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار".** سورة المائدة- ٧٢.

وقال تعالي: **"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم"**.. سورة المائدة- ٧٣.

وقد تعرض علماء المسلمين لنقد المعتقد المسيحي السائد.. فقد كتب ابـن تيمـية عام ٦٦١- ٧٢٨ هـ كتابه- الرد الصحيح علي من بدل الصـحيح علـي من بدل دين المسيح- وفيه ردود علمية علي ما طرأ من تحريفات بشرية علي الدين المسيحي وعلي إنجيله.

ومـن قبل نقد الإلمام ابن حزم عام ٣٨٤- ٤٥٦ هـ- رحمه الله- فـي كـتابه- الفصل في الملل والنحل- المسيحية السائدة.. فكان مما قال:

والنصاري لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله علي المسيح.. ولأن المسـيح أتـاهم بها.. بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفهـا رجـال معـروفون فـي أزمان مختلفة.. أولها تاريخ ألفه- متى اللاوانـي- بالعبرانـية بعد تسع سنين من رفع المسيح.. في نحو ثمان وعشـرين ورقة بخط متوسط.. والآخر تاريخ ألفه- مارقس الهاروني بعـد أثنيـن وعشـرين عامـاً مـن رفع المسيح عليه السلام.. وكتبه باليونانـية فـي أنطاكـية.. والثالـث تاريخ ألفه- لوقا الطبيب- تلميذ شـمعون باطرة.. كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجـيل مـتى.. والرابع تاريخ ألفه باليونانية- يوحنا بن سيذاري- بعد رفـع المسـيح ببضـع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة.. ثم ليس للنصـاري كـتاب يعظمونـه سـوى- الأفركسيس- الذي ألفه لوقا.. وكتاب- الوحي والإعلان- ليوحنا.. والرسائل القانونية..و – رسالتين لـباطرة شمعون.. ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار.. وأخرى لأخيه يهودا.. ورسائل بوليس تلميذ شمعون".

وكـل كـتاب لهـم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطاركـتهم.. وبديهـي أن ما ألفه إنسان ونسبه إلي الله.. لا يمكن أن

يكــون من الثقة بالمكان الذي يحظي به ما يصدر عن الله مباشرة لفظاً ومعنـــي.. ومن الملاحظ لمن يطلع علي هذه الأناجيل.. التفاوت الكبير بينها أسلوباً ومعني.. حتى في التصور والمعتقد ذاته.

يقول ابن حزم أيضاً:

"وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام.. أنه مرة بنص أناجيلهم ابن ابـــن الله.. ومرة هو ابن يوسف.. وابن داود وابن الإنسان.. ومرة هو إله يخلق ويرزق.. ومرة هو خروف الله.. ومرة هو في الله ومرة هو فـــي تلاميذه وتلاميذه فيه.. ومرة هو علم الله وقدرته.. ومرة لا يحكم علـــي أحد ولا ينفذ إرادته.. ومرة هو نبي وغلام الله.. ومرة أسلمه الله إلي أعدائه.. ومرة ترك الله له الملك وتولاه هو.. ومرة يجوع ويطلب مـــا يأكل.. ويعرق من الخوف.. ويفشل فيركب حمارة.. ويؤخذ ويلطم وجهـــه ويضـــرب رأسه بالقصبة.. ومرة مات ودفن ثم قام بعد الموت ودفـــن ثـــم قـــام بعد الموت فلم يكن له من هم بعد أن قام إلا طلب ما يأكل.. ثم انطلق إلي شغله.

ومـــع ذلـــك فنحـــن المســـلمون ندعـــو الناس إلي الحق بالحكمة والموعظة الحسن.. نقول لأهل الكتاب:

"يقول تعالي: "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعـــبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فـــإن تولـــوا فقولـــوا اشـــهدوا بأنا مسلمون**".. سورة آل عمران- ٦٤.

لكـــن المســـيحيين ومـــنذ ظهور الإسلام.. اتخذوا الموقف المعادي للمســـلمين.. وأعلـــنوها حـــرباً طاحـــنة.. واستعانوا بكل قوى البغي

والعـــدوان.. واســـتعملوا أســـلحة مادية فتاكة وأخرى فكرية.. وتتمثل الأولى في الحروب الصليبية والثانية بالتبشير والاستشراق.

ويعتـــبر الاستشراق أداة من أدوات الصليبية- المسيحية المحرفة.. لتضـــليل الـــرأي الإنســـاني العالمـــي.. ولبـــث الدعايات الباطلة ضد المسلمين.. ولإشاعة الشبهات ضد المعتقد الإسلامي نفسه.

أهداف الاستشراق:

١- تشـــويه المعالم العامة للإسلام وحجب محاسنه عن الناس للحيلولة دون انتشـــاره من جهة ولإظهاره علي غير حقيقته من جهة أخرى.. ذلك لأن المستشـــرقين علموا يقيناً أن الإسلام إنما انتشر بسمو مبادئه وسماحة تعالـــيمه.. وعدالـــة تشـــريعه.. فأرادوا أن يحجبوا هذا الدين العظيم عن الوصول إلي النفوس والأفئدة.. فعمدوا إلي التضليل والتشويه.

٢- العمـــل علي إخماد روح الجهاد في نفوس المسلمين.. والركون إلـــي الـــراحة والدعة.. وبذلك يتم دعم الاستعمار الصهيوني.. والغزو الفكري الصليبي.

٣- العمل علي عزل الشريعة الإسلامية عن أنظمة الدولة السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية.. واستبدالها بأنظمة أجنبية وضعية.. وبذلك يحـــافظون علـــي تبعية المسلمين للاستعمار في شتى أشكاله ومختلف ألوانه.. ومن ثم ينعمون بخيرات بلادنا الإسلامية.. ويتمتعون بثرواتها الطبيعية.

٤- محاربة اللغة العربية ومناهضتها.

٥- نشـــر الاتجـــاه العلمانـــي.. وربـــط حـــركة التغريب بالتقدم الحضاري.

تاريخ بدء الاستشراق:

هــناك اتفاق علي أن الحركة الاستشراقية قد بدأت في القرن السابع الهجــري فــي الأندلس.. حينما اشتدت الحملة الصليبية الإسبانية علي المســلمين فــي ديارهم- الأندلس- فدعا ملك قشتالة- ميشيل سكوت- لــيقوم بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم.. يجمع سكوت عددا من الرهــبان في بعض الأديرة بالقرب من طليلة.. وبدأوا يترجمون بعض الكتب العربية إلي اللغة الأجنبية.. ثم قدمت هذه الكتب إلي الملك فأمر باستنســاخها.. وإرسال نسخها إلي جامعة باريس.. ومن أوائل الرهبان الذيــن درســوا في الأندلس علي يد العرب: الراهب الفرنسي جربرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م.

وقــد تطــور الاستشراق في الأسلوب وفي المنهج.. كما تطورت طرق التبشير من قبل.. فعمد المستشرقون منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري.. أواخر القرن الثامن عشر الميلادي- إلي الدعوة لإنشاء كليات لتدريس اللغات الشــرقية فــي عواصم البلاد الأوربية.. وفعلاً أنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية في لندن وباريس وبرلين وبطرسبرج وغيرها.. واشتملت علي أقسام خاصــة لدراسة اللغة العربية وبعض اللغات الإسلامية.. كالفارسية والتركية والأردية.. وكانت تهدف من وراء ذلك تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء فــي الشــئون الإســلامية.. ثــم أخذ الطلاب المسلمون يؤمون هذه الكليات الأوربية للدراسة فيها.. وبذلك تأثر الفكر الإسلامي بما يمليه المستشرق في أذهــان الطلــبة المبعوثيــن من أبناء المسلمين.. وكانت المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب تقدم الأموال الطائلة للمستشرقين من أجل القــيام بمهمــتهم.. وقــد أنشــئت عدة مؤسسات في البلاد الإسلامية لخدمة الاستشراق.. وللتآزر مع الاستعمار والتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي.

والواقـــع أننا لا نستطيع أن نفصل بين أهداف الاستشراق والتبشير والاســتعمار إلا مـــن حيث الأهداف الغريبة أو الهيئة الظاهرية.. أما الغــرض البعــيد لهــا جمــيعاً فواحد.. غير متعدد.. ومن أبرز هذه المؤسســات التعليمية: الفرانـ كان والجامعة الأمريكية.. وقد انتشرت في كل الأقطار الإسلامية.

مواضع الخطر في الاستشراق:

خطة الاستشراق تتلخص في: إنصاف جانب من الإسلام في سبيل هدم جانب آخر.. وكل منهم يتخذ وجهته في هدم شيء معين.. ولكن واحــداً منهم لا يهدم كل شيء.. وهم إلي هذا يختلفون حتى لا يتهموا بالاتفـــاق علي رأي.. والمسألة الواحدة يقال فيها رأي ويقال فيها ضده مـــن مستشـــرق آخـــر.. ولكـــن الهـــدف الأكبر هو: إحداث عوامل الاضطراب الفكري والبلبلة التي تكون قد تحققت.

وأهم ما استهدفت كتابات المستشرقين: تشويه الثقافة العربية الإسلامية.. للحـــط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم.. وقد اتجهت هذه الأعمال في مظهرها لا إلي الدعوى إلي دين معين أو فكر معين.. ولكن لتشويه كل دين أساساً.. وللحط من شأن الفكر العربي الإسلامي.. بمقارنته بالفكر الغربي.. واخـــتلافه معه في بعض الجوانب واتخاذ فترات الضعف التي مر بها العالم الإســـلامي حجة علي التخلف.. ومحاولة اعتبار فكرها وصورة الحياة فيها هي الإسلام أو الفكر الإسلامي نفسه.

يقول لورنس براون:

إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وعقيدته وفي قدرته علي الـــتحرك والتوســـع والإخضاع.. إنه الجدار الوحيد في وجه الغرب..

وعلي ذلك فإن الأهداف من الاستشراق قد رسمت مسبقاً.. ولا أدل علي ذلك من قول ليوبولد فابس.. كما ذكره محمد كامل عياد في كتابه- التاريخ والآثار.

أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً من الفكر الأوربي.. ومن هنا كان اتجاه الفرنسيين إلي العمل علي تشكيك المسلمين في دينهم وتحقيره في نفوسهم.. وتحميله تبعة صنيعهم.. وقد ولوا في ذلك إلي نتائج أكثر مما كانوا يتوقعون.. وذلك عن طريق تسميم عقول المسلمين بما يقولونه عن الإسلام.. وتاريخ الإسلام باسم البحث العلمي.

إن تحامل المستشرقين علي الإسلام.. غزيرة موروثة وخاصة طبيعية.. تقوم علي المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية.. وكره الأوربيين للإسلام كره عميق الجذور.. يقوم في الأكثر علي التعصب الشديد.. وهو ليس كرهاً عقلياً فحسب.. وإنما يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.. وقد لا تتقبل أوروبا البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ أمامها بموقف عقلي متزن.. إلا أنها حين تتجه إلي الإسلام يختلف التوازن.. ويأخذ الميل العاطفي للتسرب.

وقد ظهر من بحوثهم كأن الإسلام متهم.. يقف أمام قضاته.. وأن ما يبدو في سير الحكم من عدالة.. فإنما للتعمية والتضليل.. وإن طريقة الاستفزاز والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين.. تذكرنا بوقائع ديوان التفتيش هذه الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطي.. أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً إن نظرت في القرائن التاريخية.. بتجرد.. ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل.. وقد أملاه الغضب.

بالإضافة إلي ذلك فإن أعمال المستشرقين قد انصرفت عن مباحث النهضة العربية الحديثة.. واتجهت إلي التاريخ الإسلامي وركزت علي الفتـن الأهلـية والخلافـات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ.. مع الاهـتمام بـالعوامل الخارجـية التـي كان لها بعض التأثير في نشأة الإسلام والحضارة الإسلامية.. في حين تهمل مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند المسلمين في عموم مراحل التاريخ.

وقـد ركـز المستشـرقون علـي القرآن باعتباره دستور العقيدة الإسـلامية.. وتعـرض مـن جراء ذلك لحملة من أعنف الحملات.. وأثـيرت حولـه شبهات متعددة.. كانت تهدف في مجموعها إلي القول إن القرآن من نظم النبي محمد صلي الله عليه وسلم.. وأنه موضوع.. وليس منزلا من عند الله.

فهـذا ريـنولد نيكسـون.. يقرر أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك في معالجة كبار المعضلات.. وأنه نفسه لم يكن عالماً بوجود هـذا الاضـطراب والـتعارض.. وأن الفـرق الإسلامية قامت بسبب التعارض الذي يحتويه القرآن.

ويقـول هنري جونستون: القرآن ليس سوى مجموعة أقوال مقتبسة مـن التوراة والإنجيل.. وبعض تعاليم المجوس.. وأنه يحتقر المرأة.. وقـد اشتهر الإسلام بكونه غير قابل للتكيف لما يطابق أحوال الزمان والمكان.

ولا شـك أن مصـدر هـذه الحملـة الشـعواء التـي ركز عليها المستشـرقون أساساً هو الإيمان الأكيد بأن القرآن هو المصدر الأول.. والأسـاس لمقومـات الفكـر العربي والإسلامي.. وأن إثارة الشبهات حوله.. إنما هو هدف كبير في سبيل القضاء علي هذه المقومات.. وقد

بـــدأ ذلـــك واضحاً في عبارات جلادستون رئيس الوزارة البريطانية.. الذي حمل المصحف أمام أعضاء مجلس العموم وقال:

ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض.. فلا أمل لإخضاع المسلمين.. ويتصـــل هذا بما ذكره كرومر من اتهامات للقرآن من أنه هو المصدر الأول لتأخر المسلمين.

الشعوذة العلمية:

الخطـــر الأكـــبر في نظر المستشرقين هو وصول مفاهيم الإسلام الصـــحيحة إلـــي عـــالم الغرب نفسه.. ولمنع ذلك لجاءوا إلي الشعوذة العلمـــية باســـم البحـــث العلمي والاستنتاج التحليلي.. بعمل دراسات.. نذكر منها.

أولا: يجمع المستشرقون الشبهات المختلفة ويؤلفون بينها لإعطائها صـــورة كاملـــة.. مثال ذلك ما قام به المستشرق الألماني- ولهلم هو ربـــناخ- الأســـتاذ في جامعة بون.. من جمع قطع وشذرات من كتاب الإصـــابة للحفـــاظ بـــن حجر.. ثم ينشرها علي أنها كتاب الردة لابن حجـــر.. الـــذي ألفه أبو زيد بن الفرات المتوفي عام ٢٣٧ هـــ.. ولا يقوم بمثل هذا العمل إلا مغرض.. صاحب هوى.. لأنه مخالف للبحث العلمي السليم.

وشبيه بهذا ما أورده المستشرقون من الزعم: بأن العرب كانوا قبل البعـــثة النـــبوية.. أصحاب حضارة ونهضة وأن دور النبي صلي الله علـــيه وســـلم.. لـــم يزد علي أنه نهض بهم فنهضوا.. مع أن الحقيقة الواضـــحة.. أن العـــرب في جاهليتهم كانوا قبائل متفرقة متصارعة.. وأن الإســـلام هـــو الـــذي وحدهـــم في أمة واحدة.. ودفعهم إلي آفاق

النهوض والتوسع.. كما قال تعالي: "**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**". سورة الأنفعال- ٦٣.

كـان العـرب في الجاهلية بينهم من الثارات والدماء والمنازعات ما يسـتحيل معه الالتئام.. فضلاً علي هذا الإخاء الذي لم تعرف له الأرض نظـيراً.. ولقـد وقعـت المعجـزة التي لا يقدر عليها إلا الله.. والتي لا نضعها إلا هذه العقيدة.. فاستحالت هذه القلوب النافرة وهذه الطباع الحادة إلي هذه الكتلة المتراصة.. المتآخية الذلول بعضها لبعض.

ثانـيا: قـيام المستشـرقين بإحـياء الـتراث الباطني المجوسي.. مسـتهدفين تحطـيم أصـالة الفكر الإسلامي.. ويبدو هذا واضحاً في تركـيزهم علـي إحـياء كـل المخطوطات التي تحمل هذه السموم.. وخاصـة مـا يتصـل بالإلحـاد والإباحية.. ولا ريب أن خطر آثار الاستشـراق هو اعتبار كتب المستشرقين وبحوثهم مراجع أساسية في الـتاريخ واللغـة والسـيرة والفقـه والعقائد.. وغير ذلك وخاصة في الجامعـات والمعاهد العالية.. أو في دراسات المبعوثين إلي الجامعات الغربـية فـي أوروبـا وأمـريكا.. والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشـراق والأسـاتذة الـيهود والصليبيين ثم يعودون إلي بلادهم.. فيحـتلون مناصب التوجيه الثقافي والتعليمي.. ويفرضون ما تلقوا من الغرب من سموم.. باسم التجديد وحرية البحث.

وقـد عمل المستشرقون علي نشر الموسوعات- دوائر المعارف- والقواميس.. لتكون مراجع سهلة للباحثين.. وملؤها بالسموم والشبهات والافتراءات.

مثل:

١- دائرة المعارف الإسلامية.

٢- المنجد في اللغة والعلوم والآداب.

٣- الموسوعة العربية الميسرة.

ثالـــثا: يعمـــل المستشـــرقون علي إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضـــونها.. حســـب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه.. أو يقبلونه من النصوص.. وكثيراً ما يحرفون النص تحريفاً مقصوداً.. كما يتحكمون فـــي المصادر التي يختارونها.. فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكون بـــه فـــي تاريخ الحديث النبوي.. ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه.

بـــل يتعدي ذلك إلي الطعن علانية في العقيدة.. حسب أهوائهم كما فعـــل جولـــد تسير في كتابه العقيدة والشريعة إذ يقول: إن البحث في التناقضـــات الظاهرة في القرآن.. وأصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم.

وهـــذا لم يحدث في القرآن.. ولكنه اعتبر التشابه تناقضاً.. وفسره حســـب رأيـــه هـــو.. ولـــم نسمع نحن المسلمين ببحث في تناقضات القرآن.. لا لشيء إلا لأنها غير موجودة.

يقـــول تعالـــي: **"ولـــو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا"**. سورة النساء- ٨٢.

التغريب كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

التغريـــب هـــو حـــركة موجهـــة لصـــبغ الإسلام بصبغة غربية.. وإخـــراجه عن طابعه الخالص.. واحتوائه علي النحو الذي يجعله يفقد ذاتيته.. وكيانه.. ويذوب فيما يسمي بـــ العالمية.. أو الفكر الأممي.

ويعتـــبر عزيزي القارئ هذا المخطط من أقسي ما يواجهه الإسلام فـــي العصور المختلفة.. لأنه وليد الاستعمار وربيب الاستشراق وابن التبشـــير.. وهو فوق ذلك مؤامرة الصهيونية مع الصليبية ضد الإسلام والمســـلمين.. والتغريـــب حـــركة كاملـــة البـــناء.. له نظمه ووسائله وأهدافـــه.. وقادته ودعاته.. وهو يعتمد علي وسائل الإعلام من راديو وتليفزيون وقنوات فضائية وكمبيوتر ونت وصحافة وكتب.. كما يعتمد علي دور الثقافة والمدارس.

وتهـــدف حـــركة التغريـــب إلي إثارة الخلافات والخصومات بين العـــرب والمســـلمين.. وتحـــاول أن ترد التراث الإسلامي إلي الغرس والهـــنود والـــيونان.. لـــذا نجد أن التغريب يهتم بدراسة عالم ما قبل الإســـلام وإحـــيائه فـــي صـــور شتى.. كصورة الفرعونية والجاهلية والوثنية والفارسية والمجوسية القديمة.. وإثارة دعوات حديثة كالبهائية والقاديانـــية.. كما يسعي لتمزيق وحدة الفكر العربي الإسلامي.. بعزل الأخـــلاق عن التربية.. والدين عن الأدب.. والسياسة عن الدولة.. كما يعمـــل جاهداً لنشر الإلحاد والإباحية والدعاية لهما.. لأن الإنسان إنما يكـــون له وجـــوده وشخصـــيته: بمبدئه الذي يعتقده وبقيمه التي يؤمن بهـــا.. فـــإذا ضـــاعت المـــبادئ والقيم.. إنهار الإنسان الذي هو نواة المجتمع.

وقـــد اســـتعملت حركة التغريب أساليب مختلفة.. لتحقيق أغراضها المنكرة.. وكان أهمها:

١- الحركة العلمانية.

٢- الحركة القومية.

أولا: العلمانية:

هـــي نظـــام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمـــان الدينـــي والعبادة الدينية.. وقيام الدولة علي دعائم الدين.. كما يـــرفض كـــل نظـــام أو قيمة تنسب إلي الدين من قريب أو من بعيد.. وهـــي دعوة صارخة لفصل الدين عن الدولة.. وأن يكون ماله لله وما لقيصر لقيصر.. هذه صيحتها التي قصدت من ورائها عزل الدين عن مناهج الحياة.. وعن السياسة والحكم والقضاء.

والعلمانـــي: هو ذلك الشخص الذي يأخذ كل ما يتعلق بشئون الدنيا وأنظمتها.. بعيداً كل البعد عن التعاليم الدينية.

والعلمانـــية بهـــذه الدعوى قد أوجدت حكماً ثنائياً.. وحركة ثنائية.. وتعليماً ثنائياً وإعلاما ثنائياً.. ومنهاجاً ثنائياً.. فهناك سلطة الدولة التي تعمـــل باستقلال وانعزال كاملين عن الدين.. وهناك رجال الدين الذين يحكون في المعبد.. ويديرون شئون دون أن تكون لهم كلمة في شئون الحكـــم والسياســـة والاقتصـــاد.. أو في إدارة الدولة.. وهناك مدارس مدنـــية.. ومدارس دينية.. وهناك تعليم لا ديني وتعليم ديني.. وكلاهما منفصـــل ومستقل عن الآخر.. وهناك حياة دنيوية متغيرة ومتطورة.. وهناك حياة دينية في منأى عن التغير والتطور.

هذه الثنائية تبرز بصورة مريعة حينما يقع الطرفان في نزاع.. كل مـــنهما يحـــاول أن يخضـــع الآخـــر.. وكل منهما يريد أن يتحكم في الآخـــر.. هـــذه الثنائية ظهرت بصورة شديدة وعنيفة في أوروبا.. إذ كانـــت الكنيســـة هي المسيطرة علي الحياة في مختلف مجالاتها طوال القـــرون الوســـطي.. وكانـــت تحد كثيراً من نشاط العلماء.. بل كانت تعطـــي لنفسها الحق في بيع صكوك الغفران لأصحاب الذنوب.. وبيع

مســاكن في الجنة.. قصور وفيلات وشقق كبيرة أو صغيرة مفروشة.. تبيعها بالنقد والتقسيط.

العلمانية.. وموقف الإسلام منها:

يتلخص الموقف الإسلامي ن الحركة العلمانية في:

١- إن التديــن جزء من الطبيعة البشرية.. ولا يستطيع الإنسان أن يعــيش مــن غير دين.. ولقد عجزت المذاهب جميعها والأيديولوجيات علــي اخــتلافها أن تقــدم له بديلاً عن الديني.. يشفي روجه.. ويملأ حياته.. ولقد حرر الإسلام الإنسان من عبودية المجتمع.. ومن عبودية الأفراد ليتجه إلي الله وحده.

٢- حــرر الإســلام الفكــر مــن الظــنون والفروض والأساطير والخــرافات والأوهام والأهواء.. ودعا إلي التمسك بالمنابع الإسلامية الأصــلية.. وفــي مقدمتها.. القرآن الكريم وسنة رسول الله صلي الله علــيه وسلم.. ومن هنا كان التحرك الفكري للمسلمين.. إنما يجري في إطارهــا.. فــإذا خــرج عنهما وقع الحرج والضيق والتمزق والشتات الذي لا يزول إلا بالرجوع إليهما.

٣- أن حاضر الفكر الإسلامي والأدب العربي.. والثقافة العربية.. لا تنفصــل عــن ماضــيها الممتد.. المتصل.. المتفاعل خلال مراحل الــتاريخ المختلفة دون توقف.. وإن الفكر الإسلامي الحديث هو ثمرة للفكر الإسلامي الذي بناه القرآن الكريم.

٤- إن الحــرية فــي الإســلام تعني تحرير العقل البشري من قيد الوثنــية.. مهمــا اختلفت أسماؤها ومن الجهل مهما تباينت تواريخها..

ومــن الخــرافة والتقليد مهمـا لبست من مسوح.. كما تعني تحرير الإنسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان.

٥- إن الأخــلاق فــي الإسلام ثابتة لا تختلف باختلاف المجتمعات ولا تــتطور بتطور الأزمان.. ولا تتبدل بتبدل الأجيال.. وإنها مرتبطة بالإنسان.. وإن الحق واحد لا يتعدد.

٦- إن الإســلام وحــدة كاملــة لا تقــبل الانفصام ولا التجزئة ولا التفتيــت.. وكل فرع فيه يقوم علي أصول ثابتة.. فالأخلاق لا تنفصل عن العبادة ولا تنفصل عن السياسة.. كما أن العبادة لا تنفصل عن المعاملة.

٧- لقد ربط الإسلام في حياة الفرد بين عقيد التي يؤمن بها ويدين لهــا.. وبيــن العمــل والنشــاط الــذي يصدر عنه.. وقرن بين العلم والعمــل.. فلا يطلب العلم ليبقي في حيز النظريات.. إنما يطلب ليطبق ويستفاد منه في تحسين وسائل الحياة الإنسانية.

٨- لا يــري الإســلام أن ثمــة تعارضاً قائماً بين مفهوم الإيمان ومفهــوم المعرفة والعلم.. ولا تقتصر المعرفة والعلم في الإسلام علي الوســائل الحسية والبراهين التجريبية.. وإنما يضاف إليها التسليم بعلم الوحي.. الذي أفاد الإنسان فائدة كبرى.. وكفاه مؤنة البحث فيما وراء الطبــيعة.. والبحث عن اليوم الآخر.. وقدم له وصفاً كاملاً للحياة بعد المــوت.. هــذا الوصف الذي يرضي الأشواق النفسية للإنسان ويدخل في قلبه الطمأنينة والسكينة.

وهكذا..

يتضــح لــنا أنه لا يوجد منفذ واحد تدخل منه العلمانية إلي الإسلام وفكــره وعالمــه ومجتمعه.. ذلك لأن البيئة التي وجدت فيها العلمانية

وهـــي: الغـــرب.. تخـــتلف كلـــياً عن البيئة العربية الإسلامية.. وإن الظـــروف الأوربية التي أتاحت لظهور العلمانية لم توجد.. ولن توجد ظـــروف مماثلة لها في البلاد الإسلامية.. ولو كان الإسلام منتشرا في أوروبـــا وحكاماً لحياتها لما نشأت العلمانية في الفكر الأوروبي.. ولما وصـــل تفكير بعض الأوربيين إلي التطرف في النزعة المادية.. لحل بعض المشكلات الاجتماعية.

يقول أحد العلماء الغربيين:

إن الغربي لا يصير عالماً إلا إذا ترك دينه.. بخلاف المسلم.. فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً.

العلمانية والإعلام:

وقـــد فطـــن العـــدو الماكر إلي أهمية الإعلام فاستغله علي أوسع نطـــاق.. ويلاحـــظ المستشـــرق- جب- أن النشاط الإعلامي والثقافي والتعليمـــي التغريبـــي.. وقد ترك في المسلمين أثراً جعلهم يبدون في مظهـــرها العام لا دينين إلي حد بعيد.. ثم يعقب علي ذلك بقوله: وذلك خاصـــة هـــو اللب المثمر في ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي علي حضارته من آثار.. ثم يقول: الواقع أن الإسلام بوصفه عقـــيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه.. ولكن الإسلام بوصفه قوة مســـيطرة علي الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته.. فهناك مؤثرات أخرى تعمـــل إلـــي جانـــبه.. وهي في كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحاً.. ولكنها تشق طريقها.. بالرغم من ذلك إلي المجتمع الإسلامي في قوة وعزم.

ويقول جب موضحاً:

لقد أصبح الرجل من عامة المسلمين يري أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل.. ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية.. قد لا يعرف أصولها ومصادرها.. ولكنه يعرف علي كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن.. وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحية.. فضلاً عن حاجاته الاجتماعية الأساسية.. بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه.. وبذلك فقد الإسلام سيطرته علي حياة المسلمين الاجتماعية.. وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً.. حتى انحصرت في طقوس محددة.

وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه.. وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة من المثقفين.. وكان الذين مضوا فيه عن وعي.. وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل.. وقد مضي هذا التطور الآن إلي مدى بعيد.. ولم يعد من الممكن الرجوع فيه.. وقد يبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلي التعليم.. ومع تزايد الحاجة إلي الاقتباس من الغرب أن يصد هذا التيار.. أو يعاد الإسلام إلي مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش علي الحياة السياسية والاجتماعية.

القومية:

اتخذت القومية في القرن التاسع عشر مفهوماً خاصاً.. يدل علي تفضيل أصرة القوم علي غيرها من الأواصر.. ولكن جوهر هذا المعنى كان معروفاً منذ العصور القديمة.. فقد عرف اليونان والرومان والهنود- القومية- وكانت تعني عندهم انتساب الفرد إلي قوم أو جنس معين.

وللقومية أركان خمسة عليها يرتفع بينان هذا المفهوم:

١- وحدة الجنس.. بمعني الانتساب إلي أصل واحد.

٢- وحدة الوطن.

٣- وحدة التاريخ.

٤- وحدة اللغة.

٥- العوامل الاقتصادية.

جاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون علي آصرة النسب أو يجتمعون علـــي آصرة الجنس.. أو يتجمعون علي آصرة الأرض.. أو يتجمعون علـــي آصرة المصالح والمنافع القريبة.. وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهـــر الإنســـان.. إنمـــا هـــي أعراض طارئة علي جوهر الإنسان الكـــريم.. وقـــال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير.. الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديداً أخيراً.

إنـــه لا لـــون ولا جنس ولا نسب ولا أرض ولا مصالح ولا منافع هـــي التـــي تجمع بين الناس أو تفرق.. إنما هي العقيدة.. هذه الرابطة جديـــرة لأن يـــناط بها إنشاء أمة.. وتجمع إنسانية.. وتقيم دولة.. فهي وحدهـــا قـــادرة علي أن تؤلف بين قلوب البشر علي اختلاف ديارهم وأجناســـهم ولغـــاتهم واقتصـــادهم.. وهي وحدها قادرة علي أن تجمع العالميـــن فـــي دائـــرة واحـــدة.. وأن تمدهم بقيم واحدة.. وأن تنظلمهم بأنظمـــة واحـــدة.. وبشـــريعة واحدة.. ومن هذا كله تنبع مشاعرهم.. وتتحد آمالهم وغاياتهم واتجاهاتهم.

سقوط البلاد الإسلامية في براثن القومية:

يحدثنا التاريخ أن فكرة القومية قد دخلت إلي البلاد الإسلامية عن طريق جماعة الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة.. وكانا حزبين يتعاونان مع اليهود.. ويعملان علي تنفيذ خططهم الماكرة الحاقدة.. وقد تأكد لدى المسلمين أن قادة الاتحاد والترقي جميعاً من اليهود من غير استثناء.. وإن أعضاء هذا الحزب كلهم من يهود سالونيك.. وعلي هذا فإن اليهود هم الذين سعوا جادين لإثارة النزعة القومية.. والدعوى لها بشتى الوسائل والعمل علي إحياء التاريخ الجاهل المفضل علي التاريخ الإسلامي.. والأدب القومي.

جاء في منشور لإحدى الجمعيات التركية الطورانية: "إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها الأمة الإسلامية.. التي ظلت إلي أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام .. ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص.. وهي في طريقها الآن إلي التفكك والزوال.

وكانت الدولة العثمانية تجمع قوميات متعددة مؤتلفة معها بسبب عقيدة التوحيد.. فإذا أبعد الدين الإسلامي.. وظهرت النزعة التركية العلمانية.. وأبعدت لغة القرآن الكريم عن المكاتبات الحكومية.. لم يبق رباط جامع يربط بين تلك القوميات المتعددة.. وبين القومية التركية.. لأن العقيدة وحدها هي التي توحد بين صفوف المسلمين.. فإذا فقدت العقيدة زالت معالم التجمع الإسلامي.

ومن سرت عدوى القوميات إلي كل الأجناس الخاضعة للحكم العثماني.. وطالبت بالانفصال عن الأم.. إذ لم تخضع لها إلا من أجل العقيدة والشريعة التي يدين بها كل مسلم.. وقد أبعدت عنها الإسلام.. فلم يبق ما يدعو للاستمرار في الخضوع لحكم علماني غير إسلامي..

أو للإنصـــهار فـــي بوتقة الدين.. وعلي هذا دعت كل جماعة لإحياء قوميتها.. إذ كل فئة لا تريد أن تذوب في جنسية غيرها.. لأن الجنسية خاصــــة وليســـت عامــــة.. وهـــذا هـــو الفرق الجوهري بين القومية والإســـلام.. وعلـــي أثـــر ذلك نادي الأكراد بقوميتهم.. ونادي العرب بقوميـــتهم.. وطـــبعاً عزيـــزي القارئ لا يخفي عليك التعاون الصليبي الـــيهودي فـــي إثـــارة هذه الفتن.. وفي تفتيت الأمة الإسلامية.. وفي التخطيط للاستيلاء علي أملاك المسلمين.

أمـــا القومية العربية فقد شجع علي ظهورها في صورتها العلمانية: عـــدد مـــن الدول التي كانت تطمع في احتلال الشرق الإسلامي وعلي رأســـها بريطانيا.. وفي مذكرات أغاخان.. فصل عن ضابط بريطانيا السياســـيين.. الذيـــن شجعوا الحركة القومية العربية للوقوف أمام فكرة الدولـــة الإسلامية.. أما- لورنس- المسمي نفسه لورنس العرب.. وهو من أكبر منفذي سياسة بريطانيا آنذاك.. فيقول مصوراً ذلك الهدف في كتابه- أعمدة الحكمة-:

وأخـــذت طـــول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج.. وأتساءل هل تغلـــب القومـــية ذات يـــوم علي النزعة الدينية.. وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني.. وبمعني أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محـــل الوحـــي والإلهـــام.. وتستبدل سوريا مثلها الأعلي الديني بمثلها الأعلي الوطني.. هذا ما كان يجول في خاطري طوال الطريق.

ومعلـــوم أن الـــثورة علـــي الأتراك قامت بتأييد بريطانيا ودعمها الأدبي والمادي.. ودعم حليفتها فرنسا.. وقد ثبت أن عدداً من الزعماء الأتراك كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم.

وأخيراً.

لا أجد عزيزي القارئ للمسلمين بعد هذا كله عذراً.. يعتذرون به.. لتمهيد الطريق أمام دعوة القومية.. أو إثارة هذه النزعة التي من شأنها تفتيت كيان الأمة.. وتمزيق وحدتها.. وجعلها دويلات ضعيفة يسهل علي العدو التآمر عليها وغزوها في عقر دارها.. وتملك ينابيع ثروتها وتشتيت أبنائها.. وكما يفعل اليوم في فلسطين والأفغان والعراق.

الوثنيات الوضعية كتحد عقائدي:

ما هي الوثنية:

الوثنية كلمة تطلق علي مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه وتعالي بالتوحيد.. وتنسب الوثنية إلي الوثن وهي عبادة الأحجار والأصنام.. وقد وصف اليونان القدماء بالوثنية.. كما وصف بها أهل الجزيرة العربية علي اختلاف المدى والفهم.

وكانت الوثنية اليونانية عريقة ذات أيديولوجية كاملة.. ولها فلاسفتها أمثال: أفلاطون وأرسطو.. وشعراء أمثال أخسيلوس وسوفوكليس.

والعقائد الوثنية متعددة.. منها تألية الطبيعة أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان.. أو تألية البشر فرداً أو أسرة أو جماعة.. وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة: كالمصريين القدماء.. أو الحديثة كاليابان والهنود.. وكعبادة الأبطال والقديسين والأولياء.. لذلك فقد حرص الإسلام علي الاختصار في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين حتى لا يتحول ذلك مع الزمن إلي مثل هذا النوع من العبادة.

ومــن العقــائد الوثنــية الاعــتقاد بألوهــية بعض الكائنات الخفية وعــباداتها كالملائكة والجن والشياطين والأرواح وهناك العقائد السلبية والإلحاديــة القائمـــة علـــي إنكار الله ومحوه وإنكار الحياة الآخرة وقد استهدفت هذه المذاهب الدعاية إلي إحياء ما قبل الإسلام.

وقد استشرت هذه الوثنيات وعادت إلي التشكل في صور مهرجات واحــتفالات وأعــياد ومواســم سائدة مع ما تشكله من اختلافات عن العقــيدة الإســلامية وقيمها ومناهجها.. فضلا عما تخلفه من تحديات بإحــيائها طقوســاً لا يعرفها الإسلام ولا يقرها.. وهو الذي حرر منها البشرية.

الوثنيات الوضعية:

١- المجوســية: وهـــي عبادة قائمة علي التناقضات بين عديد من مذاهب العبادة: الشمس والنار والماء.

فالفــرس يقدســون الماء قبل كل شيء إلي حد أنهم لا يغسلون به وجوههــم.. ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع.. أما مكانـــة الـــنار فهو شيء لا حد له.. فهي النار المقدسة التي أقيمت لها المعـــابد فـــي كل مكان.. ولعل أبرز مظاهرها: النظام العبودي حيث تقــف طبقة الفلاحين والصناع.. موقف الاحتقار.. وتقوم الأرستقراطية الإقطاعــية مقصورة علي أفراد الأسر السبع العظيمة.. وحيث يورث الأشراف.. وتورث العبودية.

وقــد تطورت المجوسية بعد زرادشت مرتين.. بظهور ما في عام ٢١٦م ومــزدك عــام ٤٨٧م.. أما المانوية فقد خلطت بين الزرادشتية والــنظرية فـــي مذهب جديد.. وهي تدعو إلي: ترك العمل والزهد في مــلاذ الحــياة.. واســتعجال الفــناء.. أما المزدكية فقد أحلت النساء

والأمــوال.. وجعلت الناس شركاء فيهما.. وأخطر ما في هذه الوثنيات أنهــا تنظر إلي ملوكها.. كأنهم آلهة.. اصطفاهم الله لحكم الناس.. ولا شــك أن العقــيدة الإســلامية.. قد قضت عن هذه النظرية.. وحطمت نظــرية العــبودية.. وأطفــأت بيوت النار.. ودمرت الدولة الساسانية وأزالتها من الوجود.

وقــد ظلــت طــوال عصور الإسلام مخبوءة تحت الرماد.. حتى وجــدت لها متنفساً بعد هذه العصور.. وبرزت كمنافس متحدياً للعقيدة الإسلامية.. وهذه العقائد علي ضعفها بمقارنتها بالعقيدة الإسلامية.. قد اعتــنقها الــبعض كمــا هــي الحال.. ووجدت مروجين لها.. لا بل اســتنفرت مــن يدافــع عــنها.. ووجدت في المجتمعات من يحبذها.. وانخــدع الــناس حتى أصبحت تحديات في وجه المجتمع الإسلامي.. تحــيط به جوانب شتى.. وتفرض عليه نوعاً من التعامل معها بصفتها تحديات عقائدية.

البرهمية:

وتقــول البرهمــية بــثالوث الهــند براهما- فشنو- سينا.. ويعتقد معــتقدها بالتناســخ.. الــذي لا تطهر النفس من آثامها إلا به.. ومن شعارها الانتحار.. والخلاف بين البرهمية والبوذية.. أن البرهمية تقوم علــي نظــام الطــبقات.. للكهان فيها من الامتيازات ما يعلو بها عن مرتــبة البشر.. أما البوذية فجاءت كاسرة لهذا القيد.. وظلت البرهمية تفتقد قوتها.. ويزداد التذمر منها في المجتمع الهندي.. وألتماس البديل عــنها فــي شــخص بوذا في القرن السادس قبل الميلاد.. حيث ظهر بفكــرة جديدة تقوم علي تجريد النفس وقمع الشهوات.. وانتشرت هذه الفكــرة بسرعة.. وشملت شرق آسيا كله.. وهي بهذا ليست ديانة لأنها

لا تحمــل فكــرة أو عقــيدة.. ولكــن مــا لبثت أن هاجمتها الطقوس والأوثان..حتى غدت ديانة وثنية.

وهكــذا بقيت البرهمية منكسرة أمام البوذية التي تغلبت عليها.. حتى جاء- ســتكرأجارية- فــي القــرن المسيحي وقام بنشاط في محاربة البوذية ونشــر البرهمية.. حتى تمكن من إجلاء الديانة البوذية عن الهند.. ثم جــاءت الهندوســية المتجددة بعد البرهمية.. فخلقت مجتمعاً يقوم علي مفاهــيم الزهد المفرط والصوم وأرق الليل وتعذيب النفس.. وهي في مجملهــا تقدس البقر وتخضع للنظام الطبقي الذي هو ركن من أركان العقــيدة.. فالــبراهمة سادة والباقي عبيد.. وامتدتهم النصوص المقدسة التي تقول: إن الله خلق الطبقات علي هذا الوضع.. ومن ثم فالتقسيم لا سبيل لإزالته.

وهكــذا تكشف هذه الديانات الوضعية عن ظلم كبير للنفس البشرية فــي علاقاتهــا بالحــياة.. وعلاقتها بالمجتمع من حيث الانحراف عن مفهــوم الدين الحق.. بالإضافة إلي السلبيات الخطيرة في مجال الحياة مــن الحرمان بالصوم الدائم.. وتعذيب النفس.. والإذلال البشع في تلك العبودية الطبقية بحرمان الزوجة إذا مات زوجها من الزواج.. وحرق جــثمان الميت وتقديم القرابين.. وهي من الأشياء التي واجهتها العقيدة الإســلامية القرابين.. وهي من الأشياء التي واجهتها العقيدة الإسلامية عند ظهورها.. وحررت منها كثيراً من تلك المجتمعات.

ولكــن القلة الباقية من هذه الوثنيات هي التي جعلت تناوئ العقيدة الإســلامية العــداء.. وتناصــبها فــي الترصد لتصبح تحدياً معاصرة للمجتمع الإسلامي.. علي ما فيها من الوضعية والسقوط..

عزيزي القارئ:

إلـــيك مثال عملي من الواقع المعاش.. يوضح لك لماذا تصر القوى الغربية علي إضعاف العقيدة الإسلامية؟

الدولـــة اليهودية التي تقوم علي قيم ومبادئ وعقيدة الدين اليهودي- وهـــي دولـــة دينـــية- يحيط بها أربعة دولة عربية.. إسلامية- مصر وســـوريا .. الأردن ولبـــنان.. الدولـــة الأربعة أعلنوا صراحة.. أنهم يـــريدون السلام والتخلي عن الحرب.. وبالفعل عقدت مصر والأردن اتفاقيتـــي سلام مع الدولة اليهودية.. وخرجتا تماماً من حلبة الصراع- العربـــي الإسرائيلي- سوريا ولبنان تريدان السلام ولكن الظروف غير مواتـــية.. فســـوريا لا تستطيع- وإن كان نظامها يرغب ويتمني- لأن هضـــبة الجولان محتلة.. والدولة اليهودية تشترط تنازل سوري مقابل الســـلام.. ولبـــنان وإن كـــان الجانب المسيحي يرغب في السلام مع إســـرائيل.. ولكـــنه لا يســـتطيع لأن الجانـــب المسلم وخاصة الشيعة يرفضون.

الـــدول الأربعـــة علمانـــية التوجه.. وقد تخلت منذ زمن بعيد عن الاحـــتكام إلي عقيدة الإسلام.. ولكي يرضي الغرب عنها ويضعها في مصـــاف الدول المتحضرة.. قامت بفصل الدين عن الدولة.. بل راحت تتعقـــب الإسلاميين وتتهمهم بالإرهاب تارة.. وبالعمالة تارة والشعوذة تارة.

وحيـــنما تخلـــت هـــذه الدول عن عقيدة الإسلام أصبحت حسابتها دنـــيوية محضـــة.. لـــذا فهي تحسب موازيين القوة بالمنطق البشري- ولـــيس بالمنطق الإلهي- فإسرائيل من الناحية العسكرية تستطيع علي المستوى النظري.. محاربة العالم العربي مجتمعاً وهزيمته.. بفضل ما

قدمـــته الصـــليبية العالمية من أسلحة وصناعة أسلحة غاية في التقدم.. بالإضافة إلي ما تملكه من الرادع النووي.

الضعف والعجز هو ما أعلنته الدول الأربعة..

مـــن الذي تصدي لاعتداءات وافتراءات الدول اليهودية علي جنوب لبـــنان باحـــتلال أجـــزاء منه.. وعلي سوريا بالعربدة وانتهاك حرمة أجوائها؟ أقول.. من الذي تصدي..؟

المقاومـــة اللبنانية.. المتمثلة في فصيل حزب الله.. وهي مجموعة مـــن المســـلمين اتخـــذت من العقيدة الإسلامية لواء لها في حربها مع الدولة اليهودية.

ماذا كانت النتيجة..؟

- انسحاب الدولة اليهودية من الجنوب اللبناني.
- والاعـــتراف بالهـــزيمة.. وتشكيل لجنة لمعرفة أسباب الهزيمة والانحدار أمام فصيل حزب الله.

وخلصت اللجنة إلي:

أنـــه بالإضافة إلي الأخطاء العسكرية للقادة الميدانيين.. فالهزيمة لم تكـــن لهـــا يملكه فصيل حزب الله من أسلحة متقدمة وقدرة مخابراتية فائقـــة.. وإنمـــا لأنـــه يتمثل عقيدة الإسلام في كل مناحي الحياة.. أنه يســـتلهم القـــوة الإلهية في قتاله.. إنه فصيل شديد الإيمان بالله.. شديد الإيمان بنصره.

لـــذا فأنـــا أصنف نصر حزب الله.. بالنصر العقائدي.. لماذا؟ لأن أحدهمـــا عقـــيدته نابعة من الدين الإسلامي.. وهو دين حق.. والآخر عقيدته نابعة من الدين اليهودي المحرف.. وهو دين زائف.

مثال آخر..

المقاومة العراقية..

مجموعة من الناس اتخذت موقفاً من الغزو الصليبي الأمريكي- الإنجليزي للعراق.. رافضين المجازر المعتقلات.. الإهانات وأساليب السخرية والاستهزاء التي توجه إلي العراقيين.. ورافضين أيضاً استباحة أرض العراق.. وثروات العراق.. ومستقبل العراق.

هذه المجموعة أدركت بما تتحلي به من عقيدة الإسلام.. ورغم قلتهم وضعف ما في أيديهم من سلاح.. أنهم قادرون علي إلحاق الأذي بالعدو.

وهذا ما حدث.. فلا يمر يوم إلا ويعترف العدو بقتلي ومصابين في صفوفه.. لدرجة أن الشريك الصليبي الأصفر أعلن انسحابه من البصرة.. لعدم قدرته علي حماية جنوده من المقاومة.

أما الشريك الصليبي الأكبر.. أمسى يعلن أن انسحابه أصبح قريباً.. وأما الشريك الثالث الصهيوني والمتمثل في الموساد والذي يعيث فساداً في العراق.. ويزرع الفتن بين الشيعة والسنة.. ويقتل علماء العراق من أساتذة جماعات وأطباء ومهندسين ليفرغ العراق من مستقبله.. هذا الشريك الذي يسلح أكراد الشمال ويزين لهم الانسلاخ.. وتكوين دولة مستقلة.. هذا الشريك فقد في الأيام الأخيرة أكثر من عميل بيد المقاومة.

هل أدركت عزيزي القارئ لماذا يصر الغرب علي إضعاف العقيدة الإسلامية عند المسلمين..؟ ..؟

في أحد قاعات فندق شيراتون- عقدت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العالمي: "حقوق الإنسان في الإسلام".

وهناك التقيت مسيو: شارل سايمون.. ولكنه لم يكن كما عهدته.. فلم يستقبلني بابتسامته الآخذة.. ولا بكلمات التشوق.

استفسرت منه عن حاله.. قال وهو يضغط حروف كلماته..

- بخير.. ولكنني في الآونة الأخيرة.. تفرغت لأعيد ترتيب أوراقي.. فقد اكتشفت مثلاً.. أنني لم أقرأ القرآن ولو مرة واحدة باللغة العربية التي أجيدها كما يجيدها أبناءها.. دائماً.. دائماً كنت أقرأ القرآن مترجماً.. كما نصحني أصدقائي المستشرقين والمبشرين.

فقلت منبهراً..

- وهل قرأته باللغة العربية..؟

قال ولم يزل يضغط حروف كلماته..

- نعم.. وأدركت أنني لم أكن منصفاً.. إنما كنت متجنيا.

قلت بصوت خفيض..

- فليسامحك الله.. وليغفر لك.

وفي الطريق الصحراوي الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية.. كنت لا أفعل شيء.. سوى النظر إلي السماء وأنا أردد:

- الحمد لله الذي هدانا للإسلام.. وأنه لدين الحق.

ثم قلت وكل خلية في جسدي تردد معي.. بل كل ما يحيط بي من حبات الرمل والشجر والهواء والطريق والسماء والسيارة:

- حقاً: "إن الدين عند الله الإسلام.." سورة آل عمران- ١٩.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قائمة المراجع..

١- أربيروجي- الدين في الشرق الأوسط- لندن ١٩٢٨م.

٢- أنــور الجــندي- الإســلام نظــام مجتمع ومنهج حياة- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٧٩م.

٣- الشــبهات المطــروحة في أفق الفكر الإسلامي- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٠م.

٤- التبشير الغربي- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٨٠م.

٥- الإسلام والعالم المعاصر- دار الكتاب- بيروت ١٩٧٣م.

٦- الإسلام في وجه التغريب- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٢م.

٧- سقوط العلمانية- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٠م.

٨- شبهات حول الإسلام- دار الشروق- القاهرة ١٩٧٥م.

٩- علــي عــبد الله الدفــاع- إسهام المسلمين في العلوم- مطابع الشروق- بيروت ١٩٨١م.

١٠- علي منصور- شريعة الله وشريعة الإنسان- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٤م.

١١- غازي التوبة- الفكر الإسلامي المعاصر- دار القلم- بيروت ١٩٧٧م.

١٢- عبد السميع المهراوي- الصهيونية بين الدين والسياسة- دار النشر- بيروت ١٩٧٨م.

١٣- فتحي إبياري- الصهيونية- دار المعارف- القاهرة ١٩٧٦م.

١٤- محمـــد أســـد- الإســـلام علـــي مفترق الطرق- دار الجاد- الكويت ١٩٨١م.
١٥- محمد علي جريشة- أساليب الغزو الفكري- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٨٠م.
١٦- محمـــد فـــريد بـــك- تاريخ الدولة العثمانية- دار النفائسي- بيروت ١٩٨١م.

المراجع الأجنبية..

1- Margoliouth: D. S.

Mohammad and the Rise of Islam.

"London- 1932"

2- Dermenghem: Emile.

Lavie de Mohomet.

"Paris, 1930"

3- Hell- Joseph

Arab cvilization.

"Combridze 1920"

4- Muir: sir William Tampel.

The live of Mohammed.

"Edinburzh- 1932"

5- Arnold: sir thomarw.

The Preaching of Islam 3 d- edition.

"London- 1935"

6- Lewiz; Bernord

The origins of Islam ilism .

"Cambridge 1970"

7- Milme: Grdflon.

History of Egypt under Rome Rule.

"London 1913"

الفهـــــرس

الفهـــــرس

الفهـــــرس

الفهـــــرس

الفهـــــرس